د. محمد نصر الدين الجبالي

الأدبُ الروسي

شخصيات وتاريخ وظواهر

دار دَوِّن

الأدَبُ الرُّوسي

شخصيات وتاريخ وظواهر، كتاب



محمد نصر الدين الجبالي: الأدَبُ الرُّوسي شخصيات وتاريخ وظواهر، كتاب

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٢

رقم الإيداع: ٣٠٤١ /٢٠٢٢

- الترقيم الدولي: 978 - 977 - 806 - 295 - 3

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

أ.د.محمد نصر الدين الجبالي

الأدَبُ الــرُّوســي

شخصيات وتاريخ وظواهر





تقديم

يحتل الأدب الروسي مكانة كبيرة بين آداب العالم. وقد تميز الأدباء الروس عن غيرهم بمساعيهم الدائمة لسبر أغوار النفس الإنسانية والتناول الشجاع لما بها من متناقضات. ولا يمكن لأحد أن ينكر دور الشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين في تطور الشعر ونيقولاي غوغول في النثر. وهناك أسماء أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ولا يخلوا عام من ترشح كاتب أو أكثر لجائزة نوبل للآداب.

تعود أصول الأدب الروسي القديم إلى القرن الحادي عشر الميلادي ويعتبر بذلك أحد أقدم الآداب العالمية. كانت روسيا في تلك الفترة تعيش بمعزل عن التحولات الجارية في أوروبا. وانعكس ذلك على الأدب وغيره من الفنون.

كما تعود أصول الأدب الروسي إلى الثقافة اليونانية وارتبط ذلك بانتشار الديانة الأرثوذكسية في روسيا في تلك الفترة. وكانت اللغة الروسية المعروفة في تلك الفترة هي اللغة السلافية الكنسية واعتمدت على اللهجة البلغارية التي كانت متداولة حينها في أطراف سالونيك. وكانت لغة الروس والرومانيين كذلك. وقد تأثرت هذه اللغة بنظيرتها اليونانية ومن هناك جاءت وفرة المفاهيم في اللغة اليونانية التي تحمل نفس المعاني وفي شكل الكلمة في اللغة السلافية.

شهد القرن الثامن عشر في روسيا سيطرة تيار الأدب الكلاسيكي أو الاتباعي وهو اتجاه محافظ يلتزم فيه الأديب بالتقاليد والقواعد التي أرساها سابقوه. وقد ظهر هذا الاتجاه في روسيا بعد التحولات التي قام بها القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥م) حيث قام الشاعر والعالم الكبير ميخائيل لومونوسوف بإدخال كثير من التعديلات والإصلاحات في نظم الشعر الروسي حتى يُقرِّب بين القواعد الفرنسية الكلاسيكية واللغة الروسية. وتطور الاتجاه الكلاسيكي في روسيا تحت تأثير فكرة التنوير التي سادت تلك الفترة، حيث انتشرت أفكار المساواة والعدالة وكانت في بؤرة اهتمام الكتاب الكلاسيكيين.

يعتبر القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي في الأدب الروسي حيث أصبح أدبًا عالميًا بامتياز. ولا ريب أن ازدهار الأدب الروسي في تلك الفترة يرجع إلى النجاحات والإنجازات الأدبية التى تحققت خلال القرنين ١٧-١٨م. شهد هذا القرن تشكُل اللغة الروسية الفصحى، وكان للشاعر الكبير ألكسندر بوشكين الفضل الأكبر في ذلك.

وفي روسيا يحتل الأدب دائمًا مكانة هامة فالشاعر فيها هو أكثر من شاعر ودوره في الحياة الاجتماعية يتخطى بكثير مهام الشاعر والأديب التقليدية . ولذا كان مصير الأدب دائمًا ما يقلق المواطن الروسي خاصة عندما يعاني من عثرات وفترات اضمحلال ولذا فإن المواطن الروسي يهتم بقضايا الأدب بدرجة ليست أقل من اهتمامه بالشأن السياسي. وهذا ليس بمستغرب فقد كان الأدب بوصفه وسيلة لنشر الأفكار أقدم بكثير من السلاح الناري أو الديمقراطية البرلمانية. فالأدب هو فن قديم ظهر في عصور ما قبل التاريخ تجسد حينها في أجناس شفهية غير مكتوبة. واليوم يعد الأدب وسيلة وأداة أساسية لصناعة المتعة والتسلية المفيدة كما أنه صناعة يعمل فيها الملايين.

ويعيش الأدب الروسي مرحلة انتقالية جديدة في تاريخه تشبه تلك التي عاشها في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. شهدت العقود الثلاثة الأخيرة انتقال الأدب الروسي من مرحلة سيطرت فيها الرقابة على الإبداع في الحقبة السوفيتية إلى مرحلة جديدة استفاد فيها الأدب كغيره من الفنون من أجواء حرية التعبير.

ومن أهم الاتجاهات الأدبية المعاصرة في روسيا «ما بعد الحداثة» ويتمثل في إعادة تقييم المعايير الجمالية ومزج الأساليب واللغات والثقافات والاقتباسات الساخرة من التجارب الفنية العالمية. وعلى الرغم من أن الاتجاهات الحديثة في الأدب الروسي قد تخطت مرحلة ما بعد الحداثة وتمضي قدمًا إلا أن هذا الاتجاه ما زال صامدًا وخاصة بين النخبة من المثقفين.

والأدب الروسي المعاصر يعيش مرحلة البحث عن الهوية ويحاول إثبات قدرات ومواهب الأدباء الجدد على مواصلة التقاليد العظيمة في الأدب الروسي وتحقيق اكتشافات إبداعية جديدة. كما يمكن القول أن وفرة الكُتاب الشباب الواعدين يبعث على التفاؤل بمستقبل الأدب الروسي خلال النصف الأول من القرن الحادي والعشرين.

هذا الكتاب يضم مجموعة المقالات الصحفية التي قمنا بنشرها في عدد من الصحف الأدبية والعامة عن تاريخ الأدب الروسي بعد إضافة المزيد من التفاصيل وعدد من الموضوعات الجديدة بهدف تقديم استعراض لبعض ظواهر وصفحات من تاريخ هذا الأدب غزير الإنتاج وعظيم التأثير والذي قدم روسيا للعالم. وتم الاستعانة بعدد من المراجع الروسية الأصيلة المرفقة في نهاية الكتاب التي تناولت حياة الكُتاب الروس لسرد أهم مراحل حياتهم الأدبية وأهم مؤلفاتهم وتواريخ صدورها على نحو دقيق .

يقدم هذا الكتاب عرضًا لعدد من الظواهر المميزة للأدب الروسي ومراحل تطوره المختلفة وكذا أهم الأدباء والأثر الذي تركوه في الحضارة الإنسانية. كما يتضمن بعض المقالات حول التأثير المتبادل بين الأدبين الروسي والعربي وصورة مصر والشرق وإفريقيا في الأدب الروسي. كما يعرض الكتاب بعضًا من تاريخ آداب الشعوب الناطقة بالروسية حيث يتعرض لصفحات من الثقافات الكازاخية والطاجيكية والأوكرانية.

وأرجو أن يتعرف القارئ الكريم من خلال هذا الكتاب وبشكل موجز على الأدب الروسي وأن يكون هذا الجهد مقدمة لجهد أكبر يتم من خلاله تناول هذا الأدب الثري بالدراسة المستفيضة لكل مراحله وإنجازاته وإسهاماته في تاريخ الأدب العالمي.

د. محمد نصر الدين الجبالي



الباب الأول
نشأة الأدب الروسي



1

بين الديني والتاريخي

تعود أصول الأدب الروسي القديم إلى القرن الحادي عشر الميلادي، ليعتبر –بذلك - أحد أقدم الآداب العالمية. فقد كانت روسيا في تلك الفترة تعيش بمعزل عن التحولات الجارية في أوروبا. وانعكس ذلك على الأدب وغيره من الفنون. أما عن المؤثرات التي صنعت هذا الأدب فإنها تعود إلى الثقافة اليونانية، وارتبط أيضًا بانتشار الديانة الأرثوذكسية في روسيا في تلك الفترة.

بينما كانت اللغة الروسية المعروفة في تلك الفترة هي اللغة السُّلافية الكنسية، واعتمدت على اللهجة البلغارية التي كانت متداولة حينها في أطراف سالونيك. وكانت لغة الروس والرومانيين كذلك. وقد تأثَّرت هذه اللغة باليونانية، ومن هناك جاءت وفرة المفاهيم في اللغة اليونانية التي تحمل نفس المعاني وفي شكل الكلمة في اللغة السُّلافية.

كانت اللغة الروسية السُّلافية في بداياتها لغة فنية، تختلف تمامًا عن اللغة الدارجة حينها، ومع الوقت ازدادت السمات الفنية وتعرضت اللغة الدارجة للكثير من التغييرات. وبقيت اللغة السُّلافية الكنسية كما هي بل اقتربت أكثر فأكثر من اليونانية. وعملت أجهزة الحكم والإدارة في الأقاليم المختلفة في روسيا على تطوير أشكال من اللغة أكثر قربًا من لغة السكان المحليين؛ ولأسباب كتلك نجد اللغة تختلف من مكان إلى آخر في روسيا. ومع نهاية القرن الخامس عشر أصبحت لغة إمارة موسكو هي اللغة الرسمية للإمبراطورية، وكانت هذه اللغة تختلف عن اللغة الفصحى بشكل كبير. فقد كانت اللغة الروسية المتداولة متحررة من الألفاظ الكنسية واليونانية، وكان تركيبُ الجملة فيها بسيطًا جدًّا، والحصيلة اللغوية من الألفاظ ضخمة. واتسمت اللغة الروسية حينها بكونها معبرة وقادرة على التصوير والوصف، لكنها لم تصلح لتكون بديلًا للغة السُّلافية الكنسية القديمة. أو للاستخدام في الأغراض الأدبية. حيث استخدمت اللغة الروسية للمرة الأولى للأغراض الأدبية في الربع الثالث من القرن السابع عشر الميلادي، وذلك على يد المبدع العظيم القديس أفاكوم.

لم يكن الأدب في تلك الفترة من المهن المتعارف عليها في روسيا القديمة، ولم يكن هناك كُتَّاب أو أدباء. وكانت القراءة وجمع الكتب يلقيان

احترامًا كبيرًا إلا أن الأعمال الأدبية لم تظهر إلا عندما برزت الحاجة إليها. لكنها لم تحظى بمكانة كبيرة في تلك الفترة، ولم تكن من أولويات القراء في روسيا القديمة. إذ كان القراء يبحثون في المقام الأول عن الكتب التي تتحدث في المقدسات والمواعظ الدينية. ومن يريد أن يقرأ في الفلسفة فإنه يتوجه إلى الإنجيل. كما كانت الطباعة مكلفة وهو ما أثَّر بالسلب على انتشار الكتب. وكانت المخطوطات هي الوسيلة الشائعة لذلك حتى منتصف القرن الثامن عشر. فقد كانت روسيا تعيش حياة القرون الوسطى، حتى تولت حكمها الإمبراطورة يكاترينا التي عملت على تطوير بلادها، وهو ما انعكس على سوق صناعة الكتب أيضًا.

ويرجع السبب في فقر الأدب الروسي نسبيًّا في تلك الفترة إلى ارتباط الثقافة الروسية القديمة أكثر بالعمارة والرسم مقارنة بالأدب؛ ولذا عادة ما يتم تقييم تلك الفترة من حيث الإنجازات التي تحققت في مجال الفنون جميعًا وليس الأدب وحده.

وتُعد الطقوس الدينية أكثر المصادر تأثيرًا على الإنسان في روسيا القديمة. وعلى الرغم من محاولات السُّلاف في جنوب روسيا في القرن العاشر الميلادي محاكاة اللحن والإيقاع في اللغة اليونانية، إلا أن الطقوس الدينية الروسية القديمة لم تستجب لمحاولات جمعها على هيئة شعر؛ ولذا لا تحظى الأشعار التي بقيت من تلك الفترة بأهمية كبيرة.

وفضلًا عن الإنجيل وكتب الطقوس الدينية كانت كتب القدِّيسين لها مكانة خاصة، وكانت عبارة عن سرد لحيواتهم. وأهمها كتاب حياة القديس ذهبي الفم. والذي كان معلمًا عظيمًا ومتحدثًا بليغًا. كما حظي القديس يوحنا الدمشقي بمكانة رفيعة أيضًا.

انتقل مركز الإمبراطورية الروسية القديمة إلى مدينة كييف في الفترة من القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. وبرز - في تلك الفترة - طبقتان اجتماعيتان كان لهما السيادة، وهما طبقة سكان المدن وطبقة الأرستقراطية العسكرية. واتسم الأدب والفن في تلك الفترة أيضًا بالطابع الديني. حيث خضع العسكريون لنفـوذ الكنيسـة، ولم تشهد تلك الفترة سوى عمل أدبي واحد كبير، يمكن أن يعتبر من الروائع فعلًا، ألا وهو الملحمة الشهيرة «حملة الأمير إيجور».

وقد تم العثور على هذا الكتاب في عام ١٧٩٥م على يد أحد النبلاء في البلاط الإمبراطوري ويدعى أ. موسين بوشكين. وقد تم نسخ نسخة من الكتاب خصيصًا للإمبراطورة يكاترينا الثانية، وتمت طباعته للمرة الأولى في عام

١٨٠٠م. واحترقت النسخة الأصلية من الكتاب إثر حريق في موسكو عام ١٨١٢م، ما يضاعف من أهمية النسخة التي نسخت للإمبراطورة، وما تبقى من نسخ من الطبعة الأولى.

وقد بدا هذا الكتاب في البداية منعزلًا وبعيدًا عن السياق العام من حيث موضوعه ولا يمت بصلة بما يجرى من أحداث معاصرة حينها. ومن الواضح أنه قد تمت كتابته مباشرة بعد وقوع الأحداث التي وردت به، وربما في العام نفسه، ويتسم السرد فيه بكونه تاريخيًّا في الأساس حيث يتطابق مع ما ورد في المسرد التاريخي الأول لتاريخ دولة كييف. وتعكس هذه الملحمة استخدام الشعر العلماني في روسيا القديمة حينها، والذي بقي ولم يندثر بفضل المنشدين الذين كانوا عادة ينتمون إلى طبقة العسكريين. وقد تطور هذا النوع من الشعر في القرن الحادي عشر والثاني عشر.

ويُعد هذا الكتاب الوحيد من نوعه في النثر السجعي. ومن الصعب أن ننسب هذا الكتاب إلى جنس أدبي معين. فلا هو شعر غنائي ولا ملحمي ولا نص سياسي بل هو مزيج من كل هذا. ويدور مضمونه حول الحملة الفاشلة التي قام بها الأمير إيجور ضد شعب الكومان وانتصاراته في البداية ثم هزيمته ووقوعه في الأسر. ثم يبدأ الجزء الثاني من الكتاب، والذي هو عبارة عن استطراد طويل غنائي أو ربما خطابي يتحدث فيه المؤلف عن أمير كييف العظيم الذي يحلم بكابوس يرمز إلى حدوث مأساة لإيجور. ثم يتوجه المؤلف بالحديث إلى جميع الأمراء الروس واحدًا تلو الآخر بدءًا من سوزدال إلى جاليتسي ويدعوهم جميعًا للتدخل وإنقاذ إيجور. ثم ينتقل المؤلف إلى الجزء الثالث من الكتاب، ويحكي فيه عن هروب إيجور من الأسر ويتحدث أيضًا عن نجاحاته الأولى ومن ثمَّ هزيمته. وتتطابق الأحداث في الكتاب مع كل ما جاء في كتاب تاريخ دولة كييف.

وتُعد ملحمة «حملة الأمير إيجور» الأثر الأدبي الوحيد من الأدب الروسي القديم الذي يندرج بين كلاسيكيات الأدب الروسي. ولا يوجد شخص مثقف في روسيا إلا وقرأه ناهيك عن المتخصصين في الأدب والشعر. وبطبيعة الحال هناك فارق في المستوى بين الشعر الموجود فيه والشعر الكلاسيكي الروسي في عصر بوشكين مثلًا، إلا أنه لا يمكن أن نعتبره شعرًا سيئًا. فإذا كان بوشكين شاعرًا كلاسيكيًّا عظيمًا، فإن مؤلف هذه الملحمة أستاذ بارع في الشعر الرمزي والرومانسي.

سير القديسين

انتشرت كتب حياة القديسين، واعتبرت أشهر أنواع الأدب في حينها. وكان المؤلفون عادة من أصحاب الصيت الذائع والمكانة العالية، وكان الناس يتناقلون هذه الكتب ويعيدون نسخها وقراءتها. ولعل أهمها «قراءة في حياة واستشهاد بوريس وجليب» و«حياة الأب فيدوسي» في بدايات القرن الثاني عشر.

وعادة ما كانت قصص حياة القديسين، تكتب على يد أصدقائهم المقرَّبين بعد وفاة القديس مباشرة. وأحيانًا يقومون بذلك في حياتهم ولكن بعد أن يتولوا المنصب الكنسي الرفيع. وكان الهدف من كتابة هذه السِّيَر التعريف بحياة القديس، وذكر كراماته ومأثره، وتخليد ذكراه؛ حتى تتعرف الأجيال التالية على هذه الشخصية العظيمة.

وقد تمت ترجمة بعض سِير حياة القديسين الأولى من اليونانية إلى الروسية ومنها «حياة أنطونيو العظيم» و«حياة ألكسي الإنسان الرباني» وغيرها. وكان هذا الكتابان بمثابة اللبنة الأولى في تطور هذا الجنس الأدبي القديم. ومن سمات هذا النوع من الإبداعات أن القاص يتحدث بضمير الغائب، وكانت تتكون من ثلاثة أجزاء مقدمة وسيرة حياة القديس ثم الخاتمة. وعادة ما يقوم المؤلف في المقدمة بطلب العفو من القراء على عدم مقدرته على الكتابة وعلى ضعف السرد إلخ. ودائمًا ما تحتوى الخاتمة على مديح للقديس، هذا المديح يكون على شكل قصيدة غنائية نثرية.

ويتطلب هذا النوع من الكتب الالتزام بتصوير البطل بطريقة معينة تتمثل إما في النقد الشديد أو المديح الشديد. فالشرير هو دائمًا الإنسان السلبي في الحياة، أما القديس فهو دائمًا الإنسان الإيجابي.

ويختلف هذا الجنس الأدبي «حياة القديسين» عن السِّير العادية، ففي الأول لا يشترط حدوث تطور في العمر أو في شخصية البطل. فالقديس ثابت. هو قديس من لحظة ميلاده وهو مختار من الله.

ويسعى مؤلِّف هذا النوع من الكتب إلى استبعاد كل السمات الفردية في شخصية القديس، وهو لا يعكس الواقع المحيط بقدر ما يفرض على هذا الواقع مثله ومبادئه. وتأثرت هذه الكتب عن حياة القديسين بالحكايات الشعبية والفلكلور عمومًا.

أما أسباب ظهور هذا النوع من الكتب، فهي التعرف على ترجمات لكتب سير حياة القديسين البيزنطية، وكذا كتب الأساطير، وهو ما أثار لدى المثقفين

الروس حينها السعي لتجربة مهاراتهم في هذا النوع من الكتابة.

ومن السمات المميزة أيضًا لسير حياة القديسين التجريد، حيث يتجنب المؤلف التحديد والدقة وسرد التفاصيل التي يمكن أن تشير إلى فردية الحدث أو المواقف. وهو أمر متعمد من جانب المؤلف، حيث يسعى لدراسة حياة القديس خارج سياق الزمن والمكان إلى اللازمان واللامكان؛ ولذا من المعتاد إسقاط الأسماء وتسميتهم بمكانتهم الاجتماعية، وإسقاط المواقع الجغرافية والتواريخ المحددة وغيرها.

وقد استمر هذا الجنس في التطور في القرن الثالث عشر، وشهد التزامًا صارمًا من المؤلفين بقواعد هذا الجنس الأدبي إلا أنه كثيرًا ما فرضت الأحداث السياسية والتاريخية على المؤلِّف أن يضطر إلى الخروج عن تلك القواعد، ويسهب في وصف الأحداث التاريخية والواقع المحيط والأحداث الواقعية في حياة البطل. فقد أضافت الحياة الواقعية لجنس سير حياة القديسين نوعًا من الحيوية والتنوع الأدبي وعنصر التشويق في المضمون. وأصبحت هذه الكتب أقرب إلى الأدب الاجتماعي والتاريخي العلماني.

ومن أهم الأعمال التي صدرت خلال القرن الثالث عشر «قصة حياة ألكسندر نيفسكي» والتي تصور الأمير والقائد العسكري ألكسندر نيفسكي بصفته محاربًا من أجل العقيدة الأرثوذكسية ويستشهد في سبيلها.

ويُعد ألكسندر نيفسكي من الأبطال البارزين في التاريخ الروسي، وتولى إمارة منطقة نوفجورود بين عامي ١٢٣٦ - ١٢٥١م، ثم تولى إمارة فلاديمير من ١٢٥٢ - ١٢٦٣م، وقاد حروبًا شرسة ضد المحتلين الألمان والسويديين، وقد اعتمد هذا القائد على حب شعبه من البسطاء، واستفاد من دعمه في حماية الأراضي الروسية من الأعداء.

ويرى النقاد أن «قصة حياة ألكسندر نيفسكي» تنتمي إلى جنس السير الغيرية، ويهدف الكتاب إلى إظهار أنه ورغم خضوع الإمارات الروسية إلى المغول والتتار، فقد بقي في روسيا أمراء قادرون على مواجهة الأعداء.

كيف حكى الروس عن رحلاتهم؟

لعبت كتب الرحلات أيضًا دورًا كبيرًا في تطور الأدب الروسي القديم. فقد بدأ الروس رحلاتهم إلى الأراضي المقدسة في فلسطين بعد دخول المسيحية

رسميًّا، وتحولت هذه الكتب إلى نافذة للإبداع وإظهار المقدرة على البلاغة في الوصف. ونذكر منها كتاب «حياة ورحلة حج رئيس الدير دانيال من أراضي روسيا» وهو لمؤلف مجهول سافر إلى الأراضي المقدسة في الفترة ما بين ١١٠٦ - ١١٠٨م ونقل من خلال كتابه انطباعاته عما رآه في تلك البلاد ووصف مدينة القدس ونهر الأردن والأماكن المقدسة. وينتمي الكتاب إلى حد ما إلى جنس يوميات الرحلة.

وفضلًا عن هذا الكتاب فإن كتب سرد الأحداث التاريخية المهمة تعتبر أكثر الكتب والآثار الأدبية انتشارًا في تلك الفترة. ويمثل هذا الجنس الأدبي سمة مميزة للأدب في فترة دولة كييف. والذي استمر حتى القرن السابع عشر. وكان المؤلفون في البداية من الرهبان ثم الكَتبة الرسميين. وهناك مجموعتان من كتب السرد التاريخي تغطي فترة دولة كييف، أولها يتناول الفترة من نشأة الدولة الروسية حتى عام ١١١٦م. ثم هناك مجموعة كتب تاريخ كييف، وتتناول الفترة من ١١١٦م إلى ١٢٠٠م. ويتناول الكتاب الأول تاريخ السُّلاف وأصولهم، ثم انتشارهم في أصقاع روسيا وأوروبا وعاداتهم. كما يسرد الكتاب الأحداث التي وقعت في نهاية القرن التاسع وخلال القرن العاشر الميلادي. وينتهج الكتاب أسلوب التسلسل الزمني لسرد الأحداث من القديم للحديث. وفي أثناء ذلك يستخدم المؤلف الحكايات والأساطير الشعبية والتقليدية، ما يمنح الكتاب جاذبية وتشويقًا.

وكان الكتاب الثاني أقل جودة وإتقانًا غير أنه يبقى مرجعًا وأثرًا مهمًّا وأساسيًّا. ويتناول نضال الأمير إيزياسلاف الثاني للوصول إلى عرش كييف في الفترة من ١١٤٦ - ١١٥٤م. وتتكشف من خلال الكتاب حياة الطبقة العسكرية الروسية، والكتاب يفوح بالروح العسكرية والتعطش لتحقيق النصر والفوز بالشرف العسكري في ساحات القتال، ويتميز بالحيوية في السرد؛ ولذا يُعد هذا الكتاب من روائع الأدب التاريخي في فترة دولة كييف؛ حتى إنه يتفوق على كثير من الكتب التي ظهرت لاحقًا في القرون الوسطى.

وهكذا يمكن القول إن أصول وجذور الأدب الروسي القديم تتأرجح بين الديني والتاريخي وتتسم بإعلاء القيم الروحية والدينية والأخلاق والمُثل. كما أنها تدعو إلى إذكاء الروح الوطنية، والدعوة لخدمة الوطن والأرض الروسية.

الباب الثاني
تطور الأدب الروسي عبر السنين

1

عصر بطرس الأكبر.. نحو علمانية الأدب

شهد القرن الثامن عشر في روسيا سيطرة تيار الأدب الكلاسيكي، وهو اتجاه محافظ يلتزم فيه الأديب بالتقاليد والقواعد التي وضعها من سبقوه. وقد ظهر هذا الاتجاه في روسيا بعد التحولات التي قام بها القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥م)،

الوقت الذي قام فيه الشاعر والعالم الكبير ميخائيل لومونوسوف بإدخال كثير من التعديلات والإصلاحات في نظم الشعر الروسي حتى يقرب بين القواعد الفرنسية الكلاسيكية واللغة الروسية.

وتطور الاتجاه الكلاسيكي في روسيا تحت تأثير فكرة التنوير التي سادت تلك الفترة، حيث انتشرت أفكار المساواة والعدالة حتى مثلت بؤرة اهتمام الكتَّاب الكلاسيكيين. ومن أهم سمات هذا الاتجاه التزام الأديب بالقواعد الصارمة التي تميز جنس أدبي ما. كما كان هؤلاء الكتَّاب يختارون الموضوعات المرتبطة بالتاريخ والثقافة والفلسفة والفنون في اليونان وروما القديمة. وعادة ما كان يتم تصوير كل ما يرتبط باليونان القديمة وروما القديمة بكونه مثالًا يحُتذى ونموذجًا للجمال ينبغي تقليده؛ ولذا كان من المسموح للأديب سواء الشاعر أو الناثر أن يختار من بين موضوعاته المسائل والقضايا الأبدية في الحياة أو التي لا تتعرض للتغيير وأهمها القضايا الفلسفية. وقد أكَّد الاتجاه الكلاسيكي في الأدب الروسي على هرمية الأجناس الأدبية، حيث تم تصنيفها إلى نوعين: «الأجناس العليا» – كالملحمة والقصيدة الغنائية والتراجيديا و«الأجناس الدنيا أو السفلى» كالكوميديا والسخرية والحكاية الرمزية. كما لم يكن يسمح بالمزج بين الأجناس الأدبية في عمل واحد، وكان كل منها يلتزم بالقواعد الصارمة التي أرساها السابقون.

وقد قام الشاعر لومونوسوف بوضع نظريته في اللغة الروسية الفصحى مستفيدًا من خبراته ومعرفته بعلم البلاغة اليوناني واللاتيني. ومع الدعوات التي أطلقها روسو للكتَّاب الكلاسيكيين للاقتراب من الطبيعة وتصويرها ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر آراء تدعو إلى الكتابة عن المشاعر الرقيقة والأحاسيس المرهفة وأطلق على هذا التيار الجديد – السنتيمنتالية. وقد أطلق على هذا الاتجاه الجديد – اتجاه ما قبل الرومانتيكية. وازدهر هذا التيار بداية في الأدب الألماني وتحديدًا في أعمال جوته وشيلير.

شهد عصر بطرس الأول أو الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥م) تغلغل الثقافة الأوروبية إلى روسيا حتى مست كل مجالات الثقافة خاصة بين نخب المجتمع الروسي. وتعلم الروس الكثير في الغرب إلا أنهم لم يقبلوا كل ما هو أوروبي، بل انتقوا ما هو ضروري بالنسبة إليهم من روائع الثقافة الأوروبية.

وشهدت اللغة الروسية أيضًا في تلك الفترة بعض التغييرات والظواهر المهمة. حيث لم تستطع روسيا القديمة صياغة لغة وطنية موحدة ولغة قادرة على التعبير عن كافة أنماط الاستخدامات اللغوية ومتطلبات الحديث. وكانت فترة حكم بطرس الأكبر بمثابة انقلاب وتحول مهم في اللغة كونها شهدت توحيد عناصرها التي بدت في السابق متفرقة ومتباينة. وكانت هذه التحولات قد بدأت في القرون السابقة، ولكنها كان تسير ببطء شديد، أما الآن فأصبحت الوتيرة متسارعة.

وقد جعلت حكومة بطرس الأكبر على رأس أولوياتها الإسراع بإرساء الأفكار التنويرية ونشر الثقافة في المجتمع الروسي. حيث قرر القيصر منذ السنوات الأولى لحكمه إرسال وفود من الطلاب الروس إلى أوروبا. كما أن ذلك وحده لم يكن كافيًا لحل مشكلة توفير الكوادر المؤهلة؛ ولذا قام بطرس الأكبر بتأسيس مدارس فنية غير دينية جديدة في روسيا. وكانت المدارس الفنية هي الأكثر انتشارًا بين أنواع المؤسسات التعليمية في روسيا في تلك الفترة. وكان لهذه المدارس دور ليس فقط تعليميّ بل وثقافي تنويري أيضًا. وقامت المدارس بدور كبير في نشر ثقافة التعلم بين الروس. لم يكن التعليم فيها كنسيًّا لاهوتيًّا كما كان في السابق عادة، ولم يقتصر التدريس فيها على علوم الخطابة والمنطق والفلسفة بل كان التركيز على معرفة العالم المحيط والدعاية للمعارف الحقيقية حول الطبيعة والمجتمع، وكل ما توصل إليه العلم في تلك الفترة.

وكان للصحافة دور مهم في تلك الفترة، حيث قامت بالدعاية للثقافة والسياسة التي تبناها بطرس الأكبر. وبلغ عدد الإصدارات والكتب التي صدرت في فترة حكم بطرس الأكبر أكثر من ستمائة كتاب ومطبوعة. ولم يصدر خلال حكمه أي عمل أدبي تقريبًا حيث لم تكن هناك موارد مادية كافية لذلك، كما لم يكن لدى القيصر الإصلاحي وقت لذلك. ومن أمثلة الكتب المنشورة في تلك الفترة الكتب التعليمية في الهندسة والجغرافيا والرياضيات عمومًا والشئون العسكرية. كما كانت هناك ترجمات لكتب في التاريخ وأمهات الكتب في القانون. كما نشر كتاب «حكايات إِيسُوب» عدة مرات ليس بوصفه عملًا أدبيًّا بل كدليل إرشادي وتهذيبي لمبادئ الأخلاق، كما نشرت كتب في الأدب الاجتماعي لبعض المؤلفين الروس.

أراد بطرس الأكبر بذلك أن يستطيع الروس الإلمام بعادات وقواعد السلوك وطريقة الحديث وحسن المظهر؛ ولذا فقد أمر بإصدار كتب إرشادية خاصة بذلك. وفي عام ١٧١٧م صدر للمرة الأولى كتاب عن قواعد السلوك والأدب في الحديث. ويشرح المؤلف في الكتاب كيف يجب التحدث مع الأكبر سنًّا، وكيف يجب أن يسلك الفرد في المجتمع وفي تعامله مع الناس، وكيف يجب أن يتصرف الشاب في مقتبل عمره.

من بين إنجازات بطرس الأكبر إصدار الصحيفة الأولى في روسيا «الأخبار» في عام ١٧٠٣م. وهي السنة التي ولدت فيها الصحافة الروسية. ونشط الأدب الاجتماعي وصحافة الرأي في الدعاية للإصلاحات التي يقوم بها بطرس الأكبر والحروب التي خاضها، ومناهضة كل الأشكال ونماذج التفكير القديم، وأنماط الحياة القديمة، وإلى مساعدة الناس على استيعاب وفهم فكرة ومغزى سياسة القيصر.

وكان الربع الأول من القرن الثامن عشر فترة ازدهار للأدب الاجتماعي وصحافة الرأي. وقد عبرت هذه الصحافة ومقالات الكتاب عن الصراع الدائر حول جدوى الإصلاحات التي يقوم بها القيصر. ونظرًا لأن مقدرات الصحافة كانت بيد الحكومة فإنها كانت في أغلبها تؤيد هذه الإصلاحات وتلك السياسة وتدافع عنها وتشرح أهدافها وإيجابياتها. غير أن رد الفعل المعارض من جانب الكنيسة وقتها لم يعدم الوسيلة للتعبير عن نفسه أيضًا من خلال المقالات الصحفية. وقد اشتهر حينها رجل دين يدعى ستيفان يافورسكي راعي إحدى الكنائس بكتابة مثل هذا النوع من المقالات. وكان كاتبًا بارعًا وموهوبًا غير أنه عارض السياسة الإصلاحية لبطرس الأكبر.

على الجانب الآخر كان فيوفان بروكوبوفيتش من مناصري بطرس الأكبر، وهو أحد أكثر الكتَّاب الموهوبين في عهده، وأشهر الأدباء في بدايات القرن الثامن عشر. وُلد عام ١٦٨١م وتوفي عام ١٧٣٦م. وكان رجل دين وراهبًا ذكيًّا، تلقى تعليمه في كييف وفي إيطاليا؛ ولذا فقد تخطت قدراته واهتماماته حدود رجل الدين العادي. وأيد هذا الرجل المساعي التي يقوم بها القيصر لإرساء الأفكار التنويرية الأوروبية.

وفضلًا عن كتاباته الدينية كان أديبًا موهوبًا وشاعرًا قديرًا، وكانت أشعاره محاكاة لتقاليد الشعر الأوروبي عصر النهضة. وأثناء إقامته في كييف ألف دليلًا إرشاديًّا في تعليم البلاغة وكتابة الشعر. وصدر الكتاب باللغة اللاتينية. كما قام بدراسة المنهج الكلاسيكي في الأدب القديم. وفي عام ١٧٠٥م كتب الكوميديا – التراجيديا الشعرية «فلاديمير» والتي يصور فيها تعميد روسيا القديمة ويصور القيصر بطرس الأكبر بوصفه مصلحًا كبيرًا ويهجو ساخرًا كل المعارضين

للإصلاحات ويصفهم بالحمقى البربريين بما فيهم الإدارة الدينية في عهده. كما قام بروكوبوفيتش بكتابة مباحث في العقيدة وإرشادات تربوية جمعها في كتابه «التعاليم الأولى للشباب» بالإضافة إلى مقالات تاريخية وخطب. وقد استخدم الكثير من البديع والعناصر البلاغية في مقالاته وخطبه واشتهر بالسخرية من أعداء الإصلاحات.

كما كرس مجموعته الشعرية الغنائية «أبينيكون» (١٧٠٩) أيضًا للدعوة لبطرس الأكبر وإنجازاته وخاصة انتصاراته على السويديين في موقعة بولتافا.

وبعد وفاة بطرس الأكبر تعرض لصدمة كبيرة حيث انهالت عليه الأزمات المادية والتقليل من شأنه، وكتب عدة قصائد تناول فيها الوضع المأسوي لأفضل رجال روسيا في عصر الرجعية ما بعد بطرس الأكبر.

لقد بعث النشاط التنويري الذي قام به بطرس الأكبر على إحياء الطاقات الإبداعية لدى الشعب.

لم تشهد فترة حكم بطرس الأكبر إصدار أعمال أدبية كثيرة، إلا أن هناك مجالًا استرعى اهتمام القيصر والمحيطين به ألا وهو المسرح. كان المسرح وسيلة ناجحة للدعاية لإنجازات بطرس الأكبر وثورته الثقافية الجديدة. لم يكن يتطلب مستوى تعليمي وثقافي عالٍ من الجماهير، كما كانت أسعار التذاكر منخفضة وفي متناول الجميع. كما ازدهر المسرح الروسي بفضل المسرحيات المترجمة من الإنجليزية والألمانية.

وازدهر الشعر الغنائي أيضًا في النصف الأول من القرن الثامن عشر وأصبح جنسًا أدبيًّا جماهيريًّا في النصف الثاني. وتميز الشعر الغنائي الروسي في تلك الفترة بقربه من ناحية الأسلوب والمضمون من الدراما الشعرية في تلك الفترة وخاصة «المونولوج – الآريا» حيث كان أبطال المسرحيات يحكون عن مشاعر الحب الخاصة بهم. كثر استخدام مونولوجات الحب تلك في المؤلفات النثرية في النصف الأول من القرن الثامن عشر.

وربما تمثل القصص أهم الظواهر المميزة للأدب الروسي في عصر بطرس الأكبر. وقد وجدت انتشارًا واسعًا على غرار المسرحيات المترجمة. واختلفت تمامًا عن المؤلفات القصصية في القرون السابقة حيث تضمنت آفاقًا جديدة ومجالات أوسع وكشفت عن قدرات وإمكانات أكبر لدى الإنسان الروسي. نلحظ فيها أن الإنسان الروسي لم يعد ذلك الشخص الانطوائي المنغلق على نفسه في فضاء ضيق وإرث روسي روحي قديم بل أصبح شخصًا أوروبيًّا بكل معنى الكلمة.

وقد شاع في تلك الفترة ترجمة وحتى إعادة كتابة القصص الأجنبية العلمانية. وانتشرت قصص المغامرات التي تحكي عن مختلف التجارب الغريبة وحتى الخيالية التي يقوم بها أبطال يثيرون الإعجاب هائمون في الحب وشجعان يجوبون البلاد وينتقلون من بلد إلى آخر، وعادة ما تنتهي القصة بزواج البطل من محبوبته.

واستفاد الروس من التجارب الغربية في كتابة روايات المغامرات وأبدعوا قصصًا روسية، وأعادوا كتابة بعض الأعمال الغربية بنكهة ومذاق روسي، وأضافوا إليها مضامين وتفاصيل من البيئة الروسية. والقاسم المشترك في جميع هذه القصص شخصية البطل الجديد الشاب الروسي الذي فتحت إصلاحات القيصر بطرس الأكبر أمامه آفاقًا جديدة وعالمًا بأكمله، واندفع هذا البطل الجديد ليكتشف هذا العالم وينهل منه. لم تعد الأمور الروحية تشغل أبطال تلك الفترة ولا نجد بينهم من يتحدث عن الصلاة أو العبادة والطقوس. هكذا نجد جميع أبطال القصص الروسية في عصر بطرس الأكبر متعطشون للحرية في الاستفادة بقدراتهم وإمكاناتهم. هؤلاء يسعون للسفر إلى الغرب حيث فضاء أرحب، وحيث لا قيود روحية أو ترتبط بإرث تاريخي قديم. هو البطل النموذج والمثل للإنسان الجديد، شخص ماهر يتقن الغناء والعزف وقرض الشعر. شخص لا ترهبه المخاطر أو المغامرات. بل يرى فيها بعد ما عانى من سنوات ركود حياتية طويلة حلمًا رائعًا وبديعًا بدور ناصع ونشط ومفعم بالإرادة.

وكانت هناك قصص من نوع آخر تعنى ليس بالمغامرات التي يقوم بها الأبطال بل بمشاعرهم ومعاناتهم النفسية العميقة وخاصة مشاعر الحب. وتدعو هذه القصص إلى تعظيم نموذج الشخص النبيل المستنير متكامل الشخصية، كما تدعو إلى إعلاء مبادئ الإخلاص واحترام المشاعر الجادة.

وهكذا طرحت هذه القصص نموذجًا جديدًا لشخصية الرجل الغني أو النبيل؛ ولذا فقد نالت شهرة واسعة، وكانت جد مهمة في تاريخ الأدب الروسي، حيث قدمت أول نماذج للتحليل النفسي، وجذبت الاهتمام إلى شخصية الإنسان، ونذكر منها على سبيل المثال قصة «حكاية الاسكندر. النبيل الروسي»

وهكذا انعكست في القصص والشعر الغنائي العاطفي في عصر بطرس الأكبر التطور الثقافي والأخلاقي الذي عاشه المجتمع الروسي والذي كان نتاجًا مباشرًا لما قام به القيصر والإصلاحي الروسي الكبير بطرس الأول.

ويمكن القول إنه وعلى الرغم من ارتباط الأدب الروسي في حقبة بطرس الأكبر بما سبقه فإن تلك الفترة قد شهدت تحولًا كبيرًا في تاريخ الأدب الروسي، حيث ولَّى وجهه تمامًا نحو الغرب وطرح مبادئ ومُثلًا علمانية دنيوية وبشرية. وضع الأدب الروسي في تلك الفترة حجر الأساس لثقافة روسية من نوع جديد ومرحلة جديدة ودشن لتقاليد ساعد في إرسائها العالم الروسي الشهير ميخائيل لومونوسوف، وتوجتها إبداعات الشاعر العظيم ألكسندر بوشكين.

2

القرن ١٩.. العصر الذهبي للأدب الروسي

يُعتبر القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي في الأدب الروسي، حيث أصبح أدبًا عالميًّا بامتياز. ولا ريب أن ازدهار الأدب الروسي في تلك الفترة يرجع إلى النجاحات والإنجازات الأدبية التى تحققت خلال القرنين ١٧ - ١٨م. شهد هذا القرن تشكل اللغة الروسية الفصحى، وكان للشاعر الكبير ألكسندر بوشكين الفضل الأكبر في ذلك.

ظهر في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر عدد من المبدعين الذين ينتمون إلى التيارات القديمة أو المنظومة الكلاسيكية، حيث استخدام لغة راقية وشيوع بعض الألفاظ الكنسية السُّلافية. وفي الوقت نفسه شهدت تلك الفترة ميلاد تيارات جديدة ترى أن اللغة الفصحى يجب أن تعتمد اللغة الدارجة أساسًا ومنطلقًا لها.

وشهدت هذه السنوات أيضًا ازدهار تيار السينتمنتالية وإرساء قواعد تيار الرومانسية. وبدا ذلك واضحًا جليًّا في إبداعات الشعراء الروس ي. باريتينسكي وك. باتيوشكوف وف. جوكوفسكي وف. تيوتشيف. في حين أن ألكسندر بوشكين يبقى الشاعر الأعظم بين شعراء هذا القرن والأدب الروسي بشكل عام. ومن بين الأجناس الأدبية الجديدة شاعت الرواية بأشكالها المختلفة بما فيها روايات المغامرات والرواية الشطارية أو البيكارسكية، وهذه الأخيرة تتناول عادات وتقاليد الطبقات الدنيا في المجتمع ومغامرات الشطار ومحنهم ومخاطراتهم؛ ولذا فهي غالبًا ما تكتب بصياغة سيرة روائية واقعية. كما شهدت القصة الرومانسية تطورًا وأخذت أطرها تتضح يومًا بعد يوم.

كما أن البالاد أو الأغنية التي تحكي قصة وكذلك القصائد الغنائية كانت الأجناس الأكثر شيوعيًّا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، واعتبرت من أهم السمات المميزة للرومانسية. ويطلق على هذه المرحلة في الشعر الروسي أحيانًا «العصر الذهبي للشعر الروسي»

يُعتبر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) أشهر الشعراء الروس وأميرهم. وهو الجسر الذي يتوجب على كل أديب روسي عبوره حتى ينال الشهرة والمجد. امتلك بوشكين موهبة نادرة متنوعة. ونلمح في إبداعاته سمات تيارات الكلاسيكية

والواقعية والرومانسية. وقام بتطوير كافة الأجناس الشعرية والنثرية في كتاباته. ويتميز أسلوب بوشكين باستخدام الأشكال الكلاسيكية البسيطة.

ويُعد بوشكين مؤسس اللغة الروسية الفصحى المعاصرة. فقد نحى جانبًا كل الألفاظ الدخيلة أو القديمة، واستخدم اللغة الدارجة أو العامية استخدامًا راقيًا ليثري بها اللغة الفصحى.

قضى بوشكين حياته في خلاف مع القيصر، وتم نفيه بسبب مواقفه السياسية ومات إثر إصابته في مبارزة مع ضابط فرنسي.

ومن أشهر أعماله «روسلان ولودميلا»، كما أطلق على روايته الشعرية «يفجيني أونيجين» موسوعة الحياة الروسية. ومثلت أعماله «الفارس النحاسي» و«نافورة الدموع» و«الغجر» تدشينا لتيار الرومانسية الروسي.

وقد تأثر الكثير من الشعراء والكتَّاب الروس بالشاعر بوشكين وفي مقدمتهم ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ - ١٨٤١). وحاول الشعراء التفكر في معني الحياة والدور الذي عليهم القيام به. واعتبر الشاعر حينها حاملًا للحقيقة الإلهية أو نبي. يدعو السلطة إلى الإنصات إلى نصائحه.

وارتبط مصير الشاعر ميخائيل ليرمونتوف بمنطقة القوقاز حيث تم نفيه بسبب قصيدته «وفاة شاعر» والتي مدح فيها الشاعر ألكسندر بوشكين، وأعلن عن رفضه للنظام الاجتماعي القائم. وقد قتل ليرمونتوف في مبارزة ولقي نفس مصير أستاذه.

وبخلاف الشعر تطور النثر الروسي أيضًا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وبدا كتَّاب النثر في تلك الفترة متأثرين بكتَّاب الروايات التاريخية الإنجليز مثل والتر سكوت حيث شاعت في تلك الفترة ترجمات الأدب الانجليزي في روسيا. وبدت ملامح تطور النثر الروسي ظاهرة في الإبداعات الأولى المبكرة لألكسندر بوشكين ونيقولاي جوجول. حيث رسم كل منهما ملامح وأطر الأنماط الفنية الأساسية التي بقيت راسخة ومتكررة وباقية في أعمال الكتاب الروس طوال القرن التاسع عشر. ومن أهم هذه الأنماط شخصية «الإنسان البسيط» أو «الإنسان المهمش».

ورث الأدب الروسي في القرن التاسع عشر من القرن السابق له الطابع الاجتماعي والهجائي في الكتابة. ونلحظ ذلك في أعمال نيقولاي جوجول حيث يتم تناول الواقع الروسي بنظرة ورؤية نقدية يفضح من خلاها الكاتب عيوب ومشكلات الواقع الروسي، وهي سمة أساسية في الأدب الروسي الكلاسيكي بشكل عام. ونجد هذه القضية مطروحة في كافة أعمال القرن التاسع عشر

تقريبًا. أما السمة المميزة للأدب الروسي عن غيره من الآداب فهو تناول هذا الواقع بلهجة ساخرة، يختلط فيه الضحك بالبكاء

وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر برز بشكل لافت تيار الواقعية في الأدب والذي وضع بوشكين لبنته الأولى في أعماله.

ولعل الكاتب نيقولاي جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) أعظم كتَّاب الواقعية في القرن التاسع عشر، ويعتبره الكثيرون بوشكين النثر الروسي. ويتميز جوجول بقدرة نادرة على الملاحظة والتغلغل في أعماق الظواهر الحياتية. ويعتبر مؤسس النثر التجريبي. ومنذ إبداعاته الأولى نلحظ اهتمامه بالأحداث الغريبة وغير المنطقية وبتصرفات أبطاله. ويركز الأديب معظم اهتمامه على الأحداث التي تستدعي السخرية أو الأحداث الخيالية والسخف.

ومن أشهر أعماله «الأنفس الميتة» و«المعطف». وبعد عرض مسرحيته الشهيرة «المفتش العام» غادر جوجول روسيا إلى روما ثم إلى القدس. وقضى سنواته الأخيرة متأثرًا بالغيبية الدينية في كتاباته.

وشهدت العقود التالية تطور التيار الواقعي في الأدب الروسي في ظل وضع اجتماعي وسياسي شديد التوتر عاشته روسيا في فترة حكم الإمبراطور نيقولاي الأول. حيث أخذت بوادر تداعي النظام الإقطاعي الذي سيطر على الحياة في روسيا لقرون، وبرزت التناقضات بين الطبقة الحاكمة وعامة الشعب. بدا أن هناك ضرورة مُلحة في خلق نوع جديد من الأدب الواقعي الذي يتعامل بنوع من الحدة مع الوضع الاجتماعي والسياسي في المجتمع.

ومثلت إبداعات الناقد الروسي الكبير ف. بيلينسكي مرحلة جديدة في تيار الواقعية. ونشأ في تلك الفترة خلاف بين مجموعتين من الأدباء: الأولى أطلق عليها الكتُّاب السَّلاف، والثانية - الأدباء المستغربون. وكان سبب الخلاف الأساسي هو رؤية كل مجموعة لسبل تحقيق تطور تاريخي في روسيا.

أصبح الأدباء يتناولون القضايا والمشكلات الاجتماعية والسياسية في الواقع الروسي. وتطور جنس الرواية الواقعية بفضل إبداعات تورجينيف وتولستوي ودوستويفسكي وجونشاروف. وهيمن الطابع الفلسفي والسياسي والاجتماعي على معظم الأعمال الأدبية. كما تطور فن التحليل النفسي في الأدب.

فيما كانت وتيرة تطور الشعر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أقل مقارنة بالنثر. إلا أن هناك شعراء بارزين في تلك الفترة أشهرهم نيكراسوف.

كما شهدت الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي تيار المدرسة الطبيعية والتي أعلنت نفسها وريثًا للتيار الواقعي عند جوجول. وركز كتاب هذه المدرسة في أعمالهم على تصوير مختلف الأنماط الاجتماعية للأبطال على خلفية بيئاتهم المجتمعية. ولعل أبرز أدباء هذه المدرسة إيفان تورجينيف وفيودور دوستويفسكي.

وقد ساد تيار الواقعية في الأدب الروسي حتى تسعينيات القرن التاسع عشر. ويعتبر معظم مشاهير الأدب الروسي عالميًّا من أبناء هذا التيار وبفضلهم أصبح القرن التاسع عشر عصرًا ذهبيًّا في الأدب الروسي.

وشهدت الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين تطور تيار الواقعية النقدية أو الواقعية الاجتماعية الفاضحة. ومن أبرز ممثلي هذا التيار الكاتب إيفان تورجينيف (١٨١٨ - ١٨٨٣). وقد أولى هذا الكاتب في أعماله اهتمامه إلى مناقشة المشاكل الاجتماعية والسياسية المُلحة في سياق غنائي عاطفي دقيق. ومن أهم أعماله روايته الشهيرة «آباء وأبناء» و«مذكرات صياد». ودائمًا ما نلحظ في كتاباته صراعًا محتدمًا بين البطل الذي يحمل أفكارًا جديدة عن العالم والمجتمع وبين أصحاب الرؤى المحافظة والتقليدية التي عفا عليها الزمن. وكثيرًا ما نجد البطل عنده ينتمي إلى طبقة الشباب الديمقراطي الثائر.

وفي السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر تفاعل الأدب مع التحولات الاجتماعية، واكتسب تيار الواقعية طابعًا فلسفيًّا وجماليًّا ونفسيًّا. كانت تلك الفترة التي طرحت فيها القضايا الكبرى، وأخذ الأدب يبحث عن حلول لهذه القضايا التي ارتبطت غالبًا بالشرف والضمير الإنساني والقيم الحياتية، وحاول الأدب أن يجد مخرجًا ونجاة للإنسانية من مآسيها.

ومن أبرز كتَّاب تلك الفترة فيودور دوستويفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) وهو كاتب عبقري كان لأعماله أثر كبير على الأدب الأوروبي في القرن العشرين.

وقد عانى الكاتب نفسه من تجربة نفسية قاسية، حيث حكم عليه بالإعدام وتم استبدال العقوبة في آخر لحظة بالنفي. وكان أول من اهتم بالعالم الداخلي للإنسان وبتحليل المشاكل النفسية الإنسانية، واستغرق في أعماق النفس البشرية وفي أدق تفاصيلها. ومن السمات المميزة لكتاباته توفر موتيفات الأسرار والجرائم والأحلام والرؤى والشخصيات الشيطانية والهذي.

ويتعاطف دوستويفسكي بشدة مع معاناة الإنسان ويبرز الباعث الإنساني بقوة في كتاباته. ولكنه كاتب واقعي من الدرجة الأولى فهو وإن كان يحلم بأن

يحل العصر الذهبي للإنسانية يومًا ما، إلا أنه يعي ويثق تمامًا أن الإنسان غير قادر على خلق النموذج المثالي للعالم.

أما أبطال دوستويفسكي فهم أناس يعانون من مصير مأساوي عادة، وتتغير طباعهم بفعل تأثير الظروف والعوامل المحيطة بهم. ويجسد كل منهم نمطًا معينًا من علاقة الإنسان بربه. ويضع الكاتب أبطاله دومًا أمام خيار صعب بين الخير والشر. ومن أهم أعمال دوستويفسكي روايته «الأخوة كارامازوف» و«الجريمة والعقاب» و«الأبله».

ومن عظماء تلك الفترة أيضًا الأديب الكبير ليف تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠)، وهو كاتب ينتمي للطبقة الأرستقراطية الروسية، وقد اختلف منذ شبابه عن أقرانه من النبلاء وعرف بالطيبة في التعامل مع الفلاحين في ضيعته حتى إنه أنشأ مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين العاملين لديه.

ويشبه تولستوي دوستويفسكي في اهتمامه بالجانب النفسي لدى أبطاله، ويتميز بكونه أيضًا محللًا نفسيًّا يستطيع سبر أغوار النفس البشرية بمهارة نادرة. كما يستطيع وصف ما تموج به النفس الإنسانية من مشاعر وتطور روحي. وقد جسد ذلك ببراعة في إبداعاته المبكرة حين كتب سيرته الذاتية الشهيرة في ثلاثة أجزاء. ويولي الكاتب اهتمامه ليس بالمضمون كأساس للسرد بل بكيفية تقبل السارد للأحداث المحيطة.

كما عرف تولستوي بانتقاده للأعراف الأخلاقية السائدة، ويؤكد في أعماله على ضرورة السعي لتحقيق الكمال الأخلاقي لدى الإنسان وضرورة ألا يواجه الشر بالعنف. أما أشهر أعمال تولستوي فهي رواياته العظيمة «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا».

وقد دشن كل من تشيخوف وأستروفسكي وليسكوف لآخر مرحلة في تطور الأدب الروسي في القرن التاسع عشر حيث شهدت السنوات الأخيرة تطور فن القصة القصيرة والمسرحية.

ولعل أنطون تشيخوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) آخر الأدباء العظام في العصر الذهبي للأدب الروسي. وتمثل إبداعاته ختامًا للحقبة الكلاسيكية في الأدب الروسي.

وقد رفض تشيخوف الالتزام بالشكل الكبير للرواية، حيث بدأ حياته الإبداعية بكتابة القصص القصيرة وغالبها قصص ساخرة وفكاهية عن معاناة صغار الناس والمهمشين. ويتميز أسلوبه بالإيجاز وهو ما يذكر القارئ بسابقيه

بوشكين وجوجول، كما يتميز بطرح مشاكل عميقة على غرار سابقيه تولستوي ودوستويفسكي.

وشغل الكاتب بعالم السجون، وسافر إلى جزيرة ساخالين حيث يوجد المعتقل الشهير، لدراسة حياتهم. وفي تلك الفترة أصبحت إبداعاته أكثر تعقيدًا وفلسفة وكآبة. ونذكر منها قصته الشهيرة «عنبر رقم ٦».

وبرع تشيخوف في كتابه المسرحيات التي تطرق فيها أيضًا إلى تحليل النفس الإنسانية ومعاناة الأبطال من حياةم التي بلا معنى. ولعل أشهر مسرحياته: الأخوات الثلاثة» و«بستان الكرز».

وشهد العقد التاسع من القرن الذهبي للأدب الروسي بداية انتشار الأفكار الثورية في الأعمال الأدبية. بدأ تيار الواقعية يخفت تدريجيًّا، وحل محله الأدب القائم على الخيال الديني والموتيفات الدينية والأعمال الأدبية التي تتوقع حدوث تغيرات اجتماعية وسياسية كبرى في المجتمع.

كما شهد ازدهارًا لطباعة الكتب وشيوعًا للقراءة بين الناس وولعًا بين الكثيرين بالكتابة للشعر والنثر. وأصبح الأدب والأدباء يحظون بنفوذ واسع في روسيا في تلك الفترة. وربما أدى ذلك في فترات متقطعة إلى صدام بين الأدباء والسلطة. وتم نفي عدد كبير منهم واعتقال الآخرين وطرد للبعض خارج حدود روسيا.

وتدريجيًّا اختفى أدب الخيال الديني وظهر جيل جديد من الأدباء عرف بجيل الكتَّاب الرمزيين. وهو ما دشن لمرحلة وعصر جديد في الأدب الروسي سمي بالعصر الفضي.

3

الأدب الروسي في عصره الفضي

«القرن الفضي» - هو المسمى لمرحلة مهمة في تاريخ الأدب الروسي، تبدأ في عام ١٨٩٠م وتنتهي مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين. كانت تلك السنوات بمثابة مرحلة انتقالية مهمة في تاريخ الحياة الاجتماعية والأدبية في روسيا، وأصبح المجتمع يستشعر يومًا بعد الآخر حتمية حدوث أزمة اجتماعية طاحنة، وضرورة تغيير منظومة القيم القائمة.

عاشت روسيا في منتصف التسعينيات من القرن التاسع عشر نهضة هائلة في الاهتمام بالقضايا الروحية والاجتماعية، وانعكس ذلك في الفلسفة والأدب والفنون والموسيقى والمسرح والباليه، وسُمح للمعاصرين وقتها بالحديث عما يسمى «بالنهضة الروحية» في روسيا وعن بداية العصر الفضي في الأدب.

وبشكل عام اتسم الأدب في بداية القرن العشرين بالتركيز على القضايا الفلسفية، حيث اكتسبت أي قضية اجتماعية أو جانب منها أهمية روحية وفلسفية. وكان من أهم ملامح أدب تلك الفترة: تناول قضية معنى الحياة للإنسان الفرد وللبشرية كلها، والتركيز على سمات الشخصية الوطنية والتاريخ الروسي، وسيطرة الدنيوي والسماوي على الموضوعات المطروحة، والبحث المكثف عن وسائل فنية للتعبير، واستخدام المناهج غير الواقعية في الأدب، والتفاعل بين الأجناس الأدبية، وإعادة التفكير في ماهية الأجناس الأدبية المختلفة، واستكمال ما ينقص كل منها من عناصر ومضامين.

وقد ظهرت في تلك الفترة عدة اتجاهات جديدة في الأدب، وأولها المدرسة الرمزية.

المدرسة الرمزية الروسية

تشكل هذا الاتجاه الأدبي في أوروبا الغربية في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر. أما في روسيا فقد تأخر إلى التسعينيات من القرن نفسه. وكان يطلق عليه حينها «الفن الجديد». ويستمد هذا الاتجاه أفكاره الأساسية

من النظريات الفلسفية لكانط الذي أسس نظريته الفلسفية عن العالمين: عالم الظاهر وعالم الجوهر. وهذا الأخير يقف أمامه العقل الإنساني عاجزًا. كما كان للنظريات الفلسفية لكل من نيتشه وشوبنهاور تأثيرها القوى أيضًا على الاتجاه الرمزي في الأدب. وفي روسيا يُعد الفيلسوف الروسي العظيم فلاديمير سولوفييف الأب الروحي لهذا الاتجاه. وكانت أولى المؤلفات الأدبية في الرمزية من نصيب الكاتب الروسي دميتري ميرجكوفسكي «الرموز» والكاتب ف. بريوسوف «الرمزيون الروس».

ويتحدث الكُتَّاب الرمزيون الروس عن عالمين: العالم الواقعي والعالم الآخر الغيبي، حتى إنهم اخترعوا كلمة بالروسية تعني هذه الثنائية. ويلعب الرمز دورًا مهمًّا في هذا المنهج الأدبي حيث يستخدم كوسيلة ووسيط بين هذين العالمين. كما يلعب إدراك الإنسان أيضًا أهمية كبيرة، وكذا حسه الغريزي والذي يعتبر وسيلة لإدراك العالم الغيبي. ومن السمات المميزة أيضًا للرمزية الدور المهم الذي يلعبه الصوت، فالأصوات تمثل للشعراء والكُتاب الرمزيين أهمية أكبر من أهمية الكلمة. ومن أهم الوسائل التي يستخدمونها والتي تعد الأكثر فاعلية الإيماءات والكلمات الغريبة. ويتناقض هذا الاتجاه بشكل تام مع الواقعية. وغالبًا ما يتمحور مضمون المؤلفات الرمزية حول الغيبيات والمفاهيم الفلسفية والمضامين المرتبطة بخيالات دينية. كما أن معظم الرمزيين هم من أنصار حرية الإنسان في التعبير عن مشاعره الدينية.

وبشكل عام ينقسم الاتجاه الرمزي الروسي إلى فترتين زمنيتين: الأولى تضم الجيل الأكبر من الكُتاب الرمزيين، وهم ميرجكوفسكي ومينسكي ودوبروليوبوف وجيبوس وبالمونت وسالاجوب وبريوسوف. أما الجيل الأصغر فقد أحدث تطورًا في هذا الاتجاه في بداية القرن العشرين، ويضم بلوك وبيلي وسولوفييف وإيفانوف.

وقد قام الرمزيون بتأسيس جمعيات أدبية وفلسفية خاصة بهم نذكر منها «الجمعية الدينية الفلسفية» و«الجمعية الأدبية الفنية» و«البعث» و«البرج» وغيرها.

مدرسة الذروة

بعد الضعف الذي أصاب المدرسة الرمزية ظهر اتجاه أدبي جديد في روسيا سمي بمدرسة الذروة. وكان الأدباء يطلقون عليها أيضًا اسم المدرسة

«الآدمية» نسبة إلى أول إنسان على وجه الأرض. وظهرت هذه المدرسة في الفترة التي بدأ فيها الرمزيون يعانون من أزمة داخلية عميقة. وقد تجسدت في مبادئ المدرسة الجديدة تلك توجهات جمالية جديدة على العصر الفضي للأدب. ويرجع بداية ظهور كتاب الذروة إلى عام ١٩١٠م. وقد أسسها أعضاء جمعية «أكاديمية الشعر» الأدبية الفلسفية. ثم ما لبثوا أن قاموا بتأسيس جمعية خاصة بهم وأطلقوا عليها «ورشة الشعراء». ويُعد كل من نيقولاي جوموليوف وسيرجي جوروديتسكي هما مؤسسَيْ مدرسة الذروة الروسية.

وقد ناصر كُتاب الذروة الفلسفة البرجماتية أو فلسفة الفعل. ومن أهم المبادئ التي تقوم عليها قبول التنوع في الحياة الدنيوية والاهتمام بعالم الأشياء المحيط ورفض الخيال الديني والغيبيات واستخدام النماذج التصويرية التعبيرية بكثرة والتعبير عن العالم النفسي الداخلي للإنسان والتعبير عن الشوق للثقافة العالمية والتركيز على معنى الكلمة والسعي إلى الوصول إلى الكمال في شكل القالب الشعري.

ومن بين ممثلي هذا التيار نذكر آنا اخماتوفا وسيرجي جوروديتسكي ونيقولاي جومليوف وأوسيب ماندلشتام.

المدرسة المستقبلية الروسية

ظهرت المدرسة المستقبلية في نفس الفترة التي نشط فيها أدباء مدرسة الذروة. وتعود التسمية إلى كلمة futurum اللاتينية وتعني «المستقبل».

وتمثل هذه المدرسة اتجاهًا طليعيًّا في الفن الأوروبي خلال العقدين الأول والثاني من القرن العشرين وخاصة في كل من إيطاليا وروسيا. ويسعى أدباء هذه المدرسة إلى صناعة «فن المستقبل» ويتنكرون لتراث الماضي تمامًا. ودعى المستقبليون إلى نشر جماليات الإنجازات البشرية الحديثة والاختراعات والمدن الصناعية الكبيرة والضخمة وجماليات الآلة والميكنة. ويُعد فلاديمير خليبنيكوف وفلاديمير ماياكوفسكي من أبرز ممثلي هذه المدرسة في الأدب الروسي.

ويتميز أدب هذه المدرسة بالجمع بين التوثيق والخيال، وكذا التجريب اللغوي وحرية اللعب بالألفاظ. ومثلما هو الحال في جميع اتجاهات ما بعد الحداثة، اتسم هذا الاتجاه بالتناقض الداخلي. فهناك منهم من سمى نفسه

بالشعراء المستقبليين التكعيبيين (خليبنيكوف ومايكوفسكي وكامينسكي) وهناك من أطلق على نفسه «المستقبليين المتمركزين حول أنفسهم تمامًا» ومنهم سيفيريانين. كما ينتمي إلى هذه المدرسة شاعر روسي حصل لاحقًا على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٨م وهو بوريس باسترناك.

ودعت المدرسة المستقبلية إلى ثورة في الشكل بصرف النظر عن المضمون وإلى الحرية المطلقة في اختيار اللفظة الشعرية ورفض كل التقاليد الأدبية. ويتضمن البيان المعلن من قبل المدرسة، ويحمل عنوان «لطمة للذوق العام» ١٩١٢م، دعوات «لرمي» كل من بوشكين ودوستويفسكي وتولستوي من «قارب الحياة المعاصرة». غير أنهم في الأمر الواقع لم يلتزموا بهذه المبادئ تمامًا. في البداية قام الأدباء المستقبليون بالفعل بإعلاء الشكل على المضمون حيث أصبح هدفًا بالنسبة للشاعر وعنصرًا أساسيًّا في العمل الشعري، وكانوا يرفضون كتابة أي قصيدة تحمل فكرة.

وقد دعى منظر المدرسة المستقبلية الروسية فلاديمير خليبنيكوف إلى فكرة أن اللغة التي ستسود العالم في المستقبل هي «لغة ما وراء العقل»، حيث تخلو الكلمة من المعنى وتكتسب جمالًا ذاتيًّا. وقد ابتكر خليبنيكوف كلمات جديدة واشتقاقات غير تقليدية لجذر الكلمة في محاولة منه لتوسيع حدود اللغة وإمكاناتها.

المدرسة التصويرية الروسية

أثرت المدرسة المستقبلية بشكل كبير على المدرسة التصويرية الروسية، ويرجع أصلها إلى الكلمة اللاتينية image أو صورة. وهو اتجاه أدبي في الشعر الروسي في القرن العشرين. وأعلن ممثلو هذا الاتجاه أن الهدف من الإبداع يكمن في صناعة النموذج والصورة، وتلعب فيها الاستعارة دورًا كبيرًا.

وترجع بدايات هذا الاتجاه إلى عام ١٩١٨م عندما تأسس في موسكو «وسام التصويريين». أما مؤسسو هذا الاتجاه في روسيا فهم أناتولي مارينجوف وفاديم شيرشينيفيتش وسيرجي يسينين.

وفي العشرينيات أصبح المذهب التصويري أكثر تنظيمًا حيث قام الأدباء بتنظيم أمسيات إبداعية ومقاهٍ فنية وإصدار الدواوين الشعرية. وتم إصدار

مجلة خاصة بهم. كما قام التصويريون بتأسيس دور نشر خاصة بهم.

كما نشط شعراء هذه المدرسة في مدن أخرى كلييننجراد (سان بطرسبورج) وكازان وسارانسك وغيرها. ونشط ممثلوها في إلقاء المحاضرات والمشاركة في مختلف الفعاليات العامة.

وقد امتدت حياة المدرسة التصويرية أكثر من غيرها من الاتجاهات الأدبية في روسيا في العصر الفضي للأدب، حيث استمر هذا الاتجاه حتى عام ١٩٢٥م. حيث هاجر البعض إلى الخارج فيما توجه البعض الآخر إلى النثر حتى يضمن كسب المال والعيش وكذا كتابة المسرحيات وقصص للسينما. وكان أكثر النهايات مأساوية هي نهاية الشاعر المؤسس للمدرسة التصويرية في روسيا سيرجي يسينين والذي مات منتحرًا في عام ١٩٢٥م بمدينة سان بطرسبورج.

المدرسة الواقعية الروسية

اتحد الكُتاب الواقعيون الروس في بداية القرن العشرين في جمعية أدبية واحدة ضمت كلًّا من كوبرين وتيليشيف وأندرييف وفيريسايف وغيرهم. كما ترأس ماكسيم جوركي جمعية أخرى تسمى «المعرفة» تولت نشر مؤلفات الكتاب الواقعيين والعمل على الارتقاء بتقاليد الأدب الديمقراطي الثوري الذي ساد في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر.

ماكسيم جوركي

وأثار جوركي في كتاباته قضايا التطور التاريخي للمجتمع ودور الإنسان الفعال والمؤثر في ذلك. ومثال ذلك رواية «الأم» حيث تتجسد بجلاء التوجهات الاشتراكية لدى الكاتب».

كما سعى شباب الكُتاب الواقعيين من أمثال يفجيني زامياتين وألكسي ريميزوف وغيرهم إلى ضرورة المزج بين مبادئ الواقعية والحداثة، وقدموا ذلك في أعمالهم.

وفي الأدب الروسي يعتبر العصر الفضي استمرارًا للاتجاهات الأساسية في أدب القرن التاسع عشر والتي طرحها بوشكين في بداية القرن الذهبي للأدب الروسي وقام دوستويفسكي فيما بعد بتطويرها. وأضحت قضية مصير روسيا وجوهرها الأخلاقي والروحي ومستقبلها الموضوع الرئيس في إبداعات الكُتاب المنتمين لمختلف الاتجاهات الفكرية والجمالية. وشهدت تلك الفترة تناميًا شديدًا في الاهتمام بقضايا الشخصية الوطنية وخصوصية الحياة الوطنية والطبيعة ونفسية الإنسان. وكان لكل كاتب طريقته في تناول هذه المشكلات ورؤيته الخاصة لحلها سواء من الوجهة الاجتماعية أو التاريخية وخاصة كُتاب ما سمي بالواقعية النقدية.

وبشكل عام تمثل الثقافة الروسية في العصر الفضي نتاجًا لطريق طويل معقد ومأساوي في الوقت نفسه. وعلى الرغم من قسوة رد الفعل من جانب سلطات الدولة والقمع الذي مارسته ضد كل الأفكار التقدمية إلا أن هذه الثقافة بقيت تتميز ببعض السمات الخاصة بها وهي الديمقراطية والإنسانية والشعبية. ويمثل العصر الفضي في الأدب الروسي خاصة والثقافة الروسية عامة تراثًا ثريًّا أسهمت فيه أجيال متعاقبة من المبدعين (الفلاسفة والأدباء والفنانون والموسيقيون) وتعتبر مخزنًا لا يقدر بثمن للثقافة الروسية بشكل عام.

4

الأدب الروسي في المنفى

تعود أصول أدب المنفى في روسيا إلى بدايات القرن التاسع عشر، حيث كتب الأديب الشهير نيقولاي جوجول عن المصير الذي ينتظر بلاده وهو بعيد في المهجر. كما مر أدباء كبار مثل ألكسندر جيرتسين ونيقولاي أوغاريوف بتجربة النفي أيضًا، وكان للأديب إيفان تورجينيف الفضل في تعريف أوروبا بالأدب الروسي. غير أن موجات الهجرة التي تلت ثورة أكتوبر مثلت ظاهرة خاصة سواء من حيث الحجم أو السمات والأهمية التي لعبتها في تطور الأدب الروسي خاصة، والأوروبي بصفة عامة.

ويعتبر أدب المنفى أحد أهم مراحل تطور الأدب الروسي في القرن العشرين، وهو أحد فروع الأدب الروسي الذي ظهر بشكل بارز بعد استيلاء البلاشفة على السلطة في عام ١٩١٧م. وقد صدرت إبداعات كتَّاب المنفى الروس خارج حدود الاتحاد السوفيتي.

واتفق الباحثون على ثلاث موجات لهجرة الأدباء الروس خلال الحقبة السوفيتية. بدأت الموجة الأولى في عام ١٩١٨م واستمرت حتى قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية واحتلال الألمان لباريس. وكانت هجرة جماعية لعدد كبير من الكتَّاب والشعراء الروس. أما الموجة الثانية فبدأت مع اندلاع الحرب العالمية الثانية وتحديدًا في عام ١٩٤٠م واستمرت إلى عام ١٩٥٠م. ولم تشهد الزخم نفسه الذي شهدته الموجة الأولى. والثالثة بعد انتهاء فترة ذوبان الجليد في عصر خروشوف وأدت إلى هروب عدد من كبار الأدباء الروس أمثال ألكسندر سولجنتسين ويوسف برودسكي وسيرجي داوفلاتوف. وتعد الموجة الأولى هي الأكثر أهمية من حيث قيمة ما تركته من إبداعات وتأثير على الأدب الروسي.

وقد تم استحداث مصطلح «أدب المنفى» بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧م عندما بدأت عمليات هجرة جماعية للسكان الروس إلى الخارج، وبلغ عدد اللاجئين الروس أكثر من مليونين، وكانت الوجهة الرئيسية إلى برلين وباريس. وشكَّل هؤلاء مجتمعات روسية كاملة حاولت الحفاظ على الهوية الروسية والعادات والتقاليد والفنون. كما قاموا بإصدار المجلات والصحف باللغة الروسية، وتم افتتاح عدد من المدارس والجامعات بل وصل الأمر إلى تشييد كنائس روسية في المهجر. وعلى الرغم من حفاظ الموجة الأولى من المهاجرين على

التقاليد الروسية ما قبل الثورة، عانى المهاجرون من صعوبات حياتية كثيرة، فبعد أن فقدوا أسرهم ووطنهم ومكانتهم الاجتماعية أصبح لزامًا عليهم أن يناضلوا من أجل البقاء، وكذلك من أجل التأقلم مع المجتمعات الجديدة. بدت آمالهم بقرب العودة إلى الديار صعبة المنال، وخاصة في عام ١٩٢٠م حيث أصبح واضحًا أن روسيا لن تعود كما كانت، كما بدا طريق العودة إليها مسدودًا. كانت المعاناة مزدوجة: الشوق والحنين إلى الوطن وضرورة العمل البدني الصعب للبقاء على قيد الحياة وتوفير النفقات.

تحديات الموجة الأولى

كانت الموجة الأولى صفحة مأساوية في تاريخ الثقافة الروسية. وتعتبر ظاهرة فريدة سواء من حيث العدد الضخم للأدباء المنفيين أو من حيث إسهاماتهم الكبيرة في الثقافة العالمية لاحقًا. بدأت الهجرة الجماعية للأدباء في عام ١٩١٩م وضمت أكثر من ١٥٠ كاتبًا وشاعرًا ضمن مليوني شخص فروا من روسيا في العام نفسه. كما اتخذت الحكومة السوفيتية قرارًا بنفي أكثر من ١٦٠ أديبًا في عام ١٩٢٢ نظرًا لكتاباتهم الدينية والفلسفية وركبوا سفينة أطلق عليها «سفينة الفلاسفة» وضمت من الأدباء والفلاسفة الروس: نيقولاي بيرديايف ونيقولاي لوسكي وسيمون فرانك وسيرجي بولجاكوف. كما ضمت الكتَّاب: ايفان بونين وألكسندر كوبرين وبوريس زايتسف وألكسي تولستوي. وقد حافظت الموجة الأولى من الأدباء المهاجرين على سمات وخواص المجتمع الروسي وعبروا عنها في كتاباتهم. وأضحى الأدب الروسي في المهجر يصور الأحداث الثورية في روسيا والحرب الأهلية ويوثق انهيار التقاليد التي سادت قبل الثورة والتراث الروسي قبل الاشتراكية.

شهد عام ١٩٢٧م ذروة نهضة أدب المهجر، حيث أصبحت الكتب تنشر في الخارج باللغة الروسية. ولوحظ أن الأدباء الروس حرصوا على المحافظة على الحرية السياسية والثراء في الإبداع في سبيل نضالهم ضد الواقع المرير لحياة المنفى. ومن المدن التي أصبحت قبلة للأدباء الروس «برلين» عاصمة للأدب الروسي في المهجر حيث كان يقطنها معظم كتَّاب الدراما والمسرح. كما كانت «براغ» نقطة تجمع الفنانين والشعراء. أما «باريس» فتستحق لقب عاصمة الثقافة الروسية في المهجر. كما اتجه بعض الأدباء إلى الشرق وتحديدًا «شنغهاي».وبرز في هذه الموجة جيلان من الأدباء: الجيل القديم والذي تجسدت في كتاباته سمات الحياة الروسية بجلاء،وكانوا معروفين

للقارئ الروسي ولهم أسلوبهم المميز وانتشرت كتاباتهم، ليس فقط في روسيا بل وخارجها. وكان معظمهم من الرمزيين (زيناديا جيبوس وقنسطنطين بالمونت ودميتري ميرجكوفسكي) والمستقبليين (إيجور سيفيريانين) وكتَّاب الذروة (جيورجي ايفانوف وجيورجي أداموفيتش) والواقعية (ألكسندر كوبرين وألكسي تولستوي). وتجمعت حول هؤلاء، مجموعات من الأدباء ونظمت صالونات وجمعيات أدبية حضرها الجيل الأصغر والذي كان يطلق عليه حينها «الجيل غير الملحوظ». وهؤلاء الذين لم يكونوا قد خطوا خطوات كبيرة بعد في بلدهم روسيا قبل اضطرارهم إلى مغادرتها ولم تتشكل شخصياتهم الأدبية بعد. حيث تجمع بعضهم حول إيفان بونين وآخرون حول فلاديسلاف خوداسيفيتش. وقد مالوا إلى اتجاه ما يعرف بالكلاسيكية الجديدة واستخدام الأشكال والقوالب الصارمة في السرد ونذكر منهم تيرابيانو وسمولينسكي وبيربيروف.

ويجمع النقاد على تقسيم الموجة الأولى إلى فترتين: الأولى تمتد بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢٥م وهي الفترة التي تشكل فيها أدب المهجر الروسي واتسمت الكتابات بتمحورها حول الأمل في العودة مرة أخرى إلى الوطن. كما تركزت الموضوعات حول الهجوم على النظام السوفيتي البلشفي الجديد، والشوق إلى روسيا الإمبراطورية، وصور الكتاب الحرب الأهلية من وجهة نظر معادية للثورة الجديدة.

وتأتي الفترة الثانية والتي تمتد بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٩م وشهدت تطورًا لصناعة النشر وتأسيس الجمعيات الأدبية الروسية في المهجر. ويلاحظ هنا فقدان الأدباء الأمل في عودتهم مرة أخرى إلى الوطن. وتشيع في تلك الفترة كتابات المذكرات والسير الذاتية والدعوات إلى الحفاظ على عبق الجنة المفقودة وذكريات الطفولة والعادات الشعبية. كما انتشرت الرواية التاريخية التي تعاملت مع التاريخ بوصفه حلقة في سلسلة من الأحداث التي تعتمد في الأساس على إرادة الإنسان. كما تناول أدباء تلك الفـترة مـوضـوع

الثورة والحرب الأهلية وصوروا الحرب بشكل أكثر موضوعية مقارنة بسابقيهم، وظهرت أولى المؤلفات التي تصور الحياة داخل معـسكـرات العـمـل والاعتـقـال (إيفان سولونيفيتش «روسيا تسبح في معسكرات اعتقال» وم. مارجولين «رحلة إلى بلد المعتقلات» ويوري بيسونوف «٢٦ سجنًا والهروب من سولوفكي»

وفي عام ١٩٣٣م منحت جائزة نوبل إلى أحد كتَّاب المنفى وهو إيفان بونين.

بداية الموجة الثانية

أما الموجة الثانية في أدب المهجر الروسي فقد ولدتها أحداث الحرب العالمية الثانية عندما هاجر عدد كبير من كتَّاب جمهوريات البلطيق والتي ضمها الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٩م، وكذلك الأسرى الذين خشوا العودة إلى الوطن حتى لا يتعرضوا إلى الاعتقال، والمنفيون للعمل في ألمانيا من الشباب السوفيتي وكل من تعاون مع الفاشية. واختار هؤلاء في البداية ألمانيا مكانًا لإقامتهم ثم انتقلوا إلى أمريكا وبريطانيا. وبدأ معظم كتاب وشعراء الموجة الثانية نشاطهم الأدبي في المهجر، ونذكر منهم الشعراء: يلاجين وكلينوفسكي وتشينوف وفيسينكو وغيرهم. وقد بدءوا بتناول القضايا الاجتماعية ثم انتقلوا إلى الكتابات الغنائية والفلسفية.ومن الكتَّاب نذكر يوراسوف وريجيفسكي وفيليبوف وشيرياييف. وقد تناول هؤلاء الحياة في الاتحاد السوفيتي قبيل الحرب وصوروا عمليات التنكيل والخوف الذي ساد بين الناس، والحرب والطريق الشاق الذي تكبده الكاتب في رحلة هروبه إلى الخارج. وكان ما يجمع كتَّاب وشعراء هذه الموجة تجاوز التوجه الأيديولوجي الذي قيد إبداعات سابقيهم. وتبقى كتابات أدباء هذه الموجة الأقل شهرة حتى الآن.

بداية الموجة الثالثة

أما الموجة الثالثة لأدب المنفى فترجع إلى نهايات الستينيات من القرن الماضي. ينتمي معظم أدباء هذه الموجة إلى فترة ذوبان الجليد في عهد خروشوف، وهي الفترة التي شهدت انتقادًا لنظرية عبادة الفرد في عصر ستالين والدعوة إلى العودة إلى «القواعد اللينينية في الحياة». وسمح للكتَّاب بتناول موضوع المعتقلات ومعسكرات العمل المحظور سابقًا، وأصبح من المسموح الخروج عن الأطر الفنية لاتجاه الواقعية الاشتراكية الذي ساد لعقود، وأصبح الكتَّاب يبادرون بتجربة اتجاهات جديدة. إلا أنه وفي منتصف الستينيات وضعت قيود مرة أخرى على الإبداع وتم تشديد الرقابة على الأدب وتعرضت الكتابات الناقدة للهجوم، وبدأت عمليات التضييق على الأدباء ومنهم ألكسندر سولجنتسين وفيكتور نيكراسوف الذي تم اعتقاله، ومن ثم نفيه إلى أحد معسكرات العمل. كما تم القبض على كل من سينيافسكي وتهديد أكسيونوف ودافلاتوف وفوينوفيتش. وفي ظل هذه الظروف اضطر هؤلاء إلى

السفر للخارج. وانضم إليهم الكثيرون أمثال أليشكوفسكي وليمونوف وجاليتش وجوبرمان وأمالريك.

ومن أهم سمات الموجة الثالثة التمازج الرائع بين الاتجاهات الأسلوبية للأدب السوفيتي مع منجزات الكتَّاب الغربيين وإيلاء الاهتمام الأكبر بالاتجاهات الطليعية. ويعتبر ألكسندر سولجنتسين أشهر أدباء هذه الموجة ومن كبار الكتَّاب الواقعيين في روسيا السوفيتية. وقد كتب خلال فترة هجرته ملحمة كبيرة تحمل عنوان «العجلة الحمراء» يتتبع فيها تاريخ روسيا. وحصل على جائزة نوبل في الآداب عن روايته الشهيرة «أرخبيل الجولاج». كما ينتمي إلى الاتجاه الواقعي أيضًا كل من جيورجي فلاديموف وفلاديمير مكسيموف وسيرجي دافلاتوف. كما اتسمت إبداعات الكاتب فاسيلي اكسيونوف بالسخرية اللاذعة من الأوضاع وتعد ثلاثيته «ملحمة موسكوفية» من أشهر الكتابات في هذا الجيل وتتناول فيها الحياة في روسيا في الثلاثينيات والأربعينيات. وتتجلي سمات أدب الحداثة وما بعد الحداثة في كتابات ساشا سوكولوف «مدرسة الحمقى» و«حوار بين ذئب وكلب» كما دارت كتابات يوري ماملييف في فلك الأدب السيريالي والواقعية الميتافيزيقية. واستطاع الكاتب أن ينقل حالة الخوف وانعدام قيمة الحياة في قصصه القصيرة «حكايات روسية» وروايته «الزمن الضائع». ومن بين أدباء الموجة الثالثة أيضًا يوسف برودسكي الحائز على جائزة نوبل في الأدب في عام ١٩٨٧م. وقد ترك كتَّاب الموجة الثالثة من أدب المنفى الروسي العديد من الأعمال في مختلف الأجناس الأدبية والأساليب الفنية.

ومع انهيار الاتحاد السوفيتي، عاد الكثير من أدباء المهجر إلى روسيا وواصلوا نشاطهم الإبداعي. ففي عام ١٩٩٠م تم إصدار قانون «الصحافة ووسائل الإعلام» والذي نحى جانبًا الأسباب التي أدت إلى نشأة ظاهرة أدب المهجر. وشهدت العقود الثلاثة الأخيرة صدور كتابات داخل روسيا سبق حظرها في الحقبة السوفيتية لكتَّاب أمثال: أكسيونوف وليمونوف وداولاتوف ونيكراسوف وسولجنتسين وبرودسكي وغيرهم.

5

الأدب الروسي.. وعملية بناء الوعي

لطالما كان الأدب الروسي أدبًا غنيًا بالأفكار ووصف دومًا بكونه منبرًا اجتماعيًّا يطرح القضايا الأخلاقية والاجتماعية والسياسية المهمة. وكان القراء ينتظرون ويتوقعون من العمل الأدبي أن يتناول المسائل المهمة في حياتهم. واكتسب الأدباء سمعتهم كونهم يؤثرون روحيًّا وأخلاقيًّا على العامة. والأمثلة كثيرة ونذكر منهم بوشكين ودوستويفسكي وتولستوي في القرن التاسع عشر وتسفيتايفا وماندلشتام

وجوركي وشولوخوف وباسترناك وبرودسكي في القرن العشرين. فقد كان لهؤلاء عظيم الأثر على الأدب وكان هذا التأثير في أغلبه فكريًّا وجماليًّا، ساهم في بناء مكونات وسمات الشخصية الروسية. فقد دعى أدب المدرسة الطبيعية إلى محاكاة الواقع فيما سعى الأدب الكلاسيكي الروسي إلى بناء ورسم صورة للعالم والإنسان واستخدام التجريب لطرح النموذج الفكري المثالي في بناء المجتمع. وكان الدور المنوط بالأدب دائمًا أن يكون معبرًا عن آمال الشعب وأن يتخذ الكاتب موقفًا شعبيًّا فعالًا وعندها فقط يمكن الحكم عليه كأديب وفنان.

وفي القرن العشرين ارتبط الأدب بالأيديولوجيا، حيث تأثر الأدباء بالنظريات الأيديولوجية وعانوا من ضغط الديكتاتورية السياسية. ففي أدب الواقعية الاشتراكية نلحظ محاولات لتجميل الواقع تطغى على الالتزام بالأسس الجمالية في السرد.

ومع انتهاء القرن العشرين وبداية القرن الجديد رفض الأدب الروسي الخضوع للأيديولوجيا واكتسب إمكانية التحرك بحرية. فقد استبدل الأدباء الدور التعليمي والإرشادي والاجتماعي بالحديث عن قضايا حياتية بعينها ومواضيع كانت في السابق محرمة. كما أصبح الهدف هو إمتاع القارئ. وللمرة الأولى في تاريخه توفرت للأدب الروسي فرصة كبيرة للتطور الطبيعي.

كان عام ٢٠١٥م هو عام الأدب في روسيا. ويعتقد الكثيرون أن مصير روسيا يرتبط بشكل كبير بمصير الأدب فيها وبدوره يعتمد تطور الأدب الروسي على مستقبل ومصير الدولة الروسية. والحديث عن دور الأدب الروسي في الارتقاء بالوعي المجتمعي يحتاج الكثير من الوقت ويتسم بالكثير

من التعقيد. غير أن هذا الموضوع يحظى بأهمية كبيرة كون الأدب الروسي كان دائمًا جزءًا من الأيديولوجيا، وكان دائمًا يشكل رؤية الفرد أو المجموعات الاجتماعية للعالم المحيط.

وقد حاول الكتَّاب الروس دائمًا تقديم الأدب بوصفه حجر زاوية في الفكر الثوري الروسي. وتناول مؤرخو الفكر الاجتماعي الروسي بالتفصيل عملية تشكيل الشخصية الروسية. كما ارتبطت عملية تشكيل الوعي الثوري والاجتماعي في روسيا أو حتى الرؤية البسيطة للعالم المحيط ارتباطًا وثيقًا بالأدب الروسي. فقد بدا الأدب والفكر الاجتماعي متقاربين لدرجة أنه أصبح من الممكن أن يحل أحدهما مكان الآخر. وأخذ المكون الأيديولوجي في الأدب الروسي في الاكتمال ما منح هذا الأدب أهمية وقيمة فكرية عالية.

وقد وضع الأدب الروسي من أهدافه وأولوياته التعبير عن التحولات والقضايا التي تدور بالمجتمع. وتطور الأدب بشكل متواز مع تطور الفكر الاجتماعي. بل وشارك كبار الأدباء الروس بأنفسهم في صياغة هذا الفكر حيث طرحوا تصورهم لفكرة النموذج الأمثل للتيارات الفلسفية والاجتماعية في المجتمع.

وشهد منتصف القرن التاسع عشر تنامي النضال السياسي والفكري الذي أضحى مضمونًا وموضوعًا رئيسيًّا لمعظم المؤلفات الأدبية. وسعى كبار الكتاب من أمثال تشيرنيشيفسكي وتولستوي ودوستويفسكي إلى تجسيد النماذج المثالية التي يجب أن يحتذي بها الناس.

تأثير الأدب على المجتمع الروسي

يعود الدور المهم للأدب الروسي في المجتمع إلى كون مضامينه الرئيسية تدور حول الإنسان والحياة الإنسانية. فالبطل هو الإنسان الذي يشعر ويفكر ويفعل والذي هو نقطة التقاء الظواهر الحياتية سواء الاجتماعية أو الأخلاقية أو النفسية. والأدب يعلم ويربي ويساعد الإنسان على معرفة العالم ومعرفة نفسه ويثري مشاعره وأفكاره ويجعله أكثر إنسانية. كما يقرب الأدب للقارئ الأحداث التاريخية المختلفة والفضاءات الاجتماعية والطبيعية لدى الشعوب الأخرى ويصور الشخصيات الإنسانية والتقلبات داخل النفس البشرية وأحلامها ونضالها من أجل الخير وينمي من قدرته على التخيل.

وقد لعب الأدب الروسي دورًا مهمًّا في عملية الارتقاء بمستوى الشعب الروسي فكريًّا وتعظيم مكانة الدولة الروسية. وقد تشكلت علاقة الغرب بروسيا في بدايات القرن التاسع عشر وما تلاها. وعلى مدى عقود طويلة كانت روسيا مصدرًا للتهديد وكانت النظرة لها في الغرب تتسم بالعدائية. واستمر هذا الشعور حتى السبعينيات من القرن التاسع عشر. غير أن الارتقاء بالثقافة الروسية عمومًا والأدب على وجه الخصوص وصدور روايات تولستوي ودوستويفسكي جعل مشاعر الكراهية والعداء والاحتقار والرفض من قبل الغرب لروسيا تتبدل بمشاعر جديدة يسودها الفضول والتعاطف والانبهار. واعتبر الأدب الواقعي الروسي في منتصف ونهاية القرن التاسع عشر واحدًا من أهم ثلاث اتجاهات أدبية عظيمة في الأدب العالمي ومنح روسيا احترامًا من العالم كله. وبفضل الأدب الروسي اكتشف العالم درجة الوعي الروسي والفكر الروسي واستوعبه واعترف به.

كما كان الأدب الروسي دائمًا أدبًا يحمل مضمونًا فكريًّا أيديولوجيًّا واضحًا. وكثير من الأعمال الأدبية الروسية يمكن أن يطلق عليها اسم «موسوعة الحياة الروسية». وكان الناس تنظر للعمل الأدبي بوصفه كتابًا تعليميًّا ودليلًا إرشاديًّا للحياة الصحيحة القويمة. وبالنسبة للإنسان الروسي لم يكن الأدب أبدًا مجرد لعب بالألفاظ بل على العكس كان وسيلة للتوغل في حيوات الناس وتغييرها أو تشكيل نماذج جديدة منها.

وبالحديث عن صورة الكاتب في الثقافة الروسية فقد كان دائمًا يتمتع باحترام كبير. حتى إن كثيرًا من الأدباء الروس أصبح يمثل اتجاهًا ومدرسة تحمل اسمه. مثلًا هناك بوشكينيستيكا ودوستويفستيكا. وفي كل مرة كان الروس يدرسون بعمق شديد وبسعادة بالغة حياة كل كاتب والمضمون الداخلي لأعماله. ويمكن القول إن الأدباء الروس كانوا دائمًا يمثلون صوت المجتمع ويقومون بدور مفكري الأمة.

أما من منظور التأثير الاجتماعي والدور التنويري للأدب الروسي يمكن القول إن الأدب في روسيا كان الوسيلة الأهم للتعبير عن الأفكار ونقلها. فعلى سبيل المثال لا الحصر يصف الكاتب الشهير جيرتسين الحياة الأدبية في المجتمع الروسي في منتصف القرن التاسع عشر ويظهر كيف أضحت الأفكار قوة.

وهكذا يمكن القول إن الأدباء قد لعبوا دورًا في توجيه الشعب الروسي، أما الأدب فقد شكل الفكرة السياسية والاجتماعية. فما الذي ساعد على بقاء هذه الظاهرة الثقافية؟

ترجع الأسباب الأساسية في ذلك إلى بنية المجتمع الروسي. فعلى مدى قرون طويلة كانت روسيا بلدًا يسودها الحكم المطلق. في نظام كهذا لا يسمح بحرية التعبير أو النشر، كانت الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الغضب وعدم الرضا الشعبي هو الأدب. ومضى الزمن وأصبح الأدباء أكثر فأكثر يلعبون دور ضمير المجتمع. كما أصبحوا هم المفكرين بالمعنى الكامل للكلمة والمصدر للأفكار الجديدة والأيديولوجيات الجديدة.

كما فتح الأدب الروسي الطريق للثقافة الروسية لاحقًا. فالحضارة الروسية عمرها لا يزيد عن الألف عام وحتى القرن التاسع عشر بدت روسيا من الناحية الثقافية دولة متراجعة بعض الشيء. وبفضل إصلاحات القيصر بطرس الأول نهضت روسيا لتصبح في مصاف الدول العظمى القوية في أوروبا سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الجغرافية. وقد بقيت حالة عدم النضج الثقافي نقطة الضعف لدى روسيا على مدى مائتي عام قبل أن يصل القيصر العظيم إلى سدة الحكم. فقد كانت بريطانيا تعيش أجواء الثورة الصناعية فيما تسيطر على فرنسا فكرة تأسيس الجمهورية الديمقراطية ولدى ألمانيا النظم الفلسفية. وبقى لروسيا الأدب والفن فحسب. واستطاع الأدب أن يرتقي بالثقافة الروسية إلى القمة حيث تحمل المسئولية من واقع الشعور بالواجب نحو الوطن. أخذ كل ذلك في التراكم والتغلغل عميقًا في الثقافة الروسية وتشكيل وترسيخ المضمون الفكري المميز للأدب الروسي.

وبالإضافة إلى كل ما سبق ذكره ارتبطت هذه السمة في الأدب الروسي بطابع الشخصية الروسية. فقد امتدت مساحة روسيا من أوروبا إلى آسيا وتعتبر هذه «الأوراسية» أساسًا وسببًا لتفردهم عن غيرهم من الشعوب. وفي الوقت الذي تفرد فيه الغربيون بالعقلانية والقدرة على التحليل المنطقي كان أهل الشرق يولون اهتمامًا أكبر بالمشاعر حيث تواجد الروس في منطقة وسيطة ولذا جمعوا بين العقل والمشاعر والتحليل. وتعد الفكرة الأدبية المركزية أو الأدب الأيديولوجي الشكل والمظهر الأمثل لهذه الطريقة في التفكير؛ ولذا نجد هذا الخليط من النشاط المتباين في الوعي ينعكس ويتجسد في الأدب الروسي في أعمال دوستويفسكي وبيرديابيف، ولم يساعد ذلك بالطبع في حدوث استقرار اجتماعي أو سياسي غير أنه ساعد بلا شك على ازدهار الثقافة والفن.

هكذا نرى كيف أن المضمون الفكري العميق والأهمية الأيديولوجية للأدب الروسي يرجعان لعدد من الأسباب منها السياسي الاجتماعي والثقافي التاريخي بالإضافة إلى عامل التقاليد الدينية. كل هذه الأسباب والعوامل ارتبطت فيما بينها وتفاعلت لتنتج هذا الأدب الروسي الثري... المفعم بالأيديولوجيا.

6
الأدب الروسي العائد

مع قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧م شهدت روسيا أحداثًا مهمة ومصيرية؛ حيث انقسم المجتمع إلى معسكرَيْن متناحرَيْن، وهما: حركتا البيض والبلاشفة. وأخذ مناصرو كل جانب يدافعون بشدة عن قِيمهم، وأفكارهم وتقاليدهم، وحقهم في بقاء إما السلطة القيصرية أو الحكم السوفيتي الجديد. وكان لهذه الأحداث تأثيرها القوي

على الأدب والأدباء؛ حيث أصبحت الأحداث الجديدة، والمجتمع الجديد، والأفكار الجديدة في حاجة لمن يعبِّر عنها، ويلقي الضوء عليها من خلال الأعمال والمؤلَّفات الأدبية. وتطورت الحركة الأدبية في تلك الفترة في ثلاثة اتجاهات متباينة: أدب المهجر، والأدب السوفيتي، والأدب السري أو «الساميزدات».

نشأة المصطلح

في بداية العشرينيات، شهدت روسيا هجرة ملايين من مواطنيها ممن لم يرغبوا في الخضوع لدكتاتورية البلاشفة، ونذكر منهم إيفان بونين وألكسندر كوبرين وفلاديمير نابوكوف وإيفان شميليف ومارينا تسفيتايفا. ولم يستطع هؤلاء التأقلم مع ظروف المهجر، والبعد عن الوطن، كما لم ينسوْا في يوم ما أدبهم، ولغتهم الروسية، وثقافتهم الأم، وأبدعوا أدبًا ثريًّا، رغم كل شيء.

وتعود تسمية الأدب السري بالأدب العائد لكون هذه المؤلَّفات قد «عادت» إلى القارئ لاحقًا في نهايات القرن، وتحديدًا في النصف الثاني من الثمانينيات، وما تلاها. كانت تلك فترة غروب شمس الإمبراطورية السوفيتية.

في منتصف الثمانينيات، وقُبيل انهيار حائط برلين، الذي عزل الاتحاد السوفيتي عن أوروبا لسنوات وعقود طويلة، ظهر مصطلح «الأدب العائد» وانتشر بشكل واضح في الكتابات النقدية والصحافة الأدبية. سمحت

السياسات الانفتاحية الجديدة بنشر عدد ضخم من الأعمال الأدبية لأدباء اضطروا للهجرة إلى فرنسا وألمانيا والتشيك في عشرينيات القرن الماضي. كان الكثير من هؤلاء الأدباء قد نالوا بالفعل شهرة عريضة في روسيا، ولكنهم تحدثوا بصراحة عن ثورة ١٩١٧ م، وما تلاها من حرب أهلية عمَّت البلاد. شهد هؤلاء الكتَّاب أحداثًا قاسية، وكثير منهم تشكك في أهمية ثورة ١٩١٧ م، بل سخروا منها، وقللوا من أهمية نتائجها؛ وهو ما عرضهم للاتهام بكونهم أعداء للوطن، وتمت مصادرة مؤلَّفات أغلبهم، حتى إن أسماءهم قد تم حذفها من جميع الموسوعات، وطوى النسيان أسماءهم طوال سبعة عقود، وأعلنت الدوائر الرسمية حينها أن هؤلاء توقفوا عن الإبداع في المهجر، في حين نذكر على سبيل المثال أن الأديب بوريس زايتسف قام بكتابة أكثر من ٧٠٠ عمل في المهجر.

ويرتبط مصطلح الأدب العائد بظواهر سلبية في التاريخ الروسي. فقد كان البلاشفة قبل ثورة ١٩١٧ م يدعمون حرية الرأي والحقوق الديمقراطية للمواطنين. إلا أنهم وما إن وصلوا إلى السلطة حتى قاموا بقمع أية محاولة لمعارضة حكمهم، ومنعوا أي مساعٍ لإظهار عدم الرضى، وأسسوا لآلية صارمة للإشراف. ومراقبة الإصدارات الأدبية فاقت في قسوتها تلك التي طبقت أيام الحكم القيصري. فقد شهد عام ١٩١٧ م إصدار قانون تنظيم الصحافة، وفي عام ١٩٢٠م كانت هناك إدارة مركزية لشؤون الأدب. وكان البلاشفة يؤكدون دومًا أن هذا الإجراء مؤقت. غير أنهم لم يخففوا من قبضتهم تلك لاحقًا. وفي ظروف كتلك، كان الكثير من الأدباء المعارضين، وغير الراضين عن الحكم السوفيتي يكتبون دون أمل أن يصل صوتهم للقارئ. حتى كان منتصف الثمانينيات، ومع حالة الدفء التي سادت المناخ السياسي في البلاد، أخذت هذه المؤلَّفات تعود تدريجيًّا إلى روسيا، ويطالعها القارئ الروسي، ومن بين هذه الكتب روائع في الأدب، ومثلت هذه المؤلَّفات مصدرًا للقراء؛ للتعرف على الحقيقة المرة التي عانى ويعاني منها الشعب الروسي حينها. وكانت أهم الموضوعات التي تناولتها كتابات هؤلاء الأدباء، تتمحور حول الثورة وبناء العالم الجديد.

ويمكن هنا الإشارة إلى رواية «دكتور زيفاجو» لبوريس باسترناك كنموذج جلي، حيث تم فصل الكاتب من اتحاد الكتَّاب الروسي، وإرغامه على رفض استلام جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٥م. وإذا كان باسترناك قد سمح لنفسه بالتشكيك في الثورة فإن ميخائيل بولجاكوف قد رفض الثورة بأكملها، وعبَّر عن ذلك في قصته الشهيرة «قلب كلب». وهناك قصة أخرى شبيهة بها وهي قصة «الحفرة» للكاتب أندريه بلاطونوف (١٩٣٠م)، التي تتشابه معها بمضمونها الفلسفي. إلا أنها لم تنشر إلا بعد مرور قرابة الستة عقود، وتحديدًا

في عام ١٩٨٧م. ويصور الكاتب مجموعة من العمال الذين يحفرون حفرة لوضع أساس منزل ضخم. ويتناول المؤلِّف ظاهرة العمل الجماعي السوفيتي في بداياته. ويشير الكاتب في الرواية إلى عدم جدوى الجنة الاشتراكية التي تقوم على معاناة الأبرياء.

أما الموضوع الثاني في الأدب العائد فهو: القمع الستاليني. ولعل هذه الظاهرة تبدو بجلاء في أعمال فارلام شالاموف «قصص من كاليم» وتلميذه ألكسندر سولجنتسين. وقد عاش الاثنان تجربة الاعتقال في عصر ستالين، ولم تشفع مشاركة الأخير في الحرب له، ولم تنقذه النياشين ولا الأوسمة العسكرية، التي نالها من العقاب الستاليني. ففي إحدى مراسلاته مع أحد أصدقائه انتقد الثورة وسياسات القادة السوفييت، فحُكم عليه بالسجن ثماني سنوات مع الأشغال الشاقة. وبعد موت ستالين تم الإفراج عنه وإرساله للعمل معلمًا في إحدى المناطق البعيدة، وهناك كتب سرًّا أروع مؤلفاته. وفي الستينيات، وفي أثناء حكم خروشوف صدر بعضها. وفي قصته «حوش ماتريونا» ١٩٥٩م يعود البطل من المنفى، ويحلم بالحصول على الراحة والهناء في قرية هادئة نائية في روسيا، ويجد هذه الراحة في منزل إحدى الفلاحات التي تدعى ماتريونا فاسيليفنا. وتنطق هذه البطلة بلسان الحقيقة التي يراها الكاتب. فبعد أن فقدت زوجها وأطفالها لم تعد ترى معنى للحياة إلا في مساعدة الآخرين، وتحاول أن تثبت ذلك بالفعل لا بالقول. كما كرَّس الكاتب قصته الشهيرة «يوم واحد من حياة ايفان دينيسوفيتش» (١٩٥٩ م) للحديث عن المصير المأساوي للشعب الروسي، وقدرته على الصبر والتحمل. وفي عام ١٩٧١م، أنهى سولجنتسين روايته «أرخبيل الجولاج» التي أطلق عليها اسم «بحث فني». وصوَّر الكاتب في روايته تجربته في المعتقل، إلا أنه وبعد عزل خروشوف من السلطة تعرض الكاتب لمضايقات وملاحقات؛ مما اضطره للهجرة إلى الخارج، حيث مكث منذ ١٩٧٤م إلى ١٩٩٤م خارج بلاده. وقد سعت السلطات السوفيتية إلى محو ذكرى الكاتب ومؤلفاته تمامًا. غير أنه بقى واحدًا من أعظم الأدباء الروس.

وهناك مجموعة ثالثة من المؤلَّفات التي تنتمي للأدب العائد، يمكن وصفها بكونها محايدة من الناحية الأيدولوجية، إلا أنها تختلف كليًّا من الناحية الجمالية مع سمات التيار الواقعي السائد حينها في الاتحاد السوفيتي، أو أن شخصية المؤلِّف كانت مثيرة للجدل. ونذكر منها على سبيل المثال: إبداعات الكاتب نيقولاي جوموليوف (١٨٨٦ م - ١٩٢١ م) وماريا تسفيتايفا وآنا أخمانوفا، وغيرهم.

كما ينتمي إلى هذه المجموعة الكاتب ساشا سوكولوف، وهو من كتَّاب الموجة الثالثة للمهجر، وفلاديمير نابوكوف ويوسف برودسكي وغيرهم.

وهناك أيضًا الروايات التاريخية لكل من: م.الدانوف وساشا تشيورني وناديجدا تيفي وأشعار نثر ج.ايفانوف وجيورجي أداموفيتش والمذكرات الرائعة للشاعرة إيرينا اودويفتسوفا ونينا بيربيروفا وأشعار فلاديمير خوداسيفيتش وعدد ضخم من المقالات النقدية في مجال الأدب الروسي.

أثر الأدب الروسي العائد

مما لا شك فيه أن هذا التيار الأدبي قد أثرى الأدب الروسي كثيرًا، وخصوصًا بعد الكشف عن الأرشيفات الكاملة للكتَّاب وكنوزهم. فقد ظل القارئ الروسي لعقود يجهل شريحة عريضة من المبدعين الروس ومؤلَّفاتهم. فكانت هذه الكتب إما محظورة أو منشورة في الخارج أو بقيت بخط يد المؤلِّف في أرشيفه الخاص. (ألكسندر سولجنتسين «أرخبيل الجولاج» وبوريس باسترناك «دكتور زيفاجو» وميخائيل بولجاكوف «قلب كلب» وأناتولي ريباكوف «أطفال شارع أرباط» وغيرهم)، وهناك أيضًا عدد من المؤلَّفات في المهجر، وعدد من النصوص الأدبية المكتوبة في داخل الاتحاد السوفيتي) كانت الرقابة السوفيتية تحظر انتقاد النظام السوفيتي، وأي تناول للدين موضوعات الإثارة الجنسية، وضمن قواعد «الشكلية الجمالية». ونشأت ظاهرة أطلق عليها «ساميزدات» أو أن يقوم المبدع بإنتاج، وطباعة، ونسخ كتبه ومؤلفاته بيده سرًّا. وانتشرت هذه الظاهرة على نحو ملحوظ في فترة ذوبان الجليد في عصر نيكيتا خروشوف، وفترة الجمود التي شابت حكم بريجنيف. ويمكن اعتبار ساميزدات أحد التيارات الأدبية في روسيا في الفترة من الخمسينيات والثمانينيات. ويطلق على كتَّاب تلك الفترة وهذا التيار كتاب «الأندر جراوند». كان هؤلاء الكتَّاب يقررون احتياجاتهم بأنفسهم، وكانوا أكثر حرية في اختيار الموضوعات، وفي البحث عن أشكال جمالية جديدة، وكانوا متحررين من ضغوط الناشرين والمراجعين.

وفي عام ١٩٥١ م صدرت مجلتان في بطرسبورج بشكل سري، تحتوي على أشعار ومقالات. وفي موسكو صدر في عام ١٩٦٠م ثلاثة أعداد من مجلة «علم النحو» وهي أول مجلة ساميزدات تصدر في موسكو، وبلغ حجم النسخ ٢٠٠ - ٣٠٠ نسخة. وشهدت فترة السبعينيات صدور عدد من المجلات الأخرى، ذات الطبيعة الاستقلالية في الكتابة، وبأعداد ونسخ قليلة، وبشكل سري تمامًا.

وبعد حقبة البيروسترويكا اختفى أدب الساميزدات لاختفاء الرقابة على الإبداع، حيث أصبح من حق أي إنسان نشر أي نص مهما كان. غير أن ثمة

تهديدًا وخطرًا آخر تمثل في فيضان الأعمال غير الجيدة، التي يفتقد مؤلَفوها إلى الموهبة الأدبية الحقيقية، واستبدلت الرقابة على الإبداع بقواعد السوق والعرض والطلب؛ ولهذا ازدهر ما يعرف بالأدب الجماهيري أو أدب العامة.

وإذا ما قمنا بتحليل مؤلَّفات كتاب كبولجاكوف وباسترناك وزامياتين وبلاطونوف وبيلنياك في سياق الفترة التي كتبوا فيها، يمكن وصف أعمالهم بكونها تنتمي إلى الأدب السري، الذي عاد إلى الأدب الروسي في التسعينيات، بعد طباعتها بشكل مكثف وعلى نطاق واسع. ويمكن أن يندرج تحتها أعمال كتّاب المهجر من أمثال كوبرين وبونين وشميليف وزايتسيف وغيرهم. والمثير للدهشة أن أدب المهجر الروسي من الثراء بحيث يمثل تيارًا مستقلًّا ضخمًا وغنيًّا.

وهكذا يمكن القول: إن الأدب العائد أو الأدب السري في روسيا، هو مجموعة المؤلَّفات، والأعمال التي تعود للحقبة السوفيتية، وتحديدًا في الفترة بين العشرينيات والثمانينيات، التي لم تحظَ بالنشر في حينها. وحظي الأدب العائد بالنشر في النصف الثاني من الثمانينيات وما بعدها. وقد سمح ذلك كله بإعادة رسم لوحة متكاملة للهزات التاريخية التي تعرضت لها روسيا، والنقل الصريح والشفاف للمعاناة التي كابدها الشعب الروسي عبر تاريخه الحديث.

7

الأدب الروسي.. وجائزة نوبل

إذا قمنا باستثناء الكاتبة البيلوروسية سفيتلانا الكسيفيتش من القائمة فإن آخر الأدباء الروس الحاصلين على جائزة نوبل للآداب قد فاز بها قبل ٢٩ عامًا كاملة. وتثير جائزة نوبل للآداب كثيرًا من الجدل سنويًّا حول الفائز بها، وتكاد مساحة الجدل تساوي ما يثار حول الفائز بجائزة أخرى كبيرة وهي جائزة نوبل للسلام.

ومن بين أسماء الأدباء الكبار ذوي السمعة العالمية لا تكاد الذاكرة التاريخية تحتفظ سوى بعدة عشرات منهم فقط. ونورد فيما يلي الظروف التي صاحبت فوز الأدباء الروس بالجائزة.

لا شك أن تأثير الأدباء الروس على الأدب العالمي كان عظيمًا؛ ولذا كانت أسماؤهم ترد دومًا بين المرشحين لنيل الجائزة سنويًّا. وبعد مرور نصف قرن يحق للجنة الجائزة الكشف عن أسماء هؤلاء؛ ولذا لم يعد سرًّا اليوم أن نعرف ليس فقط الحائزين على الجائزة بل وكل من لم يحصل عليها وبقى في صفوف المرشحين في قوائمها.

وكان أول من رشح للجائزة بين الأدباء الروس ليف تولستوي وذلك في عام ١٩٠٢م وكانت المفاجأة أن يتم ترشيح اسم روسي آخر غير شائع في عالم الأدب حينها وهو اسم المحامي الروسي أناتولي كوني. ولم يحصل أيهما على الجائزة في عامها. وقد بقي اسم ليف تولستوي على قائمة المرشحين حتى عام ١٩٠٦م.

وفي عام ١٩١٦م تم ترشيح الأديب الأوكراني إيفان فرانكو وفي عام ١٩١٨م تم ترشيح مكسيم جوركي للجائزة. وشهد عام ١٩٢٣م ترشيح ثلاثة كتاب روس دفعة واحدة لنيل الجائزة وهم مكسيم جوركي وإيفان بونين وقنسطنطين بالمونت. ومثل ترشيح الكاتب غير المعروف حينها بيتر كراسنوف للجائزة عام ١٩٢٦م مفاجأة غير متوقعة. وقد تعرض الكاتب للشنق لاحقًا نظير تعاونه مع الألمان. وشهدت قائمة المرشحين للجائزة في عام ١٩٢٨م ترشيح مكسيم جوركي للمرة الثالثة في تاريخه وفي عام ١٩٣٠م تم ترشيح اسم كل من ايفان بونين ودميتري ميرجكوفسكي.

وشهدت الثلاثينيات ترشيح الثلاثي بونين وشميليف وميرجكوفسكي وكان عام ١٩٣٣ تاريخيًا حيث نال إيفان بونين الجائزة وأصبح بذلك أول أديب روسي يحصل عليها وبعد ترشحه لها لخمس مرات. ويعتقد كثير من الأدباء بما فيهم بونين نفسه أنه حصل على الجائزة بفضل روايته «حياة أرسينيف» والتي كتبها أثناء إقامته في فرنسا. وقال بونين معقبًا على فوزه بالجائزة «لن أكون صادقًا إذا قلت، كما يقول الكثيرون في مثل هذه المواقف، أنها أكثر لحظة مؤثرة في حياتي. لقد كان الفيلسوف العظيم محقًّا عندما قال إن مشاعر الفرح حتى النادرة منها لا تقارن بمشاعر الحزن الشديد. لا أريد أن أزعجكم أو أؤلمكم في هذا اليوم الاحتفالي والذي سأظل أتذكره طويلًا إلا أننى رغم ذلك أسمح لنفسي بالقول أن مشاعر الحزن التي مرت بي في السنوات الخمس عشرة الأخيرة تتجاوز بأضعاف لحظات السعادة. وهذه المآسي لم تكن شخصية... على الإطلاق».

وقد استقبل هذا الحدث بفتور شديد داخل روسيا رغم أنها كانت المرة الأولى التي يفوز بها أديب روسي بالجائزة. وكان بونين أحد أشهر الأدباء الروس في المهجر حيث غادر روسيا في عام ١٩٢٠م

وقد تسلم بونين الجائزة في عام ١٩٣٣م وقام بتوزيع جزء كبير منها على المهاجرين الروس وفي دعم مختلف الجمعيات الأهلية حتى إنه لم يتبق له شيء منها.

وشهدت الأربعينيات ترشيح العديد من الأسماء الروسية أهمها نيقولاي بيردياييف (٧ مرات) وبوريس باسترناك (٤ مرات) وألدانوف (٣ مرات) وشولوخوف (٣ مرات). وفي الخمسينيات ترشح الدانوف للجائزة حتى وصلت مرات ترشيحه إلى ١٢ بالإضافة إلى شولوخوف وباسترناك.

وفي عام ١٩٥٨م منحت الجائزة للمرة الثانية للأدب الروسي في شخص بوريس باسترناك ولم تجلب الجائزة للكاتب سوى المشكلات. وهناك قول شائع أن باسترناك قد نال الجائزة على روايته التي لم تكتمل «دكتور جيفاجو» والتي صدرت في إيطاليا عام ١٩٥٧. غير أن الكاتب قد رشح لنيل الجائزة قبل انتهائه من تأليف هذه الرواية كما أن لجنة الجائزة أشارت إلى إسهاماته في مجال الشعر في مسببات فوزه بالجائزة. وتعرض باسترناك لهجوم لاذع واتهامات بالتعاون مع الدعاية الغربية. وقام البعض بمقارنته بالكاتب النرويجي كنوط هامسون الذي تنازل عن الجائزة لوزير الدعاية في الرايخ الثالث يوسف جيبيليس وذهب البعض إلى المطالبة بسحب الجنسية من باسترناك ونفيه خارج البلاد. ونشطت حملة ضده بعنوان «لم أقرأ ولكنى أدين بشدة» كل هذا أرغم الكاتب أن يرفض الجائزة.

وفي عام ١٩٨٩م تسلم ابن الكاتب بوريس باسترناك الميدالية والشهادة. حيث توصلت الأكاديمية السويدية إلى نتيجة مفادها أن رفض الكاتب للجائزة كان رغمًا عنه وقررت إعادة الأمور إلى نصابها.

ولم يتم ترشيح أحد في العالم التالي لفوز باسترناك. وترشح شولوخوف للجائزة في الأعوام التالية جميعًا حتى نالها في عام ١٩٦٥م وربما هو الوحيد بين الكتَّاب الروس الحاصلين على الجائزة الذي جرى تكريمه رسميًّا.

وقد ترشح شولوخوف عدة مرات قبل نيل الجائزة حتى إنه كان على وشك الحصول عليها مناصفة مع باسترناك في عام ١٩٥٨م، وظهرت دعاوى داخل الحزب برفض شولوخوف للجائزة في حالة الفوز بها مع باسترناك. غير أنه وبعض مرور سبعة أعوام يحصل شولوخوف على الجائزة ويحظى فوزه بترحيب رسمي كبير من السلطات السوفيتية. وقال شولوخوف مازحًا إن الأكاديمية السويدية تأخرت ٣٠ عامًا قبل منحه الجائزة نظرًا لأن الأجزاء الأولى من رواية «الدون الهادي» قد صدرت في عام ١٩٣٢م. وتجدر الإشارة إلى أن شولوخوف يعد أحد تسعة فائزين بالجائزة نالوها نظير إسهاماتهم في إثراء الأدب العالمي بشكل عام وليس على عمل أدبي بعينه.

وهناك اعتقاد أن من بين العوامل التي ساعدت على اختيار شولوخوف كانت كلمة جان بول سارتر عندما اعتذر عن استلام الجائزة وقال «يؤسفني أن تمنح الجائزة لباسترناك وليس شولوخوف وأن يكون الكتاب الوحيد الروسي الذي فاز بجائزة نوبل قد نشر في المهجر وممنوع في داخل الوطن الأم».

وقد تبرع شولوخوف بجزء من الجائزة لبناء مدرسة في إحدى قرى نهر الدون.

في عام ١٩٧٠ م نال الجائزة الكاتب الروسي ألكسندر سولجنستين وكان على لجنة نوبل أن تثبت بالدلائل أن هذا الاختيار لم يكن سياسيًّا في المقام الأول، كما اتهمتها السلطات السوفيتية حينها وحتى الكاتب نفسه. والغريب أن أهم روايتين للكاتب وهما «أرخبيل الجولاج» و«الدائرة الحمراء» لم تكن قد نشرت بعد وقت حصوله على الجائزة. وقبل حصوله على الجائزة كان قد نشر له بضعة قصص قصيرة وترشحت قصته الشهيرة «يوم واحد من حياة ايفان دينيسوفيتش» لجائزة لينين الأدبية كما نشرت رواياته «عنبر السرطان» و«الدائرة الأولى» في داخل الاتحاد السوفيتي إلا أنهما انتشرتا عن طريق ما يعرف بالساميزدات أو النشر بالنسخ يدويًّا وبشكل سري. كما تم نشر أعماله في الغرب بدون تصريح منه. وعندما علم الكاتب بفوزه بالجائزة اشتد الخلاف

بينه وبين السلطات السوفيتية، واضطر إلى الاعتذار عن السفر إلى ستوكهولم لاستلامها رغم رغبته في ذلك خوفًا من عدم السماح له بالعودة إلى الوطن. إلا أنه لم ينجح رغم ذلك في تجنب الحملات الدعائية ضده، حيث تم اتهامه بخيانة الوطن وتم نزع الجنسية السوفيتية عنه ونفيه خارج الاتحاد السوفيتي. وقد تمكن الكاتب من استلام الجائزة شخصيًّا بعد نفيه إلى خارج الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٤م، وقد أنفق سولجنيتسين الجائزة على شراء ضيعة في ولاية فيرمونت.

وكان آخر الكتَّاب الروس الحاصلين على الجائزة هو الشاعر يوسف برودسكي والمقيم في المهجر وذلك في عام ١٩٨٧م. وفي العام الذي حصل فيه الشاعر على الجائزة بلغ عدد دواوينه الشعرية ستة بالإضافة إلى مسرحية «المرمر» والعديد من المقالات باللغة الانجليزية. وكان برودسكي قد نفي من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢م وحصل لاحقًا على الجنسية الأمريكية.

ونال الشاعر الجائزة والاتحاد السوفيتي يعيش مرحلة البيروسترويكا؛ ولذا لم يتعرض للهجوم الذي تعرض له سابقوه بونين وباسترناك وسولجنستين. إلا أن الإعلام السوفيتي لم يعلن خبر الفوز إلا بعد مرور أسبوعين. ولم يحضر المسئولون السوفييت حفل توزيع الجوائز فيما كان تعليق الخارجية السوفيتية على الفوز «بأن القرار غريب» و«أن الفوز بنكهة سياسية». وكان برودسكي أكثر الفائزين سعيًا للاستفادة القصوى من قيمة الجائزة حيث قام بشراء مطعم في نيويورك.

وهكذا يمكن القول إن بونين وشولوخوف وباسترناك وسولجنستين وبرودسكي يمثلون القائمة الكاملة لممثلي الأدب الروسي الحاصلين على جائزة نوبل ولم تشهد السنوات التسعة والعشرين الأخيرة حصول أي أديب روسي على هذه الجائزة العالمية إذا ما استثنينا بالطبع الكاتبة سفيتلانا الكسيفيتش، وإن كانت كتاباتها جميعًا بالروسية كونها بيلاروسية الموطن.

معيار الجائزة الأدبية

لم يعد يخفى على أحد المعايير التي تؤثر في اختيار الفائز بالجائزة الأدبية. وقد تناول الباحث الفرنسي بيير بوردي هذا الموضوع تفصيلًا في مقالة له بعنوان «بعد الأدب». حيث يرى أن منح الجائزة الأدبية لا يعد ضمانة أو دليلًا على اكتمال العمل الأدبي فنيًّا. كما أن الجوائز الأدبية لا تعد مؤشرًا على

الاعتراف المجتمعي بل هي في الحقيقة وسيلة لتوجيه الحراك الأدبي والاجتماعي بشكل عام. فالفن الحقيقي ليس وسيلة لربح المال بل هو وسيلة لفهم النفس والارتقاء بها.

وباستثناء شولوخوف كان جميع الفائزين الروس بالجائزة على خلاف مع السلطات. فقد نفي سولجنتسين وعاش بونين وبرودسكي في المهجر ونال باسترناك الجائزة عن رواية معادية للنظام وصدرت في الخارج.

وهناك الكثير من الأسماء الروسية التي لم تنل حظها المستحق وتم تجاهلها، ونذكر منهم ليف تولستوي وبولجاكوف ونابوكوف وتشيخوف وجوموليوف وغيرهم.و تضم قائمة العظماء أيضًا بلاتونوف وماندلشتام وشوكشين وراسبوتين. قد بقي هؤلاء جميعًا في ذاكرة التاريخ والقراء في حين كثير من الفائزين بالجائزة طواهم النسيان.

فأما الأهم بالنسبة للكاتب الفوز بالجائزة أم المجد الأبدي؟ هناك من يفضل الفوز بالمال في حياته وهناك من يفضل تخليد ذكراه بعد مماته. لكل خياراته.

لقد رفض ليف تولستوي الجائزة في عام ١٩٠٦م كما رفض الحصول على ملايين من الروبلات نظير طباعة مؤلفاته. وكان يصر على طباعة كتبه مجانًا للقراء وعلى كتابة عبارة «طبعة مجانية» على الصفحة الأولى من كل جزء من أجزاء مجموعته الكاملة. كما رفض تولستوي الحصول على حقوق المؤلف عن كتبه المنشورة بعد عام ١٨٩١ م.

يقول تولستوي «اعلموا فحسب أنكم لستم في حاجة إلى شيء على الإطلاق سواء أن تنقذوا أرواحكم وبذلك فقط نستطيع أن ننقذ العالم من حولنا» .

6

مرحلة الحداثة وما بعدها

لم تكد حدة الجدل الدائر حول الانتقال من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة في الأدب الروسي تخفت قليلًا حتى اشتعل النقاش والجدل مجددًا حول تيار ما بعد بعد الحداثة.

عندما نتحدث عن تيار ما بعد الحداثة في الأدب الروسي فنحن نعني بالتأكيد تداخل مختلف الحدود الثقافية والأيديولوجية وما بين الأجناس الأدبية. ويحدث هذا التداخل والخلط في المقام الأول بين الأدب الجماهيري وأدب النخبة سواء في وعي القارئ العادي أو الناقد الأدبي.

وتيار ما بعد الحداثة الروسي هو ظاهرة ضرورية ولا بديل عنها للمرحلة الانتقالية وفترة التخلص من كافة التناقضات السياسية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية والأيديولوجية التي ميزت وصبغت فترة التحول من النظام الشمولي إلى الديمقراطية. وتكمن خصوصية تيار ما بعد الحداثة الروسي في تغير النظرة إلى الذاكرة الاجتماعية وإعادة تقييم الماضي. عانت الثقافة الروسية في نهايات القرن العشرين من تنامي تعظيم قيم الثقافات الأخرى وخاصة الغربية. كما تمت الاستعانة واستلهام عناصر من ثقافات أخرى واقتباس نتائج تجارب تاريخية مغايرة وغريبة. غير أنها في الوقت نفسه ومنذ البداية استشعرت قدرتها على المواصلة وحدها ولم تسمح لنفسها بمجرد اقتباس ما هو غريب عنها؛ ولذا فإن كل الظواهر الغربية على الروس سرعان ما اكتسبت واصطبغت بالصبغة الروسية.

ملامح الفروق بين التيار الروسي والغربي

هناك اختلاف بين تيار ما بعد الحداثة الروسي والغربي. فالتيار الغربي ظهر كرد فعل لتيار الحداثة وفي نفس الوقت كان مرتبطًا به بشكل مباشر. وعلى الرغم من كونه تيارًا جديدًا إلا أنه سعى أن يصبح قديمًا بقدر الإمكان؛ ولذا فقد اهتم وسعى إلى استيعاب التجارب والتقاليد السابقة له.

أما تيار ما بعد الحداثة الروسي فقد ظهر في آخر سنوات الحقبة السوفيتية في الفترة التي كان فيها الأدب السوفيتي يلفظ أنفاسه الأخيرة. وفي تلك الفترة كان تيار ما بعد الحداثة الغربي قد نجح في التغلغل في بنية الأدب وأصبح جزءًا ومكونًا مهمًّا وضروريًّا لا بديل له في إبداعات الكتَّاب المعاصرين حينها.

وقد حافظ الأدب السوفيتي على ملمحين أساسيين: الحفاظ على قيم الأدب الكلاسيكي والحرص على وضوح النص بالنسبة للقارئ العادي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكتَّاب كانوا يلتزمون بالقيام بذلك دون النظر إلى وجهة نظر ورأي الجماهير القراء. فلم يكن للقارئ أي دور سواء في عدد النسخ التي تطبع من الكتاب أو فترات العرض والبيع. بل كانت هناك رقابة على تعليقات القراء أشد من تلك المفروضة على الإبداعات الأدبية. حيث كانت تلك التعليقات والآراء تعكس بجلاء الرأي العام المجتمعي. وكان الهدف الأساسي لدار النشر هو تشكيل الرأي العام لا تحقيق نجاح تجاري للكتاب. كانت النظرة الأولى إلى أي نص باعتباره إعادة سرد للواقع ومرآة للحياة، وكانت نمطية الشخصيات تمثل سمة أساسية للواقعية الاشتراكية. وفي حين كان القراء معنيون أكثر بتقييم مدى حيوية الأدب وارتباطه بالواقع، كان النقاد يتناولون الخواص والسمات الأدبية بالبحث والدراسة.

ومع التغيرات الاجتماعية وصعوبة التواصل مع الثقافة الغربية والانفتاح عليها شهد تيار ما بعد الحداثة حالة من الجمود وعدم التطور، إلى أن ظهر الانترنت الأدبي الذي اعتبر تفعيلًا وتجسيدًا لحلم ما بعد الحداثة بتحقيق المزج بين أدب النخبة والأدب الجماهيري. وقد جعلت الأعداد الكبيرة من المكتبات والمواقع الإلكترونية من النقاشات الأدبية فضاءات أكثر حيوية وثراء خاصة بين القراء.

وليس من المستغرب التزامن بين ظهور الانترنت وتيار ما بعد الحداثة في روسيا وكون عنصر التشويق والجذب مهيمنًا على ما عداه. وبدا النقد الأدبي الروسي تتنازعه أقطاب مختلفة. ونشبت حرب نقاشية وجدلية بين أنصار الأدب الجماهيري التجاري وأدب النخبة غير التجاري.

في البداية احتدم الجدل بين أنصار ومعارضي ما بعد الحداثة. وفي الفترة بين عامي ١٩٩١ - ١٩٩٥م أشعلت الصحافة الجدل في هذا الموضوع. ثم انتقل الجدل ليدور بين نقاد الأدب المحترفين في الصحافة المطبوعة ونظرائهم في صحافة الانترنت وكذا بين النقاد والقراء وبين المتعصبين لكتَّاب بعينهم وحتى بين شرائح عمرية مختلفة. ثم ما لبث أن ظهرت العديد من المجلات الافتراضية والجوائز الأدبية المرموقة والشهيرة وحتى الصغيرة. ويمكن أن

يصبح ذلك مدعاة فخر للأدب الروسي حيث تساعد هذه المظاهر على تنشيط نشر الأدب وتناول الأعمال الأدبية وبأقل تكلفة.

ومن خلال متابعة عملية تنامي انتشار الحديث عن الأزمنة والعصور القديمة في ثقافة المجتمع المعاصر فإن البعض ينظرون إلى هذا العصر ليس بوصفه ما بعد الحداثة بل ما بعد بعد الحداثة. شاع رأي يقول إن العالم قد تجاوز مرحلة ما بعد الحداثة بنجاح. وأصبحت التحولات الاجتماعية والأدبية أكثر تعقيدًا للدرجة التي أصبحت هناك ضرورة إلى ظهور تيار جديد. وهو تيار يتميز بتبني نفس الأفكار ولكن تحت قناع صنع على مستوى الإعلام الجماهيري المعاصر وفن العلاقات العامة. ويرى الفيلسوف ميخائيل إبيشتين أن الثقافة المعاصرة في روسيا تتحدد بمدى علاقتها بالماضي الشيوعي.

تيار ما بعد الحداثة

من السمات المميزة لتيار ما بعد بعد الحداثة في الأدب الروسي الصدق في التناول والإنسانية الجديدة واليوتوبيا الجديدة والمزج بين الاهتمام بالماضي والانفتاح على المستقبل.

وقد انعكس الذوبان بين الحدود الأدبية ليس فقط على الأعمال الأدبية بل على مستوى النقد أيضًا. وينسحب الأمر على الأدب المطبوع التقليدي والأدب الإلكتروني الحر. حيث أصبح من الصعب التفريق بين المقالة النقدية والخواطر الخاصة التي يقوم بها الناس العارفون باللغة وبين الانطباعات الشخصية الذاتية والدراسات الموضوعية.

محور آخر مهم هو الجوائز الأدبية وتأثيرها على حركة الأدب في روسيا ودورها في انتشار وتنوع وتمازج الاتجاهات الأدبية. والجوائز الأدبية في روسيا تظهر وتختفي. وإذا ما قارنا الحال بأوروبا سنجد أن في روسيا حوالي ٧٠٠ جائزة أدبية في حين يبغ العدد حوالي ٣٠٠٠ جائزة في أوروبا. ولعل أبرز الجوائز الروسية هي «البوكر» وهي أول جائزة حكومية تأسست في روسيا بعد عام ١٩١٧. وقد تم تدشين هذه الجائزة في عام ١٩٩١م وتمنح سنويًّا للرواية الأفضل باللغة الروسية. وقد تغير ممول واسم الجائزة عدة مرات:» البوكر الروسية»، «سميرنوف بوكر» و«بوكر – روسيا المنفتحة»

وهناك أيضا «جائزة الأكثر مبيعًا» والتي تمنح منذ عام ٢٠٠١م بوصفها جائزة أدبية وطنية روسية. ويتم ترشيح الأعمال النثرية التي نشرت خلال العام المنصرم للجائزة. كما يمكن التقدم بكتابات لم تنشر بعد بغض النظر عن تاريخ التأليف. وتهدف هذه الجائزة إلى الكشف عن القدرات السوقية للأعمال الأدبية. وتوفر إدارة الجائزة إمكانية طباعة وتوزيع والدعاية للكتاب الفائز وبعدد ضخم من النسخ. وهناك عدد من الجوائز التي تمنح حصريًّا لروايات الخيال والفانتازيا ونذكر منها جوائز «جسر النجوم» و«الفانتازيا الروسية» و« إي بي إس» وغيرها.

وهكذا يمكن القول إن علاقة الروس بالأدب قد عاشت العديد من العواصف الاجتماعية. كما يمكن القول إن السمة الأساسية لتيار ما بعد الحداثة في روسيا هو الذوبان التام بين مختلف الحدود الثقافية والأيديولوجية وبين التيارات الأدبية وتراسل الفنون وامتزاج الأجناس، وهي الحال التى مازالت سائدة حتى يومنا هذا.

7
الأدب الروسي المعاصر والبحث عن هوية

يمثل الأدب الروسي المعاصر مجموعة المؤلفات والأعمال الأدبية التي صدرت لأول مرة في روسيا منذ منتصف الثمانينيات من القرن الماضي وحتى الآن. وقد لعب النقد الأدبي والمجلات والجوائز الأدبية العديدة دورًا كبيرًا في تشكيل عملية التطور الأدبي في روسيا. وخلافا للستينيات والتى ساد فيها منفردًا اتجاه الواقعية الاشتراكية، يتسم الأدب المعاصر بتنوع اتجاهاته وتياراته.

وهناك عدد كبير من النقاد يعتبر أن عام ١٩٩١م هو البداية الحقيقية للأدب الروسي المعاصر والذي شهد بالإضافة إلى التحولات الاجتماعية العميقة انشقاق في اتحاد الكتاب السوفييت.

ويعيش الأدب الروسي مرحلة انتقالية جديدة في تاريخه تشبه تلك التي عاشها في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. شهدت العقود الثلاثة الأخيرة انتقال الأدب الروسي من مرحلة سيطرت فيها الرقابة على الإبداع في الحقبة السوفيتية إلى مرحلة جديدة استفاد فيها الأدب كغيره من الفنون من أجواء حرية التعبير. وهناك الكثير من أوجه الشبه بين تلك الحقبة وفترة العصر الفضي في الأدب الروسي.

وشهد النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين ثورة أدبية روسية. فقد تم إلغاء الرقابة تمامًا وإعلان سياسة المكاشفة والعلانية، وأدى ذلك إلى ترجمة الكثير من الأعمال الأدبية الأجنبية إلى الروسية. كما عاد الكثير من الأدباء الروس الذين تم نفيهم أو هاجروا إلى الخارج أو منعت كتبهم من النشر في السابق. وقد أطلق على كتب هؤلاء «الأدب العائد» ونذكر منهم على سبيل المثال ألكسندر سولجنتسين صاحب «أرخبيل الجولاج» ورواية بوريس باسترناك «دكتور زيفاجو» ورواية ميخائيل بولجاكوف «المعلم ومارجريتا». وقد استفاد الأدب الروسي من غياب الرقابة وانطلق بحرية يتناول كل القضايا ويجرب نفسه في مختلف الأجناس الأدبية.

ملامح الأدب الروسي المعاصر

فضلًا عن الحرية في الطرح يتسم الأدب الروسي المعاصر بسيطرة موضوعات الحوار بين الحضارات والثقافات حيث يلتحم الكتَّاب الروس في فضاء واحد مع الكتاب المعاصرين في العالم. كما يتسم بغياب المنهجية الواحدة أو الأسلوب الواحد أو الزعيم الأوحد. وأخيرًا يتميز الأدب المعاصر بكونه يجمع أكثر من جيل من الكتاب حيث يجمع النقاد على أن هناك أربعة أجيال من الكتَّاب ينشطون حاليًّا على الساحة الأدبية. الجيل الأول هو جيل الستينيات الذين بدءوا الكتابة في فترة ذوبان الجليد ومن أمثالهم فاسيلي أكسيونوف وفلاديمير فوينوفيتش وفالينتين راسبوتين وغيرهم. ويعتبر هؤلاء اليوم من الكتاب الكلاسيكيين في الأدب المعاصر. أما الجيل الثاني فهو جيل السبعينيات أو الجيل السوفيتي. وقد بدأ هؤلاء الكتابة في أجواء الرقابة والمنع ونذكر منهم: أندري بيتوف وليودميلا بيتروشيفسكايا وفيكتوريا توكاريوفا وهؤلاء يرون أن الإنسان بطبيعته جيد ولكن الظروف المحيطة هي السيئة. ومع البيروسترويكا ظهر الجيل الثالث ويضم تاتيانا تولستايا وفيكتور بيليفين وليودميلا اوليتسكايا وفلاديمير سوروكين. وقد بدأ هؤلاء العمل دون رقابة وقاموا بالتجريب في مختلف فنون الأدب وطرح موضوعاته خاصة تلك التي كانت محظورة في السابق. أما الجيل الرابع فبدأ نشاطه في نهاية التسعينيات وأغلبه من الكتاب الشباب من أمثال دينيس جوتسكو وأندري جيلاسيموف ورومان سينتشين وزاخار بريليبين.

موضوعات الأدب وتوجهاته

بعد أن مر الأدب بفترة انتقالية صعبة أخذ في التطور المتواصل فصار أكثر إمتاعًا وظهر التجريب وتم طرح مواضيع جديدة. واليوم يتوزع الأدب بين اتجاهات متعددة منها الواقعية الجديدة والتي تتناول بشكل تقليدي القضايا الاجتماعية والأخلاقية في الحياة ويواصل في ذلك تقاليد الأدب الروسي. ويتسم هذا الاتجاه بغلبة الفسيولوجي والفلسفي فيه وتفعيل دور البطل الباحث عن حل للمشكلات وتكرار الحوار بين المؤلف والقارئ. وهناك من يطلق عليه اتجاه «ما بعد الواقعية»، ويعرفونه بأنه منظومة محددة للتفكير الفني حيث يتم قبول الواقع بوصفه معطى موضوعيًّا وتطابق بين ظروف مختلفة تؤثر على المصير الإنساني. وقد لوحظ في أعمال ما بعد الواقعية ابتعاد الكاتب عن الباعث الاجتماعي مع منح الأولوية لتصوير الحياة الشخصية للإنسان ونظرته الفلسفية للعالم المحيط. وقد استمر الاتجاه الواقعي في

ترسيخ أقدامه في الأدب الروسي المعاصر بل وتشعب إلى فروع منها السيريالية والواقعية النقدية والواقعية السحرية. وتتطور المبادئ التي وضعها ماركس وبورخيس على أيدي جيل جديد من الكتاب من أمثال الفريدي يلينيك وجوران بيتروفيتش وماريو فارجوس وغيرهم.

وهناك أيضًا الأدب الجماهيري والذي يتسم باستخدام خليط من الأكليشيهات المضمونية ومنظومة أجناس فنية صارمة مثل الأدب البوليسي والميلودراما والفانتازيا وغيرها. كما يضعف وأحيانًا يغيب تمامًا موقف الكاتب في العمل الأدبي. ويتسم هذا الأدب أيضًا بتناول الموضوعات التي تناقش الغرائز والرغبات الإنسانية.

ومازال الأدب البوليسي يحتل الصدارة نظرًا لإقبال القراء علي هذا النوع إلا أن الأعمال البوليسية أصبحت تتضمن موتيفات تاريخية وساخرة وخيالية وفكرية. ومن أشهر الكتَّاب سيرجي لوكيانينكو وبوريس اكونين.

وإذا تحدثنا عن أدب السيرة الذاتية يمكن القول إنه يحتل مساحة ليست كبيرة. ويرجع ذلك لقلة إقبال القراء على هذا النوع من الأدب بالإضافة إلى أن قيمتها الأدبية ليست كبيرة.

ومن أهم الاتجاهات الأدبية المعاصرة في روسيا «ما بعد الحداثة» ويتمثل في إعادة تقييم المعايير الجمالية ومزج الأساليب واللغات والثقافات والاقتباسات الساخرة من التجارب الفنية العالمية. وعلى الرغم من أن الاتجاهات الحديثة في الأدب الروسي قد تخطت مرحلة ما بعد الحداثة وتمضي قدمًا إلا أن هذا الاتجاه ما زال صامدًا وخاصة بين النخبة من المثقفين.

وتتمحور أهم الموضوعات التي يتناولها الكتَّاب الروس المعاصرون بين الحديث عن الأساطير (فلاديمير ارلوف واناتولي كيم وأليكسي سلابوفسكي وفلاديمير سوروكين وتاتيانا تولستايا) أو تناول القرية الروسية (يفغيني نوسوف وفاسيلي بيلوف وفالينتين راسبوتين وبوريس يكيموف) أو الفانتازي (مانويل سيمينوف وسيرغي لوكيانينكو وميخايل اوسبينسكي) والمذكرات المعاصرة (يفغيني جابريلوفيتش ودافيد ساموبلوف وليف رازجون) بالإضافة إلى الأدب البوليسي الذي ما زال مزدهرًا (ألكساندرا مارينينا وبولينا داشكوفا وبوريس اكونين).

وهكذا نصل إلى نتيجة أن الأدب الروسي المعاصر يعيش مرحلة البحث عن الهوية ويحاول إثبات قدرات ومواهب الأدباء الجدد على مواصلة التقاليد العظيمة في الأدب الروسي وتحقيق اكتشافات إبداعية جديدة. كما يمكن

القول إن وفرة الكتَّاب الشباب الواعدين يبعث على التفاؤل بمستقبل الأدب الروسي خلال النصف الأول من القرن الحادي والعشرين.

الباب الثالث

تيارات وظواهر في الأدب الروسي

1
نشأة وتطور أدب الطفل في روسيا

افتقد الأدب الروسي في القرون الوسطى إلى وجود كتابات عن الطفل، وذلك نظرًا لأن الأدب في تلك الفترة كان مرتبطًا بالكنيسة، وكانت معظم المؤلفات لرجال الدين الذين التزموا بقواعد وقوانين صارمة في الكتابة وبأهداف محددة. ولم تعرف تلك الفترة فكرة تصنيف الأدب وَفق أعمار القراء. وكان الطفل ينظر إليه بوصفه نسخة مصغرة من الشخص البالغ، واستخدمت في تلك الفترة المؤلفات الكنسية، وخاصة كتب المزامير ككتب تعليمية للأطفال.

اتجاه الكتابة عن الطفل

يعتقد الباحثون أن الفترة بين القرنين ١٥ - ١٦ قد شهدت أولى الكتابات عن الطفل في روسيا، حينما تم الاعتراف بأهمية تلك الفترة من عمر الإنسان. وشهدت تلك الفترة علمنة للكتابات الأدبية وتخليصها من القوالب الدينية والكنسية التى هيمنت عليها لقرون. كانت المؤلفات الأولى عن الطفل في روسيا عبارة عن مخطوطات تحمل مضامين تربوية وتهذيبية وتنويرية. ونذكر منها «كتاب في وصف القواعد وبناء الكلمة» لمؤلفه فيودور كوريتسين، وكتاب «الحكايات الشعبية» للكاتب ديميتري جيراسيموف والذي صدر في نهاية القرن الخامس عشر. بينما في بداية القرن السادس عشر صدر كتاب «حكاية الحكم السبعة» حيث يتم تجسيد كل حكمة تتحدث وتحكي عن مزاياها. وهناك أكثر من عشرة كتب أخرى عن الطفل صدرت في الفترة ذاتها.

ولا يمكن أن نتجاهل أهمية الأدب الشعبي والذي أثرى أدب الطفل، وكان له تأثيره القوي على تطور الكتابة للطفل لاحقًا.

أما أول كتاب مطبوع عن الطفل فكان «الفبائية» للكاتب إيفان فيودوروف، وصدر في مدينة لفوف في عام ١٥٧٤. ثم شهد أدب الطفل في روسيا تطورًا كبيرًا، عندما تحول من أدب تعليمي إرشادي إلى أدبي فني وعلمي

وشهد الأدب الروسي صدور كتب للأطفال الأكبر سنًّا، وكان منها ما يهدف للتسلية، ومنها ما هو تعليمي وتربوي، كما ظهرت للمرة الأولى مؤلفات شعرية للطفل. وارتبطت أول أشعار الطفل في روسيا باسم بالمحرر في مطبعة موسكو فاسيلي فيودوروفيتش بورتسيف بروتوبوب. ويرجع الفضل له في تأليف ١٦ كتابًا تعليميًّا للأطفال في روسيا.

كما شهدت العقود الأولى من القرن السابع عشر صدور العديد من الكتابات النثرية للأطفال. وانتشرت ظاهرة تبسيط العلوم والمؤلفات الخاصة للكبار لتصبح سهلة الفهم على الطفل. كما تم فعل الشيء نفسه مع القصص الأدبية حيث تم تبسيطها واختصارها للأطفال ونذكر منها: «حكاية قازاق الدون» و«قصة بطرس وفيفرونيا» وغيرهما.

وتمثل إبـداعات الكاتـب سيـمـيون بولوتسكي مرحلة مهمة في تطور أدب الطفل الروسي. وُلد الكاتب في عام ١٦٢٦ وتُوفي عام ١٦٨٠. وقد عمل لفترة طويلة مربيًّا لأبناء القيصر ألكسي ميخايلوفيتش. وتم جمع تراثه في كتابين «كتاب الشعر» (١٦٨٠) وهو عبارة عن أشعار عن مختلف الأحداث التى عاشتها الأسرة الحاكمة وجزء منها من وجهة نظر أطفال الأسرة. أما الكتاب الثاني فهو بعنوان «مدينة فيتراجراد زاهية الألوان» والذي يعتبر موسوعة شعرية، ويتضمن الكثير من قصص الحيوان والكائنات الخيالية والأحجار الكريمة والنوادر وأشعار الطبيعة والقصص الشعرية.

وفي تسعينيات القرن السابع عشر، صدرت ثلاثة كتب للأديب قاريون ايستومين: «الفبائية مصورة» (١٦٩٤) و«حياة وخدمة يوحنا المحارب» (١٦٩٤) و«الفبائية» (١٦٩٦). كما قام بكتابة عدد مخطوطات أشهرها «عن العلوم الاثني عشر وأسرار العالم والكنيسة» و«مدينة بوليسيس – مدينة مملكة السماء والتلميذ النجيب «.

ومع تولي القيصر بطرس الأكبر شهدت حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى الروسية ازدهارًا كبيرًا، وتم ترجمة الكثير من كتب الأطفال في أوروبا إلى الروسية، ومنها كتاب «دون كيشوت «لسيرفانتيس وكتاب «رحلات غوليفر» لجوناثان سويفت و«روبنسون كروزو» لدانييل ديفو وغيرها. غير أن هناك تحولًا كبيرًا في وظيفة كتابات الطفل، حينها حيث لم يعد دورها دينيًّا إرشاديًّا أو حتى للتسلية بل تم توظيفها لتحقيق مصالح الدولة وخلق جيل جديد من الموظفين الحكوميين. وأصدر الكاتب فيوفان بروكوبوفيتش كتابه للأطفال بعنوان «التاريخ الروسي المختصر» وكتاب «قواعد السلوك للأطفال».

وشهدت تلك الفترة تحديد أطر وقواعد للكتابة للطفل، حيث اتسمت مؤلفات الأطفال بقصر الحجم وبساطة اللغة وكثرة الحوارات والمغامرات والخاتمة السعيدة حيث ينتصر الخير دائمًا على الشر.

كما شهد أدب الطفل طفرة هائلة في عصر الإمبراطورة يكاترينا الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) والتى عرف عنها سعيها الحثيث لنشر التنوير والتربية حتى إنها قامت بنفسها بكتابة العديد من المقالات التربوية وحكايات أطفال لحفيدها ألكسندر. كما اتسمت أشعار الطفل في تلك الفترة أيضًا بالطابع التنويري والتهذيبي والإرشادي ونذكر منها أشعار أ. سوماركوف.

شهدت حقبة الإمبراطورة يكاترينا الثانية أيضًا صدور العديد من كتب الأطفال التى تحتوي على كمٍّ ذاخر من المعلومات والمعارف بهدف توسيع مدارك الأطفال عن العالم المحيط. وفي عام ١٧٦٩ صدر كتاب «القواعد الروسية العامة» لمؤلفه «ن. كورجانوف» وكتاب موسوعي للأطفال فوق العشر سنوات. كما صدر كتاب للكاتب «أ.بولوتف» بعنوان «فلسفة الطفل أو حوارات عن الأخلاق بين سيدة وأطفالها». كما أبدع الأديب أشعارًا ومسرحيات لمسرح الطفل.

وفي عام ١٧٧٧ صدرت موسوعة «مكتبة الطفل» لأستاذ علوم التربية الألماني إ. كامبي والتى تمت ترجمة الكثير منها إلى اللغة الروسية. وتم استلهام الكثير من المضامين منها وإعادة صياغته بروح روسية. وقام بترجمة وروسنة النص الكاتب أ. شيشكوف وأطلق على الكتاب عنوان «مكتبة الطفل أو مجموعة قصص وحكايات وحوارات وأساطير للأطفال شعرًا ونثرًا مترجمة إلى الروسية»،و يُعد الكتاب أول مجموعة مختارة كبيرة الحجم لأدب الأطفال فوق العاشرة من العمر.

وشهد الربع الأخير من القرن الثامن عشر صدور أول مجلة لطفل في روسيا «كتاب القراءة للأطفال لتغذية العقل والقلب». وتولى رئاسة تحرير المجلة الكاتب إ. نوفيكوف. وصدرت المجلة بشكل دوري أسبوعيًّا في الفترة من ١٧٨٥ - ١٧٨٩م وكانت مخصصة في المقام الأول للأطفال في المرحلة العمرية من ٦ - ١٢ سنة. واحتوت المجلة على الكثير من المقالات والقصص والقصص القصيرة والمسرحيات والحكايات والفكاهات والألغاز، وغيرها من المواد التى تهم الطفل، وتميزت المجلة بمواكبتها للعصر، كما اتسمت لغتها بالسلامة والدقة. وشهدت تلك الفترة ازدهار تيار السينتمنتالية في الأدب، وهو ما كان له عظيم الأثر على ما تطرحه المجلة حيث لوحظ تغليب المشاعر والقلب على العقل في إبداعات كتاب المجلة وهي السمة المميزة لهذا التيار. وقام رائد هذا التيار في روسيا ن. كارامزين بالإسهام في الكتابة للأطفال،

حيث قام بترجمة وتأليف حوالي ٣٠ مؤلفًا للأطفال، نذكر منها قصة «يفجيني ويوليا» وحكاية «الغابة الناعسة» و«الحكيم إليا «وغيرها، كما اعتبر بعض النقاد قصته الشهيرة «ليزا المسكينة» في عِداد قصص الأطفال في تلك الفترة.واتسمت إبداعات الكاتب لأطفال بسعيه لصبغ الإنسان بصبغة مثالية، وكذا التغني بجمال الطبيعة وتجميل صورتها. كما اتسمت أيضًا بالاهتمام الكبير بالعالم الداخلي للأبطال وبالعلاقات المتبادلة فيما بينهم.

وقد اعترف كارامزين بقيمة وأهمية أدب الطفل وإمكانية استخدامه بهدف التسلية للكبار. أولع القراء من مختلف الأعمار بقراءة الحكايات الروسية للكتاب م. شولكوف وف. ليفشين وغيرهما.

واتسمت الحكاية الروسية في عصر السينتمنتالية بالمزج بين بين التفاصيل العلمانية والشعبية والروسية والأوروبية والقديمة ومن القرون الوسطى. كما ظهرت الحكايات التى تتضمن عناصر تحليل نفسي وتتناول الصراع الأخلاقي والمتناقضات الفلسفية كالخير والشر على سبيل المثال.

كما شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر انخراط الكثير من الكتَّاب والشعراء الروس في الكتابة للأطفال، ولعل أشهرهم ميخائيل لومونوسوف وأ. سوماروكوف وج. ديرجافين وإ.دميتريف وغيرهم. غير أن تلك الحقبة اتسمت بنقل الكثير من المضامين والأفكار من الغرب وخاصة من الأدب الفرنسي.

وهكذا يمكن القول إن لأدب الطفل جذورًا قديمة في روسيا تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وأنه تحول تدريجي عبر القرون من أدب ديني كنسي إلى أدب تنويري ليبرالي بعد النهضة التى شهدتها روسيا في عصر القيصر بطرس الأول.

2

شعراء.. ودبلوماسيون

ظاهرة فريدة في روسيا

هل هناك ثمة شيء مشترك بين الشعر والدبلوماسية؟ فالمعروف أن الدبلوماسي يدافع على الساحة الدولية عن المصالح الراهنة لدولته، أما الشاعر أو الكاتب فيبحث في أعماق روحه وتجربته الشخصية الخاصة عن بعض الأفكار الجامعة والإنسانية المشتركة ويحولها إلى صورة مكتملة متجانسة.

إلا أن هناك ما يجمعهما، فكل من الدبلوماسي والشاعر يتعامل مع الناس من خلال انتقائه للكلمة المقنعة والدقيقة والمنطوقة بالشكل والطريقة اللازمة وفي الظروف الزمنية والمكانية المثالية وبعد تفكير عميق. وباختصار هما يختاران الكلمات التي يتحملان المسئولية عنها لعقود وربما لمئات السنين.

مفهوم الشعر لدى الدبلوماسي

الدبلوماسي الشاعر هو ظاهرة شائعة في روسيا، ويمكن القول إن روسيا تنفرد بذلك عن غيرها من بلدان العالم في اشتغال كثير من دبلوماسييها بالعمل الأدبي والإبداعي.

في العاشر من فبراير من كل عام تحتفل روسيا بيوم الدبلوماسي. ففي هذا اليوم تحديدًا من عام ١٥٤٩م كان أول قرار بتعيين سفير روسي وإنشاء أول إدارة تعنى بالسياسة الخارجية في روسيا. وقد تميزت الدبلوماسية الروسية عبر التاريخ بتولي المبدعين من الأدباء والشعراء مناصب رفيعة. هؤلاء الذين استخدموا إبداعاتهم للتعبير عن علاقتهم بالحياة، وحاولوا من خلالها التفكير في ماضي روسيا وحاضرها ومكانتها في العالم واستشراف مستقبلها.

وتنشط في وزارة الخارجية الروسية جمعية أدبية تم تأسيسها من خمسة عشر عامًا تضم في عضويتها ما يزيد عن ٦٥ سفيرًا ودبلوماسيًّا شاعرًا نذكر منهم سيرجي لافروف وأ.بيسميرتنيخ وإ. أوبمينسكي ويفجيني بريماكوف وغيرهم... ويترأس الجمعية الدبلوماسي والشاعر فلاديمير ماسلوف والذي عمل سفيرًا لأكثر من عشرين عامًا في بريطانيا واليابان وبنجلاديش. وهو مؤلف لأكثر من عشرين مجموعة شعرية تم ترجمة بعضها إلى ٧ لغات أجنبية. وقد تأسست الجمعية الأدبية تلك بمبادرة من السفير والشاعر يوري عليموف. وتحمل الجمعية اسم «المتنفس». وتقوم بتنظيم الفعاليات الدورية والاحتفال بالذكرى السنوية لكبار الدبلوماسيين الشعراء الروس من أمثال فونفيزين وجريبويدوف وتيوتشيف. كما تقوم بدعم إصدار المجموعات الشعرية والدواوين والكتب. وتقوم الجمعية بالتعاون مع السفارات الروسية بالخارج بتنظيم الصالونات الأدبية والموائد المستديرة والأمسيات الشعرية للمواطنين الروس المقيمين في هذه البلدان. بالإضافة إلى مساعدة الدبلوماسيين الشعراء من الشباب في نشر إبداعاتهم في الدوريات المختلفة.

وقد صدرت أول مجموعة شعرية للجمعية في عام ٢٠٠١م وتلاها سبع مجموعات أخرى تحمل عناوين «المتنفس» و«النفس الثاني» و«من قرن لآخر» و«سمالينكا» و«الدبلوماسية والشعر» وغيرها.

يقوم جوهر وظيفة الدبلوماسي على إرساء العلاقات والصلات مع البلدان الأخرى، وكذا مع الثقافات والحضارات ودراسة حياة الشعوب الأخرى وهو ما يشجع على إطلاق العنان للإبداع الفني. كما يشجع على اتجاه الدبلوماسيين للشعر تحقيق هدف جذب انتباه الشركاء الأجانب إلى منجزات الثقافة الوطنية وإسهاماتها في التطور العالمي وزيادة الاهتمام بدراسة اللغة الروسية.

أشهر الشعراء الدبلوماسيين

من أمثلة الشعراء الدبلوماسيين الروس نذكر دينيس فونفيزين والذي شغل منصب سكرتير وزير الخارجية الروسي وفيودور تيوتشيف وعمل سكرتيرًا للبعثة الروسية في ميونيخ. وقد عمل الكاتب والفيلسوف الروسي قسطنطين ليونتوف بقنصليات روسيا في البلقان، كما أن قسطنطين باتيوشكوف عمل دبلوماسيا في إيطاليا وتولستوي في ألمانيا، والقائمة تطول.

ومن الدبلوماسيين الشعراء أيضًا نذكر أناتولي لوكيانوف رئيس المجلس الأعلى للاتحاد السوفيتي وأول رئيس للبرلمان السوفيتي ومن قام على إعادة إصلاح الحزب الشيوعي السوفيتي. وكان يكتب الشعر طوال حياته باسم مستعار هو أناتولى أوسينوف.

ونذكر أيضًا ألكسندر بيسميرتنيخ الذي عمل وزيرًا للخارجية في بداية التسعينيات وقبلها عمل سفيرًا للاتحاد السوفيتي في الولايات المتحدة الأمريكية. كما كان وزير الخارجية الأسبق يفجيني بريماكوف أيضًا يكتب الشعر.

ولعل ألكسندر جريبويدوف من أشهر الشعراء الذين عملوا بالدبلوماسية الروسية. ولد في عام ١٧٩٥م بمدينة موسكو وهو دبلوماسي وشاعر وكاتب مسرحي وعازف بيانو. ومن أروع أعماله مسرحية «ذو العقل يشقى». وقد وصفه الشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين بأنه واحد من أهم عقول روسيا. فقد أتقن جريبويدوف ٣ لغات أجنبية وهو ما زال في السادسة من العمر ضاعفها إلى ٦ لغات فيما بعد. وقد عمل الشاعر سفيرًا لروسيا في طهران وتعرض للقتل من قبل متظاهرين إيرانيين هاجموا السفارة وقتلوا من فيها حتى إنه لم يتم التعرف على جثته إلا من خلال جرح قديم في يده. وتوفي الشاعر عن عمر يناهز ٣٤ عامًا فقط.

ولا يمكننا تصور موسكو التاريخية في القرن التاسع عشر دون المبنى القابع على بوابات بوكروف والذي كان يضم الأرشيف الرئيس في موسكو التابع للخارجية الروسية. وقد عمل في هذا المبنى في أوقات مختلفة كل من ك. باتيوشكوف ود.فينفيتينيف ون. أوجاريوف وأ. تولستوي. وقد عمل في أرشيفات الوزارة أيضًا كل من ن. كارامزين وس. سولوفييف وف. كليوتشيفسكي والتي تعد أعمالهم من كنوز الأدب الروسي.

ومن المعاصرين نذكر أوليج بوريسوفيتش أوزيروف سفير روسيا في السعودية وهو شاعر معروف في روسيا ولد في عام ١٩٥٨ م. وهو دبلوماسي روسي عمل بالعديد من الدول العربية منها سوريا وتونس. ومنذ عام ٢٠١٠م يشغل منصب سفير روسيا بالمملكة العربية السعودية ومندوب روسيا الدائم في منظمة التعاون الإسلامي.

ويعتبر أوليج أوزيروف من المستشرقين الروس المعاصرين ويعد نموذجًا للدبلوماسي المستعرب الذي يكن احترامًا كبيرًا للتراث والحضارة والثقافة العربية والإسلامية. ومن أهم مؤلفاته الشعرية مجموعة «عيد تاتيانا» الشعرية التي صدرت في عام ٢٠٠٢م.

وتضم القائمة أيضًا سيرجي لافروف وزير الخارجية الحالي. وقد نشر الأخير مجموعة من أشعاره مؤخرًا. وضمت ثلاث قصائد بصحيفة «روسكي بيونير». وقد تولى لافروف منصب وزير الخارجية الروسي منذ عام ٢٠٠٤م.

ولعل من المهم أن نذكر أن الشاعر العظيم ألكسندر بوشكين قد عمل بوزارة الخارجية الروسية لفترة بلغت ١٤ عامًا. ويعود السبب إلى تجاهل هذه الفترة من حياته إلى أن مؤرخي تلك الفترة ومن عمل في كتابة سيرة حياة بوشكين لم يكن يسمح لهم بالتعرف على وثائق وزارة الخارجية الروسية لطابعها السري. وبعد أن تم الاطلاع على أرشيف بوشكين بالخارجية الروسية تبين أنه وقع على قرار تعيينه بها في عام ١٨١٧م وبعد انتهاء دراسته مباشرة. ثم هناك وثيقة أخرى بتاريخ ١٨٣٢م وقع عليها بوشكين بقبول تعيينه مستشارًا بالخارجية.

وهكذا ترسخ عبر عقود طويلة هذا التقليد المميز للدبلوماسية الروسية والمتمثل في اهتمام الكثير منهم بالأدب عامة والشعر خاصة. ويمكن القول إن الدبلوماسية الروسية كانت دائمًا مرتبطة بالثقافة الوطنية والشعر تغترف منه الطاقة الروحية، وبدورها تثري الحياة الأدبية والثقافية بأفكار جديدة وأفق دولي رحيب.

3

الأدب النسائي الروسي

يختلف النقاد والأدباء في تعريف «الأدب النسائي» حيث يرى البعض أنه الأدب الذي يطرح قضية المرأة وحقوقها حتى ولو لم تكن المؤلفة أنثى. وهناك فريق آخر من النقاد يرى أنه ذلك النوع من الأدب الذي تتميز الكتابة فيه عن كتابة الرجل.

وهناك فريق ثالث يرى أنه الأدب المرتبط بحركة المرأة وحريتها وصراعها نحو تحقيق المساواة مع الرجل. وهناك تسميات أخرى للأدب النسوي في الغرب حينما يطلقون عليه أدب «الملائكة والسكاكين» فيما أطلق الأديب الكبير أنيس منصور على هذا النوع من الأدب اسم «أدب الأظافر الطويلة» وأطلق عليه الأديب إحسان عبد القدوس اسم «أدب الروج والمانيكير». وهناك من يفضل مصطلح «الأدب الأنثوي» ويعرفه بما تكتبه المرأة من أدب في مقابل ما يكتبه الرجل.

أما عن الأدب الروسي فيعود هذا المصطلح إلى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات. فقد شهدت تلك الفترة ظهور موجة جديدة في الأدب، حيث تنوعت الاتجاهات إلا أن ما كان يوحد الأدباء هو السعي للبحث عن أشكال فنية جديدة. ومن بينها ما اصطلح على تسميته بالأدب النسائي. وهناك جدل كبير حول أحقية هذا المصطلح في البقاء. فهناك من يعارض مفهوم «الأدب النسائي» ويدلل بحقيقة أن الأدب لا يمكن أن ينقسم إلى نسائي ورجالي بل يجب تقسيمه إلى أدب جيد وآخر رديء. فيما يرى آخرون في روسيا أن سعي المرأة إلى التعبير عن نفسها يختلف عن الرجل. حيث تقول الكاتبة الكبيرة لودميلا أوليتسكايا «إن الفن ينقسم إلى رجالي ونسائي. وهذا التقسيم ليس مطلقًا غير أن علماء الأنثروبولوجيا يعرفون جيدًا أن هناك شعوبًا تحمل فيها المرأة لواء الحفاظ على الفلكلور الشفهي المنقول. وأن عالم النساء وعالم الرجال مختلفان. وفي عالم المرأة تغلب أكثر القضايا التي ترتبط بالحب والعائلة والأطفال».

وقد شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي ازدهار الأدب النسائي في روسيا حيث تضاعف عدد الكاتبات مقارنة بالعقود السابقة. ويرجع ذلك إلى العديد من الأسباب لعل أهمها النهضة الثقافية التي شهدتها النخبة المثقفة في روسيا والتي تمثل المرأة جزءًا أصيلاً منها.

وتجدر الإشارة إلى أن الكاتبات الروسيات ظهرن في روسيا منذ القرون الوسطى وتحديدًا في القرن الثالث عشر الميلادي. غير أن أعدادهن كانت دائمًا قليلة مقارنة بالكتَّاب الرجال. وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي صدور مجلات مخصصة للأديبات من النساء وكانت الموضوعات تتركز حول تصوير دور المرأة الروسية في التنوير والأدب وتدعو المرأة إلى احتلال المكانة التي تليق بها في ساحة الأدب.

وفي محاولة منهم لفهم وتحليل ظاهرة الأدب الأنثوي في التسعينيات وبداية القرن الجديد استخدم النقاد مصطلح Gender أو نوع الجنس. وتعود تسمية هذا النوع من الأدب في روسيا إلى عدة عوامل. أولًا أن يكون المؤلف امرأة وأن البطل الرئيس امرأة أو أن قضية العمل الأدب ترتبط بشكل أو بآخر مع مصير المرأة. كما أن النظر إلى الواقع المحيط من وجهة النظر الأنثوية ومع الأخذ في الاعتبار بفسيولوجية المرأة من الأمور المهمة أيضًا. وقد نال هذا النوع من الأدب اعترافًا رسميًّا في روسيا في نهاية القرن العشرين ويمثل حاليًّا فينومين راسخًا في الأدب الروسي. ويتناول النقاد بالتحليل أعمال الكاتبات الروسيات بالتحليل، حيث تنشر بحوث متخصصة لتحليل مختلف جوانب النثر الأنثوي، وتجرى مناقشات وتنظم المؤتمرات العلمية حول هذا الموضوع. كما يقوم علماء اللغة والتاريخ وعلم الاجتماع بدراسة هذه الظاهرة. ومن الموضوعات التي تحتل أهمية خاصة حاليًّا العناصر الجمالية الأنثوية الخاصة واللغة الأنثوية والقدرة الأنثوية في الكتابة. ومن أهم النتائج التي تم التوصل إليها من جانب الباحثين حقيقة أن النثر النسائي يشهد العمليات نفسها التي تحدث في باقي صنوف الأدب ومحاولات البحث عن علاقات جديدة في الفن وأساليب جديدة لترسيخها. وتعتقد الكاتبة والناقدة أ. سلافنيكوفا أن المرأة كان لها قصب السبق دائمًا في كشف المضامين الجديدة. ويؤكد ازدهار النثر الأنثوي اليوم في روسيا على حقيقة أن الأدب كان وسيظل دائمًا ذا أهمية كبيرة. إن ظهور الأدب النسائي في روسيا يدحض حقيقة انتهاء عصر الأدب فالمرأة لا تلجأ أبدًا إلى مكان مهجور. وفي الحالات التي يتوجب فيها على الرجل الموت نجد المرأة مضطرة إلى النجاة والبقاء.

ومن القضايا المهمة التي يتناولها الباحثون الروس حاليًّا هي ما يعرف «بالأخلاق الأنثوية». ويعتقد البعض أن الجانب الأخلاقي له علاقة مباشرة بالأدب أيضًا حيث إن كل فني وجمالي ما هو إلا تجسيد شكلي للعلاقات والصلات التي يحددها الإطار الأخلاقي.

أشهر رواد الأدب النسائي

بنظرة سريعة إلى الأدب الروسي المعاصر نجد العديد من المواهب النسائية تسيطر على المشهد ومنهم تاتيانا تولستايا ولودميلا أوليتسكايا وفيكتوريا توكاريوفا ولودميلا بيتروشيفسكايا وف. ناربيكوفا وس. فاسيلينكا وم. بالي وم. فيشنيفيتسكايا ون. جورلانوفا غيرهن. ولعل الدليل على ترسخ ظاهرة الأدب النسائي في روسيا المعاصرة هو احتواء القواميس والموسوعات الأدبية والمعاجم على مواد عن الكاتبات الروسيات وتعريفات بالمصطلح. كما تحتوى الكتب الدراسية على فصول مخصصة لهذا الموضوع ومنها على سبيل المثال كتاب «تاريخ الأدب في القرن العشرين» لمؤلفه ك. جوردوفيتش ويتم تدريسه في الكليات الإنسانية، ويحتوى على فصل كامل يحمل عنوان «الأدب النسائي» يصنف فيه هذا النوع من الأدب ويحلل بعض المؤلفات لكاتبات نساء. وهناك كتب أخرى كثيرة تتناول نفس الظاهرة. وربما يمكن القول وهذا الأمر جعل من الضروري التفكير في ماهية مصطلح «الأدب الأنثوي أو النسائي» وكيف ينصهر في بوتقة الأدب المعاصر ككل. ومن بين أشكال الأدب النسائي الروسي الرواية العاطفية الاجتماعية والنفسية ورواية السيرة الذاتية والقصة والمقال والقصة القصيرة. ومن أهم القضايا التي يتناولها الأدب النسائي الروسي ما يرتبط بالحلم والسعادة والحب والطفولة. وقد ظهر صنف جديد من الأبطال وواقع جديد وعالم فني فريد. وقد فرض الواقع الجديد ظهور مؤلفات تظهر فيها المرأة كبطل رئيس وعدم الاكتفاء بدور المعبر عن أفكار الكاتبة. واليوم يمكننا القول إن النثر النسائي الروسي برز كفينومين راسخ ومهم في الأدب المعاصر ويثير اهتمامًا واسعًا بين القراء والنقاد بفضل مميزاته الإبداعية الرفيعة. أما الموضوع الرئيس في الأدب النسائي فيضم قضايا الأسرة والتناقض بين حياة الطفولة والكبر وقضية «الجنة المفقودة» والبحث عن معنى الحياة والعلاقة بين الفرد والمجتمع والإنسان البسيط.

ففي رواية «ميديا وأطفالها» تتناول لودميلا أوليتسكايا موضوع الكون النسائي عبر العصور التاريخية المتتابعة. وقد اختارت الكاتبة امرأة بطلة للرواية بل وجعلت من اسمها عنوانًا للكتاب. ويـعـكـس عـنـوان الـروايـة مـضـمـون الأحداث.

فيما تهتم الكاتبة لودميلا بيتروشيفسكايا بتتبع التحول الذي يطرأ على الشخصية الروسية بفعل البيئة المحيطة وتحاول أن تكشف عن العالم الداخلي للإنسان المعاصر وتكشفه للقارئ في ظروف ومواقف حياتية مختلفة حيث تتباين تصرفاته بين العادي والغريب. هذه السمة لأدب بيتروشيفسكايا تبدو واضحة في قصتها «جروزنايا الصغيرة» والتي تتناول فيها

أيضًا موضوع الأسرة. وعادة ما تعيش شخصيات بيتروشيفسكايا حياة صعبة تعيسة ويعانون من مشاعر الحزن والكبت. ويمكن أن نصف عالم الكاتبة الأدبي بأنه عالم مؤلم يخلو من الأحاسيس الجميلة والطيبة.

أما تاتيانا تولستايا فتتسم أعمالها الأدبية بتناول قضايا الكون وموضوع الخير والشر والحياة والموت واختيار الطريق والعلاقات مع المحيطين والبحث عن الذات وفهم النفس والهدف في الحياة. وهناك دائمًا في أعمالها حنين إلى القيم الإنسانية المفقودة في الفن.

كما نجحت الكاتبة فيكتوريا توكاريوفا في تقديم وصف دقيق لنفسية المرأة وعالمها الداخلي وتواتر أفكارها ومنطقها في الحكم. وتولى الكاتبة اهتمامها بمفاهيم الأسرة والمنزل والإخلاص والزوج والزوجة والحبيبة والخيانة والتضحية من أجل الحب. حتى إنه عندما تتناول الدولة وتصفها فإنها لا تصفها من وجهة النظر السياسية والعلاقة مع العالم الخارجي بل من حيث الحياة في المدرسة وفي الشارع والتاكسي إلخ.

وتعد يلينا تشيجوفا كذلك من أهم الكاتبات الروسيات المعاصرات. وهي ناثرة ومترجمة وكاتبة مقالات وحاصلة على الدكتوراه في الاقتصاد. كما عملت رئيسًا لتحرير مجلة «الكلمة العالمية.»

وتعود أولى كتاباتها الاحترافية إلى عشر سنين مضت أما بداياتها فكانت في فترة انهيار الاتحاد السوفيتي. ومن أقوالها عن نفسها: «لقد درست بالجامعة وعملت في التجارة أما سنواتي الأخيرة فأكرسها للكتابة».

ويسيطر موضوع الحياة في بطرسبرج على كتاباتها حيث تحدد سمات شخصيات أبطالها وعالمهم النفسي. ومعظم أبطال تشيجوفا من النساء حيث تتناول مصائرهن وطباعهن ودورهن في المجتمع وعالمهن الداخلي.

رواية زمن النساء - يلينا تشيجوفا

تدور القصة حول الفتاة أنطونينا التي لم تستطع التأقلم على العيش في مدينة كبيرة وهي التي نشأت في قرية. استطاع أحد الرجال بسهولة أن يغرر بها فأنجبت منه طفلة عاشت سنوات لا تقوى على النطق. ولكن أنطونينا سرعان ما تمرض وكان عليها أثناء مرضها واحتضارها أن تترك ابنتها الصغيرة إلى جاراتها العجائز الثلاث جليكيريا وأريادنا ويفدوكيا، وترجوهن أن يتعهدنها

برعايتهن. واستطعن بالفعل أن يقمن بالمهمة وشبت الفتاة رسامة موهوبة ومشهورة. حتى إن الجزء الأخير من الرواية عبارة عن حديث البطلة الصغيرة عن نفسها.

تتناول الرواية أيضًا حياة ومصير العجائز الثلاثة. ومن خلال حياة البطلات تلقي الكاتبة الضوء على الواقع الروسي في القرن الماضي. ومن الملفت براعة تشيجوفا في تصوير حياتهن في الشقة المشتركة وأيضًا في التعبير عن عوالمهن الداخلية ومعاناتهن.

والمثير للأهمية هو أن تكون العجائز بطلات للرواية. نرى كيف يعشن بمفردهن ويعانين من فقدان الأولاد أو الأزواج، كيف عشن سنوات صعبة أثناء حصار مدينة ليننجراد خلال الحرب العالمية الثانية وكابدن فقدان كل الأحبة؛ ولذا فقد أولوا كل عنايتهن إلى الصغيرة صوفيوشكا.

ويأتي السرد على شكل قصص وحكايات تحكى على ألسنة كل بطلات الرواية الخمسة صوفيوشكا أو سوزانوتشكا الطفلة وأمها البطلة الرئيسية أنطونينا والجدات يفدوكيا وجليكيريا وأريادنا. بالإضافة إلى ذلك نجد بعضهن يلخص جزءًا من الأحداث من وجهة نظره الخاصة. وتمثل الديالوجات والمونولوجات مساحة كبيرة في الرواية. وربما كان ذلك من الأسباب الرئيسية لنجاح تناول الرواية في عروض مسرحية مختلفة. ورغم أن معظم الحوارات تبدو حول الحياة العادية في ليننجراد داخل الشقق الحكومية المشتركة في الخمسينيات والستينيات، إلا أنها في الوقت نفسه تعبر عن الكثير من الأفكار والقضايا خلف السطور. جمعت هذه الشقة المشتركة بين جدرانها مجموعة من النسوة، لكل شخصيتها وتجربتها ومستواها الثقافي والاجتماعي. ثلاثة نسوة عجائز. كل منهن مختلفة وساحرة. كل منهن لديها ماضيها الخاص وطابعها الخاص، لكنهن يتشابهن فيما بينهن في هشاشتهن وعند الضرورة... في جلدهن وصبرهن.

وقد جعلت الكاتبة من أنطونينا القاص الرئيس في الرواية حيث تجسد حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل كما أنها في نظر الكاتبة تمثل الأم – مركز العالم.

تطرح أنطونينا في الرواية أفكارًا وقضايا مختلفة وتعكس كلماتها وعباراتها المشاكل الحياتية والاجتماعية والسياسية المعاصرة. وخلافا لها يدور حديث العجائز الثلاثة في أغلبه عن الماضي، حتى المفردات التي يستخدمنها هي مفردات من الماضي. كل ما يربطهن بالحاضر هو تربية الطفلة الصغيرة لا غير. لكل منهن رؤيتها الخاصة في تنشئة الصغيرة وكل منهن تحاول أن تنقل

إليها خبرتها الحياتية وتحكي لها أخبار عن العالم وتعلمها كيف تعيش. كل ما تعرفه الصغيرة عن العالم استقته مما سمعته من حوارات جداتها وحكاياتهن.

سوزانا أو صوفيوشكا بكماء منذ مولدها؛ ولذا فإن شخصيتها تتكشف لنا فقط كم خلال حوارها الداخلي مع نفسها وما وراءه من معاني وأفكار. ترى سوزانا أن العالم الأكثر واقعية منها وقربًا هو عالم الموتى؛ ولذا فهي تنقل إليه نماذج وأشخاص من عالمها المحيط والذي يبدو بالنسبة لها خياليًّا وغير واقعي؛ ولذا نجدها دائمًا مشغولة بالعالم الآخر.

استطاعت يلينا تشيجوفا في روايتها تصوير ثلاثة أجيال من النساء تجسد من خلالهن ماضي وحاضر ومستقبل روسيا وهي بذلك تسير على درب كبار أدباء روسيا، ولعلنا هنا نتذكر مسرحية الكاتب الروسي الكبير أنطون تشيخوف «بستان الكرز». استطاعت تشيجوفا ببراعة أن تفصل نفسها زمنيًّا عن بطلاتها ومن خلال خلقها لصدامات وخلافات بين وجهات النظر والرؤى المختلفة، طرحت بشكل رائع ذاك التباين الواضح والخلاف الدائم بين الأجيال. ولعل مشهد اختيار اسم الفتاة خير تعبير عن ذلك.

«أعتقد أيضًا أن الاسم له دور كبير في الأمر. فمثلًا لو اخترت لها اسم تونكا نعم تونكا. كنت قد قررت أن اسمي ابني على اسم جده. فالرجال يحبون ذلك. أما لو كانت بنت فسأمنحها اسمًا جميلًا ربما تنعم بحياة أفضل من حياتي.

القانون يسمح لي أن أختار أي اسم أب للفتاة. وقد نصحتني زويا إيفانوفنا أن أمنح البنت لقب جدها لأمها. لكنى لا أعرف. لا أعتقد أن ذلك أمر جيد. أشعر أنه غير إنساني. فليبق كل شيء على طبيعته. هذا ما فعلته.

تجلس العجائز الثلاث ويناقشن الأمر من وجهة نظرهن وعلى طريقتهن. «من شب على شيء شاب عليه. ويخلق فاسدًا من ظهر العالم.»

سألتهن: «إذن لا معنى لأي جهد تبذلينه في تنشئة طفلك ما دام العرق دساس والطبع غلاب». أومأن برؤوسهن موافقات. «نعم لا فائدة.»

لكل من بطلات الرواية حقيقتها الخاصة التي تعبر عنها بلغة ومفردات خاصة بها. فحديث أنطونينا بسيط كحديث كل امرأة غير متعلمة؛ ولذا نجدها تستخدم الكثير من المفردات الشعبية وأحيانًا حتى تخطئ في الهجاء.

ولا يختلف حديث الجدات جليكيريا ويفدوكيا كثيرًا عنها وذلك بسبب افتقادهما للثقافة والمعرفة والعلم، أما الجدة أريادنا فحديثها أكثر دقة وثراء وذلك لأنها تعود بأصولها إلى عائلة أرستقراطية وتلقت تعليمًا جيدًا.

وفيما يتعلق بزمن ومكان الرواية فأحداثها تدور في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي في مدينة لينتجراد (سان بطرسبورج حاليا). ورغم ذلك فإن القضايا التي تطرح في الرواية على لسان بطلاتها تتسم بكونها قضايا أبدية لا ترتبط بزمن معين بل تتكرر في كل زمان وعصر.

تبني تشيجوفا حكايتها من وجهة نظرها الخاصة. لا يوجد قاص في الرواية بل هناك حكاؤون لكل منهم رؤيته ووجهة نظره الخاصة على الأحداث ولكل منهم أيضًا سماته النفسية والكلامية الخاصة.

وتحاول تشيجوفا الاستفادة من وفرة وجهات النظر والرؤى تلك في سبيلها لخلق لوحة فريدة للعالم تكون في مركزه المرأة حامية التقاليد والذاكرة التاريخية وربة البيت وأولًا وأخيرًا الأم.

تشيجوفا في رواياتها «زمن النساء» لا تصف الزمن بل تحاول جاهدة إلى تكتشف وتستخرج ما في باطنه ومعناه. فكل معاني الحاضر تأتي من الماضي. هذا الأخير لا ينفك يؤثر على كل ما يعقبه من أزمنة وأجيال.

ربما لا يحتل المضمون الظاهري للعمل الأهمية الأولى بل أن أكثر ما يأسر القارئ هو هذه الهالة الروحانية التي تحيط بالبطلات وهي الهالة التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات وتشعر بها في كل سطر وكل صفحة من صفحات الرواية. نستشعرها في الخيوط وحبال الذكريات الخاصة عند البطلات وفي معاناتهم الخاصة وقضائهن أيامهن يومًا بعد يوم. كل هذا يدفعنا إلى النظر إلى الماضي والتمعن فيه والشوق إليه عند قراءتنا للرواية.

ربما هذا في نظري السبب الرئيس في فوز هذه الرواية بجائزة البوكر.

تقول الكاتبة في إحدى لقاءاتها الصحفية إن من بين الأفكار التي دفعتها لكتابة الرواية سعيها إلى معرفة السبب في غياب الذاكرة التاريخية عند الروس. ففي اعتقادها يتوجب على كل جيل أن ينقل تجربته إلى الجيل التالي. ولكن هذا لا يحدث للأسف. فكل جيل يبحث عن لعبته الخاصة أو نظريته الخاصة الجديدة وغالبًا ما تكون مقتبسة من الغرب وينكر ما سبقها ويعتبره هراء لا معنى له. وقد كانت هذه الظاهرة ماثلة بقوة في القرن العشرين. تعمقت هذه الظاهرة في القرن الماضي وكان من أسباب ذلك مصرع أعداد ضخمة من الرجال أثناء الحروب أو في معسكرات الاعتقال. وأدى ذلك إلى أن أصبحت المرأة هي التي تحمل عبء الحفاظ على الذاكرة التاريخية لأنه حتى من بقي على قيد الحياة من الرجال كان يسعي إلى إثبات ذاته بمعنى أنه كان مضطرًّا إلى أن يكون جزءًا من العقل الاجتماعي الراهن.

وقد جلبت الرواية للكاتبة شهرة واسعة واعترافًا بموهبتها من قبل النقاد والقراء. كاتبة في روايتها نماذج مختلفة للمرأة الروسية.

ورغم أن أحداث الرواية تقع في منتصف القرن الماضي إلا أنها تنطبق على عالمنا اليوم فمن خلال تصوير حياة هذه النسوة تحاول الكاتبة أن تؤكد فكرة ضرورة أن يعيش الإنسان حياته بشرف واستحقاق.

بعد انتهائي من ترجمة الرواية تفهمت الاختلاف الذي حدث بين النقاد الروس في بيان أهميتها. فمن ناحية يمكن ان تصيب قراءتها القارئ بالإجهاد والمعاناة النفسية من جراء تعاطفه مع بطلاتها ومن ناحية أخرى تجعلك الرواية تشعر بسعادة غامرة وأنت تبحر في عالم من النثر المرئي الغني بالاستعارات والصور البلاغية واللغة غير العادية. في عام ٢٠١١م شهدت الرواية انتشارًا أوسع بعد أن تم تحويلها إلى عرض مسرحي وجابت المسرحية التي تحمل الاسم نفسه ربوع روسيا.

وأختتم الحديث عن هذا التيار بقول أن روح الإنسان الفرد البسيط تمثل للأدب النسائي اللغز الأصعب والأعقد. إلا أن هذا الأدب قد تمكن من حل العديد من القضايا ومنها العلاقة بين الإنسان والعالم المحيط وآليات تدميره أو بالعكس المحافظة على الأسس الأخلاقية.

إن النثر النسائي الروسي يمثل مزيجًا بديعًا من سمات الواقعية والحداثة وما بعد الحداثة. ويعكس السمات الأساسية للفن الحديث ويمثل نتاجًا لإنجازات الأدب الروسي على مدى قرن كامل ويمكن التنبؤ بآفاق ومستقبل هذا الأدب من خلال ما نلحظ من تجارب فنية وأساليب جديدة في السرد. كما يعكس النثر النسائي الروسي البحث الدءوب والمؤلم أحيانًا عن المثل والقدوة حيث يمثل ذلك المعنى الأساسي لإبداع أي كاتب صادق. وأي سبل للكشف عن طوبولوغيا الإبداع النسائي يمكن أن يساعد في فهم وتحليل طبيعته، وهو ما يعد هدفًا يسعى للنقاد والباحثين في الأدب. كما أن دراسة خصوصية الأدب النسائي ستساعد على ترسيخ مكانته مستقبلًا وتطوره ضمن العملية الأدبية بشكل عام.

وربما يمكننا القول إنه وعلى الرغم من أن ظاهرة «الأدب النسائي» الروسي لم ترسخ تمامًا في روسيا إلا أن هناك تسارعًا كبيرًا في تطورها واستيعابها من قبل المجتمع الروسي.

4
أدب الرَّحلات في روسيا

يُعتبر أدبُ الرَّحلات، من أفضل وأحبّ أنواع الأدب إلى القارئ؛ وذلك لما فيه من متعة وروح المغامرة، وتنطبق هذه المقولة على الأدب الروسي، حيث يصعب أن تجد روسيًّا لم يطالع كتاب الأديب والرحالة الروسي أفاناسي نيكيتين «رحلة الي ما وراء البحار الثلاثة» أو كتاب ألكسندر راديشيف «الرِّحلة من بطرسبورج إلى موسكو» أو رائعة شاعر روسيا العظيم ألكسندر بوشكين «الرِّحلة إلى أرض الروم».

ويصعب أن نجد رواية أو عملًا كلاسيكيًّا في الأدب الروسي غير مرتبط بالسَّفر أو الطريق. كما أن أشهر أبطال الأعمال الروسية مسافرون، ونذكر منهم على سبيل المثال: تشيتشيخوف، بطل رائعة نيقولاي جوجول «الأنفس الميتة»، وبيتشورين في «بطل من هذا الزمان» و«الأميرة ليجوفسكايا» للشاعر ميخائيل ليرمونتوف.

بداية ظهور أدب الرحلات

يرتبط ظهور أدب الرَّحلات في روسيا بدخول الديانة المسيحية، حيث نشطت الرَّحلات والأسفار من روسيا القديمة إلى مدينة القسطنطينية وإلى الشرق المسيحي، وخاصة إلى مدينة القدس. وكان رجال الدين المسافرون، يقومون بتسجيل ملاحظاتهم، ومعلومات عن الرِّحلة والبلدان التي يمرون بها؛ فيما سُمِّي بـ:«كتب الأسفار». وقد بلغ عددها سبعين كتابًا، تمثل أدلة لأهمِّ نقاط توقف الحاج المسافر من روسيا القديمة إلى الأراضي المقدسة.

ومن أشهر هذه الكتب: «رحلة القمص دانيال» وكتاب: «رحلة الي ما وراء البحار الثلاثة» للكاتب أفاناسي نيكيتين، وقد صدر الكتابان في القرن الخامس عشر، وفي الكتاب الأخير يقوم البطل بوصف رحلته، وكيف يعيش الناس في بلاد الهند البعيدة عن روسيا.

ولاحقًا تطور شكل أدب الرَّحلات ليصبح على شكل: «مذكرات سفر»، وكان هذا الشكل هو الأكثر شيوعًا بين كتب الرَّحلات في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وانتشرت في تلك الفترة أشكال أخرى من أدب الرَّحلات أهمها: «اليوميات» و«المذكرات».

ومن أشهر الكتب التي صدرت في القرن الثامن عشر «رسائل رحَّالة روسي» للأديب نيقولاي كارامزين؛ حيث قام المؤلِّف برحلة طويلة عبر روسيا وأوروبا، ووصف في خطاباته كل الانطباعات والمشاعر التي خالجته أثناء الرِّحلة. وفي رسالته الأولى التي بعث بها من مدينة تفير الروسية، يحكي عن أن أكثر ما يؤثر فيه عند سفره هو اضطراره لفراق أصدقائه ومدينته موسكو، التي بكى كثيرًا وهو يشاهدها تبتعد أثناء مغادرته في السفينة. وسافر الكاتب إلى مدينة كونيغسبرغ للقاء الفيلسوف الفرنسي (كَانْت). كما سافر إلى برلين، وبمجرد وصوله اتجه إلى المكتبة الملكية، وحديقة الحيوان، ووصف هذه الأماكن بالتفصيل في كتابه. ولم يكتفِ بسرد انطباعاته؛ بل وضمَّن كتابه معلوماتٍ عن سير حياة الفنانين في أوروبا، كما واصل رحلته إلى ليبيتسج، وزار العديد من المدن السويسرية والفرنسية، ووصف الأحداث التي شهدتها فرنسا حينها.

ومن أهمم كتب الرَّحلات في القرن الثامن عشر كتاب: «الرِّحلة من بطرسبورج إلى موسكو» لراديشيف. ورغم احترام الكاتب لتقاليد أدب الرحلة الروسي، الا إنه قام بتضمين كتابه بمضامين سياسية يومية؛ فضلًا عن ملاحظاته وانطباعات السَّفر المعتادة، وتحرر الكاتب من أنانية الأديب الرحَّالة، الذي يكتفي بالحديث عن انطباعاته الشخصية، وأفكاره الخاصة؛ حيث نلحظ في الكتاب أن البطل مواطن مناضل، يبحث ويسعى لازدهار وطنه روسيا.

طبيعة الأدب ومحور رسالته

كانت معظم كتابات أدب الرَّحلات في القرن الثامن عشر وما قبله، تتمحور حول شخصية البطل المسافر، الذي يتناول الأحداث التي تقع أثناء سفره، ويصف انطباعاته الشخصية، والتحول الذي طرأ على تفكيره، بعدما تعرَّف على بلادٍ جديدة ومعلومات جديدة. كما كان تطور أدب الرَّحلات في القرن الثامن عشر بفضل كُتب الأسفار وما طرأ عليها من تطور وتحولها إلى مذكرات رحلة، ولا يخلو الأمر من تأثر بالأدب الأوروبي، وتقاليد أدب الرَّحلات فيه.

ويمكن بثقة القول إن أدب الرحلات قد تشكّل كجنس أدبي في القرن الثامن عشر، مستفيدًا من تطور جنس: «كتابات الحج» إلى الأراضي المقدسة، ورحلات القديسين، كما تأثر بنماذج كتابات الرَّحلات في أوروبا.

ويمكن تحديد مرحلتين لتطور أدب الرَّحلات خلال القرن التاسع عشر. ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر شاعت الأعمال التي تصف رحلات السَّفر، سواء عن طريق الكتابات الصحفية أو الأدبية، وكانت تلك هي فترة توسع وانتشار اللغة والأدب الروسي عالميًّا. ومع توسع الإمبراطورية الروسية ظهرت الكثير من الأعمال الأدبية التي تصف الأراضي الجديدة التي ضُمَّت للإمبراطورية. ونذكر هنا كتاب بوشكين «رحلة إلى أرض الروم»، ومن بعده أعمال جوجول، وتورجينيف، وجونشاروف.

أما المرحلة الثانية، فتمتد من الفترة بين عامَي ١٨٤٠ إلى ١٩١٠. وفي تلك الفترة بدأ الأدب الروسي يتشبع ويستفيد من سمات وثراء الرَّحلات؛ حيث شاعت الكتابات التي تتناول عادات، وتقاليد الشعوب، والقوميات الروسية. وفي بداية القرن العشرين شاع اسم فاسيلي روزانوف، الذي كتب عن «النيل الروسي»، وعن رحلاته إلى إيطاليا وألمانيا والقوقاز.

تطور أدب الرَّحلات في القرن التاسع عشر، وظهرت أشكال جديدة منه، نذكر منها: المذكرات واليوميات، ذات الطابع الأدبي أو الأدبي الاجتماعي.

ويمكن من خلال قراءة أدب الرَّحلات الروسي، أن نتتبع كيف تطورت شخصية البطل، وكيف يتصرف في مختلف المواقف على امتداد رحلته. وتمثل الرِّحلة في الأدب الروسي فكرة البحث الروحي؛ حيث يتحول موتيف السَّفر إلى أحد وسائل اكتشاف شخصية البطل.

وفي الأدب الروسي، يسعى الكتَّاب إلى تقديم أنفسهم كأدباء، لديهم القدرة على سرد الأحداث والوقائع بشكل مشوق؛ خاصة أن كتابات الرَّحلات يقوم بها إما كتَّاب الصف الثاني أو أن تكون باكورة أعمال مشاهير الكتَّاب.

ولعل من أهم الخصائص المميِّزة لأدب الرحلات الروسي، هو حرية الجنس الأدبي، حيث لا توجد قواعد صارمة تقيد حرية المؤلِّف في الكتابة؛ ولذا فإن دوْر البطل المؤلِّف يصبح أكثر تأثيرًا وانخراطًا في الأحداث، حيث نجده يشارك فيما يحدث، ويراقب، ويحمل وجهة نظر وعقيدة معينة، ويدافع عنها. كما نلحظ وفرة المواد الوثائقية في كتابات أدب الرَّحلات حيث يسعى الكاتب إلى إقناع القارئ بصحة وصدق ما يكتب وهنا تتعاظم أهمية دور الوثيقة والحقيقة.

5
أدباء روس أحرقوا كتبهم

ما السر الذي يدفع الأديب والمبدع أن يقْدِمَ على حرق مخطوطته الخاصة؟! ربما يرجع السبب إلى كونه أكثر الناس وعيًا وإدراكًا لمعنى الحياة. والأدب العربي يحفل بالكثير من الأمثلة التي أقْدَمَ فيها أدباء على تدمير كتبهم تحت وقع إصابتهم باليأس من الحياة. ولعل أشهر هؤلاء الأديب «أبو حيان التوحيدي» الذي أقدم على حرق كتبه ليأسه من الناس، ولم يشأ أن يترك لهم كتبه وهو الذي لم يجد منهم خيرًا طوال ٢٠ عامًا.

وسبقه إلى ذلك الأديب والشاعر «أبو سفيان الثوري» الذي مزق معظم كتبه، وألقى بها في الهواء، وكذلك فعل «داود الطائي» الذي طرح كتبه في البحر.

«المخطوطات لا تحترق» مقولة شهيرة للكاتب الروسي الكبير «ميخائيل بولجاكوف» وردت في رائعته «المعلم ومرجريتا» التي تعتبر أروع ما كتب في الأدب الروسي في القرن العشرين. وعلى الرغم من إصرار «بولجاكوف» وقناعته التامة بهذه المقولة إلا أن العديد من أساتذته في الأدب الروسي يعتقدون عكس ذلك.

وقد تناول العديد من النقاد الروس هذه الظاهرة بالرصد والتحليل، وفيما يلي عرض لأهم الأسماء التي أجمعوا على أنهم قاموا بحرق أو تمزيق أو دفن مخطوطاتهم، والأسباب التي دفعتهم إلى هذا الفعل.

يعتبر «نيقولاي جوجول» من أعظم كتاب النثر في روسيا، وهو لا يقل مكانه عن «بوشكين» في تاريخ الأدب الروسي. لم يكن «جوجول» أول من حرق كتبه، إلا أنه الأشهر على الإطلاق. كان ذلك في فبراير من عام ١٨٥٢، حيث كان يعاني من انهيار عصبي- حسبما اتفق الأطباء حينها - كما كان مصابًا بالرهاب والإحساس بقرب الموت، وكان وحيدًا وعانى من الاكتئاب الشديد. استدعى «جوجول» خادمه «ستيبان» وخطف الشمعة من يده، وألقى بمخطوطات الجزء الثاني من روايته «الأنفس الميتة» إلى نار المدفأة رغم سابق إعلانه أنها تعد أروع ما كَتَب. وبعد حرقه لكتابه لم يمر عامان إلا وكان قد تُوفي. وما لا يُعرف عن الكاتب أنه أقدم على إحراق كتبه في فترة مبكرة من حياته؛ حيث لم يكن راضيًا على الإطلاق عن كتابه الأول «هانز كيوخيلجارتين»

التي تعرض بسببه لانتقاد شديد من قبل النقاد. وكان «جوجول» مرهفًا ورومانسيًّا بدرجة كبيرة، فأخذ يجوب محال بيع الكتب، لدرجة أنه كان يشتري كل ما يجد من نسخٍ، ثم يقوم بإحراقها جميعًا، وكان مازال في الثامنة عشرة من عمره.

والمثير للاهتمام أن «جوجول» كان قد وضع خلاصه أفكاره الفلسفية والدينية في الجزء الثاني من روايته الشهيرة «الأنفس الميتة»، إلا أنه أقدم على حرق هذا الجزء في تصرف غريب وقُبيل موته بقليلٍ. كان «جوجول» حينها يعيش في موسكو في منزل على شارع «نيكيتا»، ويعتقد الباحثون أنه قام بذلك يوم ٢٤ فبراير ١٨٥٢. وفي اليوم التالي أدرك الكاتب حجم ما ارتكبه من خطأ، وحزن كثيرًا، واعترف لأصدقائه أنه مصدوم من فعلته تلك.

كان الحرق أيضًا هو مصير العديد من أعمال الشاعر الشهير «ألكسندر بوشكين»؛ حيث التهمت نار مدفأته الفصل العاشر من رواية «يفجيني أونيجين»، والجزء الثاني من «دوبروفسكي». وكان «بوشكين» ناقدًا قاسيًا لأعماله الخاصة. كذلك قام الشاعر بتدمير مسودات قصة «ابنه الآمر» وقصيدة «قطاع الطريق»، فيما استخدم ما تبقى منها سليمًا بعد الحرق في رائعته «نافورة باخش ساراي»، وكان كثيرًا ما يختار مقتطفات كاملة من الكتب ويمزقها لعدم رضاه عنها. ويقول الباحثون في إبداعات «بوشكين» أنه مزق الكثير من الأشعار التي كان من الممكن أن تثير غضب القيصر ضده، خاصة بعد اللقاء الذي تم بينهما بالبلاط.

كما ندم الكاتب الكبير «ليف تولستوي» على كتابة رائعته «الحرب والسلام» و»آنا كارينينيا»، وود لو لم تخرجا للنور. وكان ذلك بسبب انغماس الكاتب في أفكار فلسفية دينية. وقد أكد ذلك الباحث المتخصص في إبداعات تولستوي «بافل بيلينسكي» الذي كتب أن تولستوي تبرأ من كثير من أعماله في سنواته الأخيرة. وأن هذا الشعور قد بدأ يسيطر عليه وهو بعد في الخمسين من عمره، وكان لا زال في أوج قوته النفسية والبدنية.

ومن مشاهير الأدب الروسي الذين أقدموا على حرق كتبهم الأديب الشهير «فلاديمير نابوكوف»؛ فقد قام «نابوكوف» بحرق روايته «لاورا وأصلها». وكان السبب بكل بساطه أنه لم يستطع إنهاء العمل. كما حاول إحراق روايته الشهيرة «لوليتا» لولا تدخل زوجته التي أنقذت المخطوطة من لهيب نيران المدفأة. اتسم «نابوكوف» بالحساسية الشديدة، ولذا لم يكن ليقبل أن تنشر روايته «لاورا» غير مكتملة من وجهة نظره.

وقبل وفاته في عام ١٩٧٧، قدم «فلاديمير نابوكوف» مقتطفات من رواية «لاورا وأصلها» لزوجته «فيرا»، وطلب منها حرقها بعد وفاته. إلا أنها لم تملك الإرادة الكافية لتنفيذ وصيته تلك. وبعد وفاتها قام ابنه الوحيد «ديمتري» بالاحتفاظ بالمخطوطة دون حرقها أو نشرها. وفي عام ٢٠٠٨، قرر «ديمتري» أن الوقت قد حان لإظهار رواية والده للقراء.

كاتب آخر روسي عظيم أقدم على هذا الفعل وهو «فيودور دوستويفسكي»، حيث قام بإحراق مخطوطات «الأبله» و«الشياطين» أثناء عودته إلى الوطن بعد رحلة إلى الخارج. وكان «دوستويفسكي» شديد القسوة على نفسه في تقييم أعماله الخاصة، ولم يكن يرضى بسهوله عما يكتب. وعندما كان يشعر بعدم الرضى عن عملٍ ما كان يقدم على إحراقه بكل بساطة، ثم يبدأ في الكتابة من الصفر. وقام بذلك في أثناء كتابته لرواية «الجريمة والعقاب».

ومن النساء هناك الشاعرة الروسية الشهيرة «آنا إخماتوفا» التي أقدمت على إحراق كتبها، ليس بسبب عدم رضاها عنها، بل لخوفها من التعرض للسجن؛ فقد عاشت الكاتبة فترة صعبة من الملاحقات والتشديد من قبل السلطات بالاتحاد السوفيتي. وكانت تقرأ قصائدها الخاصة على صديقتها «ليديا تشوكوفسكايا» قبل إحراقها. وعندما هدأت الأمور بعض الشيء حاولت استعادتها مرة أخرى بمساعدة صديقتها. ومن أشهر الأعمال التي قامت بإحراقها «سنوات شبابي» التي لم يبق سوى بعض المقتطفات منها.

كما قام الكاتب والشاعر الشهير «بوريس باسترناك» بحرق قصته «في هذا العالم» بعد أن تعرضت للنقد الشديد لضعفها الفني، إلا أنه قام بتضمين روايته الشهيرة» دكتور زيفاجو» بعضًا من مشاهدها فيما بعد. وأحرق «باسترناك» الكثير من أعماله الخاصة بسبب عدم رضاه عن مستواها. والأمر نفسه قام به الكاتب «ميخائيل بولجاكوف» الذي كتب يقول:» لقد قمت بنفسي بإلقاء مسودة رواية «الشيطان» في الموقد، وكان يقصد بها روايته الشهيرة «المعلم ومارجريتا»، وحدث ذلك بعد حظر عرض مسرحيته «موليير». كما اعترف الكاتب أكثر من مرة أنه «لجأ إلى موقد المدفأة كثيرًا» للتخلص من أعماله التي كان يعتبرها رديئة، فقد التهمت نيرانها جزأين من روايته «الحرس الأبيض»، وفشل الكاتب في استعادتهما، كما أحرق الكثير من يومياته. أما روايته «المعلم ومارجريتا» فقد نجح في استعادة الكثير منها، بينما جمع العديد من أصدقائه القصاصات والمقتطفات التي كان يُرسلها إليهم يستطلع رأيهم فيها.

وبمحاولة معرفة الأسباب التي تؤدي إلى تلك الحالة، فإن العديد من الكتاب كانوا يقدمون على تدمير وحرق كتبهم حتى لا يطلع عليها أحد غيرهم، فالبعض لم يكن يثق فيما يكتب، والبعض الآخر كان يخشى أن ينتهي به الأجل وكتابه لم يكتمل على النحو الذي يريد أو يرضى. وفي النهاية، تبقى حقيقة أن «المخطوطة لا تحترق»، والأفكار تعيش أبدًا، وهناك من يحرص دومًا على إنقاذها من الضياع.

6

نهايات غامضة

قصص وفاة أدباء روسيا الكبار

أنهي القدرُ حياة عدد كبير من كُتَّاب روسيا الكبار، وذلك إما بالقتل أو التعذيب أو الانتحار. وعاش أغلب عظماء الأدب الروسي حياة قصيرة، فقد قُتل «بوشكين» وهو في السابعة والثلاثين، وكذا «ليرمونتوف» في السادسة والعشرين من عمره. أما نهاية الشاعر الكبير «سيرجي يسينين» فكانت وهو في الثلاثين من عمره عندما مات منتحرًا، و»ماريا تسفيتايفا» في التاسعة والأربعين. وتتذكر والدة الشاعر الروسي «فلاديمير فيسوتسكي» حديثًا دار بينها وبين ابنها، حدثها فيه أنه يتوقع قُرب وفاته هو أيضًا.

في روسيا كان الموت المبكر علامة على صدق الشاعر، ومعدنه الحقيقي. ربما يبدو ذلك أمرًا خياليًّا بعض الشيء، ولكن الشعراء الروس الكبار كانوا يتوقعون دنو أجلهم؛ حتى إن هناك من كان يتساءل: هل يستطيع الشاعر الحقيقي العيش أكثر من ٤٠ عامًا؟ كانوا يروْن أنه من الصعب على المبدع الحقيقي تحمل قسوة الحياة ومعاناة البشر حوله سنوات طويلة.

والأمر لا يقتصر على الشعراء فحسب، بل نلحظ ذلك عند كُتاب النثر أيضًا، فقد توفي «نيقولاي جوجول» العظيم عن اثنين وأربعين عامًا، و»إسحق بابل» عن ٤٥ عامًا، و»فاسيلي شوكشين» عن ٤٥ عامًا.

ومن الصعب ألا نطلق وصف المأساة على نهايات الأدباء الروس، نهايات يكتنفها الغموض، وحتى اليوم لا تزال تثير حيرة النُّقاد والباحثين والمهتمين بالأدب الروسي. مات «ك. ريليف» في عام ١٨٢٦م مشنوقًا مع أربعة من قادة ثورة الديسمبريين، ومات «جريبويدوف» مقتولًا من الثوار في إيران، وأصيب الشاعر «بوشكين» إصابة قاتلة على يد البارون «جورج دانتيس»، وهو المصير نفسه الذي أصاب الشاعر «ميخائيل ليرمونتوف»، الذي قُتل في مبارزة على يد «نيقولاي مارتينوف».

وهناك شكوك كبيرة تشير إلى أن «ليرمنتوف» و»بوشكين» قُتلا بأمر من القيصر الروسي، أما «جريبويدوف» فقد تسبب القيصر بقتله، حينما تعمَّد إيفاده إلى إيران غير المستقرة حينها. كما اتهم الأديب «ب. تشادايف»

بالجنون رسميًّا، وتم حظر أعماله من النشر على جميع أراضي الإمبراطورية الروسية.

وفيما يلي، سنتوقف ببعض التفصيل عند وفاة عدد من كبار الأدباء الروس، ونطرح أهم الروايات التي صاحبت وفاتهم، وهل يمكن بالفعل وصفها بالنهايات الغامضة؟

يُعتبر الكاتب «ألكسندر نيقولايفيتش راديشيف» (١٧٤٩-١٨٠٢م) أديبًا مبدعًا ومدافعًا صلدًا عن الدولة الروسية، ومن أهم أعماله كتاب «الرحلة من بطرسبورج إلى موسكو»، والتي فضح فيها تدني أخلاقيات الأثرياء، وحرمانهم للفقراء من كافة حقوقهم. وكانت طبقة الملَّاك الكبار تسيطر على مقاليد الأمور، فحُكم عليه بالإعدام بمرسوم من القيصر، ثم سرعان ما تم العفو عنه، واستُبدِل بالنفي إلى سيبيريا، حيث عاش «راديشيف» حتى عام ١٧٩٦م، إلى أن أصدر القيصر الجديد «بافل الأول» قرارًا بالعفو عنه تمامًا، وسُمح له بالعيش بقرية قريبة من كالوجا إحدى ضواحي موسكو، وفي عام ١٨٠١م تمت دعوته إلى بطرسبورج وتعيينه عضوًا في لجنة صياغة القوانين. ويبدو أن «راديشيف» لم يفهم المغزى من قرار القيصر باستضافته، وظل يصرُّ على تحقيق حرية الصحافة، والمساواة بين الناس أمام القانون، وكانت النتيجة أن حِيكت ضده مؤامرة، وتُوفي فجأة في ١٢من سبتمبر ١٨٠٢م.

كان «راديشيف» حينها في الثالثة والخمسين من العمر، وكانت وفاته محل تشكك وريبة من محبيه، وسارت إشاعات بقتله عن طريق وضع السم في كأس النبيذ الخاص به.

كما تُوفي الأديب «ألكسندر جريبويدوف» في فبراير ١٨٢٩م مقتولًا أثناء سفره إلى طهران، وقع ذلك تحديدًا في مدينة تبريز، حيث كانت القنصلية الروسية. كان «جريبويدوف» أديبًا وموسيقارًا ودبلوماسيًّا، سافر لأداء واجبه في إيران. وفي أثناء إقامته بالقنصلية اندلعت ثورة في المدينة، وأُشيع بأن الدبلوماسيين الروس سخروا من التقاليد والعادات الإسلامية. وتجمع قرابة عشرة آلاف شخص حول القنصلية وشرعوا في إحراقها.

وحتى اليوم، لا توجد معلومات تفصيلية موثَّقة عن الطريقة التي تُوفي بها «جريبويدوف»، ولكن من هذه الروايات أنه خرج إلى الجموع بسيفه، وأصيب بحجر كبير في رأسه، فسقط فاقدًا وعْيه. وفي رواية أخرى أنه أغلق على نفسه مكتبه، وأطلق النار على الحشود في الخارج، ولم يستطع هؤلاء الولوج إلى مكتبه من الباب، فقاموا بتحطيم السقف والإجهاز عليه وقتله، وتقطيع جسده إلى أشلاء، حتى قيل إنه تم التعرف على شخصه بصعوبة بالغة.

أما «جوجول» صاحب رواية «المعطف» الشهيرة، فحقيقة وفاته أنها وقعت في ١٨من فبراير ١٨٥٢م، حينما رفض الكاتب تناول الطعام، واجتمع الأطباء للتشاور، وخشية فقدان الأديب العظيم اتخذوا قرارًا بإرغامه على تناول الطعام. ومن بين الأساليب التي اتبعوها في ذلك استخدام العلقيات، وهي فصيل من الطفيليات التي تشبه الديدان، وكان «جوجول» يشمئز من رؤيتها؛ ولذا فقد قاوم قدر الاستطاعة، ومع شروق شمس ٢١ من فبراير أخذ يهذي، وفقد وعْيه، ثم تُوفي بعد بضع ساعات.

تقول إحدى الروايات: إن «جوجول» قرر تجويع نفسه سعيًا لإثبات انتصار الروح على الجسد. فيما يؤكد علماء النفس على مقولة إن جوجول كان يعاني طيلة حياته ضغوطًا نفسية، وكان يجب عدم الاكتفاء بعلاج أمراضه الجسمانية، بل والنفسية أيضًا.

من ناحية أخرى، يرى المحبُّون للكاتب العظيم أن حالات النشوة الدينية، وتقمص شخصية الناسك التي عاشها الكاتب في سنواته الأخيرة - هي ظاهرة صحية تمامًا، ويؤكد هؤلاء أن المرض الذي عانى منه «جوجول» لم يكن محددًا بعد، وأنه من الصعب أن يموت إنسان بسبب امتناعه عن الطعام لثلاثة أيام. وصرح الطبيب الخاص بـ»جوجول» «ألكسي تاراسينكوف»، والذي صاحبه في ساعاته الأخيرة، بأن انهيار قُوى «جوجول» وهذيانه وقعت في الساعات الأخيرة قُبيل وفاته، ويبدو أنه كان هناك سبب عضوي ليس له علاقة بالجوع أو بالتصوف الديني، وهو ما أدى إلى الوفاة، إلا أن هذا السبب بقي سرًّا حتى يومنا هذا.

ويعتقد الكثيرون أن «أنطون تشيخوف» (١٨٦٠-١٩٠٤م) قد تُوفي ليس بسبب السكتة القلبية، كما هو شائع، بل بفعل سكتة دماغية نتيجة توقُّف وصول الأوكسجين إلى المخ. وكما هو معروف أن «تشيخوف» كان مريضًا بالسُّل. وفي أثناء الاحتفال بمرور ٢٥ عامًا على أولى كتاباته، كان المرض قد تمكَّن منه تمامًا، حيث بدا «تشيخوف» ضعيفًا لا يفارقه السُّعال، وأصبح هذا السعال مؤلمًا للكاتب حتى إن أطباءه نصحوه بالسفر إلى منتجع «بادن فيللر» للتعافى قليلًا، ولو لفترة قصيرة.

وفي الخامس عشر من يوليو ١٩٠٤م، طلب للمرة الأولى من زوجته أن تستدعي الطبيب فورًا الذي قام بحقنه بعقارٍ ما، وبعد بضع دقائق أخذ «تشيخوف» يهذي ويحكي كلامًا عن اليابانيين والبحَّارة. وأرادت زوجته الفنانة «أولجا كنيبير» أن تضع على صدره كيس ثلج، إلا أنه أوقفها قائلًا: «لا يُوضع الثلج على القلب الفارغ»، وطلب منها كأسًا من النبيذ، ثم ابتسم ورقد على

جانبه الأيسر، واستقبل موته. وقال بالألمانية: «إنني أموت الآن». غير أن الأطباء ذكروا أن السبب الرئيسي للوفاة هو سكتة قلبية وليست دماغية.

أما الاعتقاد الجديد، فقد تأكَّد ببحث قام به علماء بريطانيون نجحوا في تحليل نسيج عالق على قميص الكاتب كان يرتديه أثناء وفاته. وكانت النتيجة صادمة للجميع، وخاصة الباحثين في تاريخ حياة الكاتب وإبداعاته؛ إذ أظهر التحليل الكيميائي الدقيق لهذه الأنسجة حدوث انسداد في الأوعية الدموية الموصلة للمخ، وهو ما أدى إلى إصابته بنزيف دماغي، تسبب في وفاته، وأن سبب الوفاة لم يكن نوبة قلبية، بل سكتة دماغية حادة.

مثال آخر هو الشاعر «إيفان كونيفسكوي» الذي ولد في عام ١٨٧٧م، ولم يعش سوى ٢٣ عامًا فقط، ويعتقد الرمزيون الروس، أنه لو قُدر له العيش لعشرين عامًا أخرى لأصبح الشاعر الأشهر في روسيا. ومنذ بداياته انشغل إيفان بالبحث عن العالم المثالي وعن أصل الحكمة، ويرى أنه كان في حاجة إلى إرادة قوية لا تهتز لتحقيق هذه الأهداف. ولعل ذلك كان السبب في مأساته. ففي صيف عام ١٩٠١م توجَّه «كونيفسكي» للاستجمام في منطقة ريجسكوي، إلا أنه لم يصل إلى هذا المكان أبدًا، حيث توقف في قرية سيجولدا. ثم توجَّه في رحلة مبتعدًا عن المدينة، وضلَّ طريقه في الغابة، وظل يبحث حتى وصل إلى شاطئ نهر صغير، وفي أثناء رحلته القصيرة وقعت المأساة دون تواجد أي شهود. ولعل السبب الأكثر منطقية أنه غرق في النهر.

وفي السابع والعشرين من مايو ١٩٣٦م عاد «مكسيم جوركي» إلى موسكو قادمًا من جزيرة القرم، وكان يشعر بالإرهاق، وعرَّج أثناء عودته على أحفاده، وهناك أصيب بعدوى الإنفلونزا. وفي اليوم التالي توجَّه إلى مقبرة ابنه، حيث اشتد المرض عليه، وساءت حالته الصحية تدريجيًّا، وفي الثامن من يونيو أصبح جليًّا أنه لن يُشفى من مرضه، وأصيب الكاتب باضطراب في التنفس ومعدلات النبض، وازرقَّت أطرافه، وعاش عدة أيام فقط بعدها، زاره خلالها الرئيس السوفيتي «جوزيف ستالين».

وفي ١٨من يونيو تُوفي «جوركي»، وثبت لاحقًا أن رئتي الكاتب كانتا في حالة سيئة تمامًا، حتى إن الأطباء تعجبوا كيف كان قادرًا على التنفس، غير أن الإشاعات التي سرت حينها أن «ستالين» أو «تروتسكي» قد أمرا بدس السم له في الطعام، وقد صرَّح بذلك «جنريخ ياجودا» أحد قادة اللجنة الشعبية للشئون الداخلية للاتحاد السوفيتي، و»بيتر كريوتشوف» السكرتير الشخصي للكاتب، حيث حكمت المحكمة بإعدامهما رميًا بالرصاص، عقابًا على هذه التصريحات.

وكانت وفاة الشاعر الروسي الكبير «فلاديمير ماياكوفسكي» (١٨٩٣-١٩٣٠م) أيضًا غامضة، ومثّلت لغزًا وحيرة كبيرة للباحثين، فقد تُوفي الشاعر في إبريل ١٩٣٠م وبقيت الرواية الرسمية حتى يومنا هذا أنه انتحر، غير أن هناك العديد من النقاط التي تحتاج إلى تفسير. ففي عام ١٩٢٨م تعرَّف «ماياكوفسكي» في باريس على «تاتيانا ياكوفليفا» وأنجبا طفلة، وكان الشاعر يرغب في الرحيل عن الاتحاد السوفيتي، بيد أن السلطات لم تسمح له بذلك. كان الاتحاد السوفيتي آنذاك في حاجة إلى بقاء «ماياكوفسكي» بوصفه شاعر الثورة، والمنبر الذي يتحدث باسمها في العالم كله. وقد تحدث أصدقاء «ماياكوفسكي» عن هذا الخلاف الذي نشب بين الشاعر والسلطات، وهو ما يعضد من فرضية تعرضه للقتل في عمليات التطهير التي شنتها السلطات خلال الثلاثينيات.

كانت الفنانة «فيرونيكا بولونسكيا» آخر من رأى الشاعر قبل موته، وفي أثناء خروجها من شقته سمعت صوت إطلاق رصاصة فعادت فورًا، ووجدت الشاعر قد تُوفي. وعُثر في منزله على ورقة صغيرة كتبها قبل وفاته مباشرة، وقال فيها:»لا تتهموا أحدًا بقتلي ولا تثيروا شائعات، فالميت لا يحب ذلك.. المعذرة يا أمي ويا أختي ويا أصدقائي، ليس لدي خيار آخر». وقد أكد أصدقاء الشاعر - ومنهم «سيرجي إيزينشتاين» - أن اللغة التي كُتبت بها هذه الورقة ليست لغة «ماياكوفسكي» على الإطلاق.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة، تؤكد حقيقة هذه الظاهرة، ولعل نسبة الانتحار المرتفعة بين الأدباء الروس دليل إضافي على ذلك. وستظل نهايات هؤلاء المبدعين مصدر حيرة بين محبي الأدب الروسي في العالم، كما كانت كتاباتهم دومًا مصدر إعجاب وإلهام.

7
الدراما الروسية المعاصرة

«الدراما الروسية الجديدة» يختلف النقاد في روسيا حول هذا المسمى وإطاره الزمني، وقد بدأت هذه الحقبة مع سعي كتاب الدراما لإصدار إبداعات جديدة مثلت ظاهرة في منتصف تسعينيات القرن الماضي، واستمرت حتى وقتنا هذا.

شهدت نهاية القرن العشرين أحداثًا ثورية كبرى في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية من حياة المجتمع الروسي، وقد انعكس ذلك على شكل ونمط حياة المواطن الروسي الذي تعامل مع هذه الصدمة الكبيرة بصبر واستيعاب. وكان المسرح والدراما أول الفنون التي لم تستشعر وتعكس التحولات التاريخية في البلاد فحسب، بل ولعبت دورًا هامًّا في إحداث هذه التحولات؛ حيث اتسمت الأعمال المسرحية التي سبقت انهيار الاتحاد السوفيتي بنزعة نحو التمرد على الواقع والسخرية منه. ويمكن تقسيم تطور المسرح الروسي الحديث والمعاصر إلى ثلاث مراحل مهمة ارتبطت بخصوصية الوضع الثقافي في كل منها، الأولى: هي التي سبقت البيروسترويكا مباشرة، واتسمت بالواقعية، الثانية: مرحلة الحداثة، وأخيرًا: مرحلة ما بعد الحداثة.

وقد عانت الدراما الروسية شأنها شأن الأدب الروسي عامة من حالة من الازدواجية الجمالية في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحالي، حيث نجد فيها في آن واحد ملامح وسمات لتيارات الواقعية والحداثة وما بعد الحداثة. وشارك ممثلو أجيال مختلفة من الأدباء في كتابة إبداعات هذه المرحلة، ولعل أهمهم «ليودميلا بيتروشيفسكايا» و»ألكسندر كازانتسيف» . ومن ممثلي تيار ما بعد الحداثة هناك «فلاديمير ساروكين» وجيل التسعينيات أيضًا. وثمة مجموعة كبيرة من كتَّاب الدراما الروسية تستحق أن يُلقى الضوء على أعمالهم، منهم: «ميخائيل أوجاروف» و»إدوارد جريشكوفيتس» و»كسينيا دراجونسكايا» و»يفجينيا ميخايلوفا» وألكسي سلابوفسكي».. وغيرهم.

كما تأثرت الدراما الروسية المعاصرة بما يعرف بالوثائقية أو التوثيق، فقد كان «ألكسندر سولجينيتسن» الروائي الروسي الكبير وصاحب جائزة «نوبل» رائدًا لهذا النوع من النثر. وانعكس ذلك على الدراما في تلك الفترة؛ حيث نجدها تقترب في معظمها من الإنسان الحقيقي والبيئة الواقعية.

وتعد الدراما الوثائقية من أهم الظواهر الأدبية في المسرح الروسي المعاصر، وساعد الأسلوب التوثيقي على إحداث تغيير مستمر في حالة المؤلف المسرحي، حيث لا يلزمه التأليف بقدر ما يلزمه انتقاء وتهيئة حوار حقيقي استمع إليه أو قام بتسجيله.. فلا حاجة هنا للخيال.

تلك المنهجية السهلة والمقتبسة من المسرح الإنجليزي أتت بثمار واضحة في المسرح الروسي؛ حيث ظهر في موسكو مسرح جديد يحمل اسم «المسرح الوثائقي»، ومن أهم المؤلفين في هذا المجال: «يلينا إيسايفا» بمسرحية «الرجل الأول».

وفي نهايات القرن الماضي ظهر جيل من كتاب الدراما الروسية أُطلق عليه «جيل ذوي العشرين ربيعًا». واتسمت كتاباتهم بنوع من التشاؤم، وتمركزت حول موضوعات: الشر، وإبراز العنف، وانعدام الإنسانية التي غالبًا ما لم تكن من الحكومة، بل الشر الكامن في العلاقات بين البشر الذي يؤكد أن أرواحهم قد بلغت حدًّا لا علاج له من التشوه. ونذكر من هؤلاء الكتاب كلًّا من: «فاسيليسيجاريف» صاحب مسرحية «الحليب الأسود»، و«قنسطنطين كوستينكو» صاحب مسرحية «كلاوسترافوبيا» و«إيفان فيرابايف» ومسرحيته «الأوكسجين». هذا العدد الكبير من المسرحيات التشاؤمية يؤكد حالة اليأس وانعدام الأمل التي سادت هذا الجيل من الشباب وفقدان الثقة في القيم الحضارية المعاصرة وفي الإنسان نفسه. وحاول الكتَّاب الشباب في مسرحياتهم الدفاع عن مبادئ الإنسانية وقيمها.

ومن السمات الأساسية للدراما الروسية المعاصرة البعد عن التعميم وقلة الاهتمام بدراسة القيم الثقافية في المجتمع، والتركيز على التجارب الفردية الشخصية اليومية. أما فيما يتعلق ببنية النص المسرحي واللغة فنجد أن الكاتب يسمح لنفسه باستخدام مختلف مستويات اللغة بحرية تامة، كما يتحرك بحرية تامة أيضًا في بناء الرواية المسرحية دون التقيد بأطر صارمة، حتى إن الكثيرين من النقاد يرون أن الدراما الروسية المعاصرة تفتقد الأسلوب الخاص بها، فهي متنوعة مثل الحياة، وتتغير من وقت لآخر وبوتيرة مستمرة.

ويعد الموضوع الأساسي للدراما الروسية المعاصرة الإنسان والمجتمع، فمعظم كتاب الدراما الواقعيين اهتموا بالتعبير عن العصر من خلال أبطالهم، ومن هذه المسرحيات نذكر: «المسابقة» لـ«ألكسندر جالين»، و«شغف فرنسي في ضواحي موسكو» لـ«رزوموفوسكايا»، و«إنترفيو حول موضوع الحرية» لـ«أرباتوفا».. وغيرها. وقد احتلت الكاتبة «ماريا أرباتوفا» مكانةً هامةً

بين كتاب التسعينيات بفضل تركيزها على الأدب النسائي في كتاباتها، وهو موضوع جديد على الأدب الروسي بصفة عامة.

ومن الموجات المهمة التي ظهرت في تلك الفترة أيضًا إعادة الكتابة المسرحية للعديد من المؤلفات الشهيرة، فقد توجه كتاب الدراما الروس إلى أعمال شكسبير مثلًا، وظهرت نسخة مسرحية روسية من «هاملت» للمؤلف الكاتب «بوريس أكونين»، ونسخة أخرى من تأليف «بيتروشيفسكايا»، ونسخة ثالثة من تأليف «كليم»، كما قام بعض الكتاب المسرحيين بتحويل الأعمال الكلاسيكية الروسية إلى مسرحيات، ومنها: أعمال «ألكسندر بوشكين»، و»فيودور دوستويفسكي»، و»ليف تولستوي»، و»أنطون تشيكوف».. وغيرهم.

ويمكن القول إن الدراما الروسية المعاصرة استطاعت تجديد معايير الجمال في إطار واقعي، واستحدثت اتجاهات ونماذج جديدة من الأبطال، وتناولت الواقع اليومي بقسوته، وأعادت إحياء شخصية «الإنسان البسيط» التي عرفها القارئ في أعمال عظماء الأدب الروسي «أنطون تشيكوف» و»فيودور دوستيوفسكي».. وغيرهما.

وبقيت تقاليد تشيكوف حاضرة في إبداعات المسرحيين الروس في أواخر القرن الماضي، وكان ذلك ماثلًا بوضوح في أعمال «ن. كوليادي» مسرحية «النورس يغني»، و«ب. أكونين» في مسرحية «النورس»، و»ي. جيرمينا» في مسرحية «الزوجة السخالينية».

ومن أهم كتاب المسرح الروسي حاليًّا: «بيتروشيفسكايا» و»كوليدي» اللذان يتمتعان برؤية خاصة للعالم المحيط، بالإضافة إلى المنظومة الدرامية الخاصة بكل منهما والتي تتطور من عمل لآخر. ولهذا يحظى هذان الكاتبان باهتمام كبير من النقاد والقراء ورجال المسرح.

وهكذا لا يمكن وصف الدراما الروسية المعاصرة بكونها اتجاهًا أدبيًّا كاملًا، غير أنه يمكن النظر إليها كونها ظاهرة هامة تستحق التحليل. كما يمكن القول إن التنوع يمثل السمة الأساسية للدراما الروسية المعاصرة، وهو ما يعكس الطابع الفني التجريبي للحياة الأدبية في روسيا الحديثة.

8

كبار أدباء روسيا
بين العبقرية والجنون

يؤكد العلماء، أن الأدباء هم الأكثر عرضةً للضغوط النفسية والاكتئاب، وهناك من يجد صلةً وثيقةً بين الإبداع والانحرافات النفسية، ومن هذا المنطلق، يوجد العديد من الأمثلة والنماذج في تاريخ الأدب العالمي والروسي لعباقرة ومشاهير، عانوا من أمراض نفسية مختلفة. وطبقًا لإحصاءات منظمة الصحة العالمية، يعاني أكثر من نصف مليار شخص من أمراض نفسية، ويتزايد هذا العدد سنويًّا بفعل تدفق المعلومات والأزمات السياسية والاقتصادية.

ويمثل الانشغال بالأدب والكتابة،أرضية مثالية لظهور واشتداد الانحرافات النفسية لدى الشخص، وتؤكد الدراسات أن الأدباء أكثر عرضة من غيرهم بهذه الأمراض، وبمقدار الضعف. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة من تاريخ الأدب الروسي ولأدباء روس مشاهير.

لعل الكاتب الروسي الكبير نيقولاي جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢م) خير مثال على ذلك، فقد قضى جوجول معظم سنوات عمره يعاني من مرض الهوس الاكتئابي أو الاضطراب الوجداني ثنائي القطب. كتب يقول:» كنت أعاني من وقت لآخر من مرض يجعلني أبقى بلا حراك في غرفتي لأسبوعين إلى ثلاثة». هكذا وصف جوجول حالته. وعندما أصبحت هذه الحالة تنتابه كثيرًا، قرر أن يعزل نفسه في غرفته،و يضرب عن الطعام حتى وافته منيته.

عانى مؤلِّف كتاب «الأنفس الميتة» من مرضه النفسي، الذي تفاقم بسبب النوبات المتتالية عليه، واشتكى جوجول من هلوسات مرئية وصوتية، ولم يستطع أن يلاحظ الخطر المميت الذي بات يهدده. تناوبت عليه حالات اليأس مع النشاط المفرط والإثارة. في كثير من الأحيان، كان الخوف من الأماكن المغلقة يطارده، وتفاقمت الاضطرابات الذهنية لديه، خاصة بعد وفاة أخت صديق مقرَّب له وتدعى يكاترينا خومياكوفا؛ عندها بدأ جوجول يرفض تناول الطعام، وأخذ يشكو من الضيق والضعف، وفي إحدى ليالي فبراير ١٨٥٢، أحرق جوجول مخطوطاته. وبدأت حالة الكاتب في التدهور تدريجيًّا وبشكل حاد. وفي ٢١ فبراير، تُوفي جوجول من فرط الإرهاق، وهناك من يرىأنه انتحر.

كان صدور كتابه الأخير «الأماكن المختارة»، والهجوم الذي تعرَّض له من قِبل الأصدقاء سببًا في تقويض صحته العقلية. كتب طبيبه الخاص يقول: «كان جسده نحيفًا للغاية، وبدت عيناه يملأهما الحزن والملل، ووجهه قد استنزف بالكامل، وتهدلت خدوده، وأصبح صوته ضعيفًا، وكان لسانه يتحرك بصعوبة، وأصبحت تعبيراته غامضة، وغير قابلة للتفسير. لقد بدا لي من الوهلة الأولى كرجل ميت».

وحتى الشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧م) عانى فترات ليست بالقصيرة من الاكتئاب والضغوط النفسية، فمنذ شبابه المبكر لوحظ على الشاعر بعض أعراض عدم التوازن النفسي فكان شديد الحساسية في التعامل مع أقرانه في المدرسة، وسريع الانفعال. ويربط الباحثون في إبداعات بوشكين بين هذا السلوك العدواني للشاعر، وتوقُّد مشاعره الذي يفوق غيره من البشر، عانى الشاعر لسنوات طويلة من الاكتئاب، بعد إنهاء دراسته في المدرسة، وتوقَّف عن الإبداع تقريبًا. ويؤكد النقَّاد، أنه يمكن بسهولة تتبع فترات الجمود الإبداعي عبر مراحل حياة بوشكين، وفترات المعاناة من الاكتئاب والوحدة.

ويرى بعض الباحثين في إبداعات الشاعر ميخائيل ليرمونتوف، (١٨١٤ - ١٨٤١م) أنه قد عانى من الشيزوفرينيا، ويؤكد النقاد أيضًا أن ليرمونتوف كان معروفًا بالعدوانية في التعامل، وبكونه غير اجتماعي على الإطلاق.

كان ميخائيل يوريفيتش ليرمونتوف يعاني الكثير من الأمراض الوراثية والمكتسبة وأهمها المشيمة، العصبية المفرطة. انتحر جده بالسم، وكانت أمه عدوانية ووالده قاسيًا طائشًا، مدمنًا على لعب الورق. وفي طفولته المبكرة بدت على الصبي علامات انفصام: فكانت شخصيته تجمع بين القسوة الشديدة واللطف المفرط، وحب العدل وكراهية الظلم. وكان يشعر برغبة في التدمير، وكان شديد الانفعال، متقلب المزاج، متعنتًا. راودته فكرة الانتحار أكثر من مرة وهو في سن مبكرة من حياته. كان دائمًا منغلقًا على نفسه، كما أنه لم يكن جميلًا؛ مما أدى ذلك إلى عزلته أكثر، ولم يكن النساء يعجبن به، وهو ما أهان غروره كشاعر كبير.

في القرن التاسع عشر، كان الشاعر الروسي قسطنطين باتيوشكوف (١٧٨٧ - ١٨٥٥م) يعاني من مرض عقلي وراثي، مصحوب بالاكتئاب، ومحاولات الانتحار. وقد كتب طبيبه المعالج أنطون ديتريتش يقول: «يتفق الجميع أن باتيوشكوف كان رجلًا نبيلًا، وصديقًا مخلصًا، محبًّا للعطاء، ومحبًّا لوطنه. غير أنه الآن يبدو كوحش، لا تجرؤ على الاقتراب منه دون خوف، أصبح يعتقد أنه إله، لم يعد يتعرف على أي شخص، وليس لديه حب لأي إنسان».

كاتب آخر عظيم هو ليف تولستوي، (١٨٢٨ - ١٩١٠) صاحب «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا». عانى تولستوي من نوبات اكتئاب شديدة، ومتكررة، وأعراض رهاب مختلفة، وقاوم الكاتب حالة الاكتئاب والملل هذه سنوات طويلة. كما عرف تولستوي بكونه ذا ميول عدوانية شديدة.

وقد اشتهر تولستوي بأعماله العظيمة، وبكونها كتابات شديدة التعقيد، تفيض بالاستطرادات والأطروحات الفلسفية والتاريخية. وبدا أن مؤلِّف «الحرب والسلام» يسعى من خلال ذلك إلى تناسي الإحساس بالخوف، والهلع، والملل، التي عانى منها في إطار بحثه عن إجابات لأهم القضايا التي تتعلق بمعنى الحياة والكون.

وعندما بلغ الثالثة والثمانين، قرر أن يتنقل بين المدن الروسية وفر من منزله. إلا أن هذه الرحلة كانت الأخيرة، ولم تدم طويلًا. حيث مرض تولستوي بالتهاب في الرئتين، واضطر إلى التوقف في بلدة أستابوفا، حيث سرعان ما وافته المنية هناك. وقد تم تغيير اسم البلدة إلى «ليف تولستوي» تكريمًا له.

ويُعد سيرجي يسينين (١٨٩٥ - ١٩٢٥م) من أكثر شعراء روسيا موهبةً، ومن خلال إبداعاته، أكد الكثير من الباحثين أن الشاعر كان يعاني من حالة الاكتئاب الوجداني، ولوحظت لديه - لسنوات طويلة - رغبة في إنهاء حياته بالانتحار، ومما زاد الطين بِلَّة إدمان الشاعر على شرب الخمر.

وكان أول من تحدث عن جنون سيرجي يسينين هي زوجته راقصة الباليه الأمريكية الشهيرة إيزادورا دنكان، التي اصطحبت الشاعر إلى الأطباء النفسيين الأمريكيين والفرنسيين والألمان. إلا أن علاجاتهم لم تؤد إلى نتيجة جيدة. وقد أكَّد النقاد والمهتمون بكتاباته، أنه كان يعاني بالفعل من الهوس الاكتئابي، وكانت تنتابه حالات من هوس الاضطهاد بين الحين والآخر، ونوبات الغضب المفاجئة، والسلوك غير المتزن ثم تعقبها فترة من الراحة والسلام. وقال البعض إنه طُرد من الولايات المتحدة الأمريكية بسبب «مشاجرات» بعد أن قام بتدمير الأثاث، وتحطيم الأطباق والمرايا، وإهانة المحيطين به، وتطورت حالته المرَضية بسبب إدمانه للكحول، وقبل أيام قليلة من وفاته اشتكى يسينين من إرهاق شديد، ووصف نفسه بأنه «رجل منتهٍ». بدا أنه ينتظر الموت، ويرغب فيه، وكان يردد دومًا أنه كان مريضًا بعلل كثيرة، وأنه اكتشف هذا الأمر في سن مبكرة. ففي سن السادسة عشرة، من عمره، كتب: أنه لا يعرف ما إذا كان سيتغلب على آلامه أم لا؟. ووفقًا للرواية الرسمية، قام الشاعر بشنق نفسه على أنبوب تسخين البخار في فندق بمدينة سان بطرسبورج، ومن المعلومات المثيرة للاهتمام أن لفظة «الموت» ومرادفاتها قد وردت في قصائده أكثر من ٤٠٠ مرة.

كما كانت لدى مكسيم جوركي (١٨٦٨ - ١٩٣٦م) ميول ملحوظة لأن يهيم على وجهه، ويسافر من مكان إلى آخر دون هدف واضح. فضلًا عن ذلك كان جده وأبوه غير أسوياء، ولديهما ميول سادية. وعانى جوركي من مرض الميول للانتحار، وقد قام بأول محاولة، وهو بعدُ طفل صغير.

ولا تزال القائمة طويلة، وتضم أسماءً كبيرة مثل الشاعرة ماريا تسفيتايفا وفيودور دوستويفسكي وغيرهما.

وهكذا نلحظ أن حياة الأديب الموهوب، ترتبط دومًا بخطر كبير يتعرض الوعي عنده، كما أن وصوله إلى المجد والشهرة يكاد يكون دائمًا مصحوبًا بظواهر خطيرة من الجنون، والانحراف، والإقدام على كل ما هو ممنوع. وهناك سمة مشتركة بين الشيزوفرينيا والعبقرية، تتمثل في عدم محدودية التفكير أو التفكير بلا حدود ولا منتهى. ويجب القول إن المرض العقلي لا يقتصر على مشاهير الأدباء، بل هو شائع بين المشاهير عمومًا. وللأسف فإن كثيرًا من هؤلاء، قد أنهوا حياتهم إما في مصحات عقلية أو أقدموا على الانتحار طوعًا.

ورغم أن جميع الدراسات –تقريبًا - تؤكد على وجود علاقة مباشرة بين توافر الموهبة الإبداعية لدى شخص ما، وإصابته بانحرافات نفسية، غير أنها تؤكد في الوقت نفسه أن هذه الانحرافات تحديدًا هي صاحبة الفضل الأول في إنتاج هؤلاء لروائعهم ونوادرهم، وحينها تذوب الفواصل تمامًا بين العبقرية والجنون.

9

أدباء منتحرون... ظاهرة روسية فريدة
انتحار الفكر... أم فكر الانتحار؟

يقول شاعر روسيا الخالد ألكسندر بوشكين:

والموت فكرة

أراها قريبة إلى نفسي

وإلى روحي.

كتب على أحد أقدم أوراق البردي المصرية حوارًا شعريًّا دار بين رجل تعب من الحياة مع نفسه. وما لبث أن تحول الحوار إلى جدال ساخن. وكان السؤال الرئيس: هل يجب أن يتشبث الإنسان بالحياة، أو أنه من الأفضل أحيانًا اختيار الموت.

وتقدم القصيدة أفكارًا قيمة للشاعر المصري القديم الذي يعاني من مشاعر الحزن واليأس والعجز. ويقول فيها «الموت... أضحى اليوم قريبًا من بصري... لكن روحي قالت لي: نحِ همومك جانبًا... يا أخي وصديقي وقدم قربانًا للإله وتمسك بالحياة».

لا يختلف الروس كثيرًا عن العرب في التعامل مع لفظة «انتحار» فعادة ما تنطق همسًا، وتعتبر من التابوهات سواء بالنسبة للضحية أو من بقي على قيد الحياة. وعادة ما يرتبط الانتحار بأمراض نفسية وشعور بالوحدة أو عدم الإيمان بما يجري في الحياة، أو بآلام روحية وعذابات نفسية. ويعد الأدباء سواء الكتَّاب أو الشعراء من أكثر الناس عرضة لمثل هذه الأمراض. حيث تصل بهم إلى درجة يصعب تحملها حيث يشعر الأديب بالألم والمعاناة، ليس فقط لكون هذه المشكلات قائمة من حوله، بل ولشعوره بمسئوليته في حدوثها وفي تخليص المجتمع منها.

والمثير للاهتمام في الأدب الروسي أنه لا يوجد أديب روسي لم يتعرض لهذا الموضوع في أعماله، ولم يصور مشهد الانتحار. ولعل مشهد انتحار البطلة آنا كارنينا في رواية تولستوي التي تحمل الاسم نفسه من أهم

المشاهد العالقة في عقول محبي الأدب العالمي. كما صورها بوشكين وجوجول وراديشيف وغيرهم. وينتمي الأدباء خاصة والمبدعين بصفة عامة إلى قائمة الناس الأكثر عرضه لخطر الانتحار. ويرجع ذلك لهشاشتهم العاطفية وتعري مشاعرهم وحالة الصراع مع الثوابت التي تغلب على حياة معظمهم. ويعتقد علماء النفس أن كل إنسان لا تقتصر حياته على المتعة الجسدية بل يعمل على تغذية عقله قبل جسده، قد فكر ولو مرة واحده في الانتحار. أما المبدع والأديب خاصة فيستشعر قرب هذه الفكرة منه طوال الوقت. وهي تغويه من آن لآخر.

ويعد ألكسندر راديشيف (١٧٤٩ - ١٨٠٢م) أول الأدباء الروس الكبار الذي أنهى حياته بنفسه. حكم عليه بالإعدام وسـجـن فـي سجـن بتروبافلوفسكايا؛ بسبب قصيدتـه الثـوريـة «رحلـة من بطرسبورج إلى موسكو» ولكن الحكم خفف إلى النفي لعشر سنوات قضاها في المنفى السيبيري (إيليمسك) وهناك كتب رسالة فلسفية بعنوان «في الإنسان: فناؤه وخلوده». وقد عانى الشاعر مما أسماه شعور الاستهانة بالقيمة الإنسانية. وقد حاول كثيرًا الدفاع عن هذه القيمة ودفع ثمنًا لذلك من حريته وثروته، وأخيرًا حياته.

يقول راديشيف في إحدى قصائده:

هل تود معرفة من أنا؟

ما أنا؟ إلى أين أسير؟

سأظل كما كنت طوال حياتي

لست قطيعًا ولا شجرة ولا عبدًا

أنا إنسان!

أشق طريقي في دروب

لم يعهدها أحد قبلي

وشهدت الفترة من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى العقد الثالث من القرن العشرين أكبر عدد من حالات الإنهاء الطوعي للحياة من قبل الأدباء الروس،حتى أطلق عليها فتره انتشار وباء الانتحار بين الأدباء. فقد شهدت تلك الفترة انتحار كل من: فيكتور جوفمان عن ٢٧ عامًا، وإيفان إيجناتيف عن ٣٣ عامًا، وفسيفولود كنيازيف عن ٢٢ عامًا، وفاسيلي كوماروفسكي عن ٣٣ عامًا، وأندريه لوزيتسكي عن ٣٠ عامًا، وآنا مار عن ٢٨ عامًا وغيرهم. ولم تشهد فترة

في تاريخ روسيا قبلها أو بعدها عددًا مماثلًا. وقد رأى الأدباء المنتحرون في الكاتب ليونيد أندريف (١٨٧٤ - ١٩١٩م) ملهمًا لهم. وهو الذي تناول موضوع الموت بكثافة في أعماله، وسحر به كثيرًا. وتزخر كتاباته بالتشاؤم والقنوط المفرط ولكنه لم يشتهر في حياته باضطرابات نفسية أو جنون الرغبة في الانتحار.

وقد تحول الانتحار إلى ظاهرة في تلك الفترة التي شهدت تحولات سياسية وثورية كبيرة في روسيا في بداية القرن العشرين. وكان كثير من المقدمين على الانتحار يرسلون بخطاب إلى أندرييف بوصفه زعيمًا وملهمًا بدا وكأنه أنار لهم الطريق في إبداعاته بأن، في الموت الخلاص من الآلام والعذابات الروحية. وجمع أندرييف مجموعة كبيرة من الرسائل الأخيرة التي كتبها هؤلاء الأدباء في اللحظات الأخيرة قبل إقدامهم على الانتحار، حتى إنها أصبحت عادة عند كل من يريد الانتحار من الأدباء الروس أن يكتب رسالة إلى أندرييف.

ونتوقف سويًّا عند أشهر ثلاث حالات انتحار بين الأدباء الروس:

مارينا تسفيتايفا (١٨٩٢ - ١٩٤١م). قضت نصف حياتها بعيدة عن وطنها حيث اضطرت إلى الهجرة؛ لموقفها المعارض من الثورة الاشتراكية، وعاشت في عوز شديد خلال تلك الفترة وكان زوجها معدمًا؛ ولذا اضطرت للعمل ومحاولة كسب المال من الكتابة، وأحيانًا من الترجمة. عانت كثيرًا في المهجر، واضطرت للعودة إلى الوطن أثناء الحرب، وتنقلت مع ابنها بين المدن الروسية حتى استقرت في تتارستان. وهناك قامت بشنق نفسها وتركت ابنها وحيدًا وأوصت زملاءها الأدباء برعايته. وحتى الآن لم يتم التعرف على قبرها. وقد تركت تسفيتايفا لابنها ورقة كتبت فيها «سامحني يا بني! لو انتظرت أكثر لساء الوضع أكثر. أنا مريضة بمرض خطير. أشعر بأننى لست أنا. أحبك بجنون. أرجو أن تفهم أنني لم يعد بإمكاني البقاء. أبلغ أباك وأختك إذا رأيتهما أننى أحببتهما حتى آخر لحظة في حياتي، وقل لهما إنني وصلت إلى طريق مسدود».

كما كتبت في وصيتها إلى زملائها الأدباء ليتعهدوا ابنها برعايتهم:» عزيزي نيقولاي نيقولايفيش! أعزائي بنات عائلة سينياكوفي! أتوسل إليكم أن تأخذوا ابني «مورا» وتتبنوه وتساعدوه أن يكمل دراسته. لم أعد أستطيع تقديم شيء له وبقائي سوف يقضي عليه. تركت لكم في الحقيبة ٤٥٠ روبلًا، كما يمكنكم بيع كل أغراضي. كما تركت بضع دفاتر بها أشعار وعدة قصص أتركها لكم. حافظوا على ابني مورا العزيز؛ فصحته ليست على ما يرام، وأحبوه كابن لكم

فهو يستحق. وسامحوني فلم أعد أحتمل. لا تتركوه أبدًا. سأشعر بالارتياح والسعادة في قبري لو عاش معكم، وإذا سافرتم خذوه معكم. لا تهملوه!».

كتبت الشاعرة أبياتًا قبل انتحارها بعامين. ويمكن وصف هذه الأبيات بنشيد المنتحرين:

لا حاجة لي لأذن تسمع

لا حاجة لي لعين ترى

لا حاجة لي

لعالمك المجنون هذا!

فلاديمير ماياكوفسكي (١٨٩٣ - ١٩٣٠م) عاش الشاعر الشهير ماياكوفسكي حياة غير مستقرة. وقد لاقت كتاباته رفضًا شديدًا من قبل السلطات السوفيتية،و تعرض للهجوم من جانب القراء والنقاد الموالين للثورة البلشفية. إلا أن ذلك لم يكن السبب الرئيس في إقدامه على الانتحار، بل رفض حبيبته فيرونيكا بولونسكويا العيش معه. وقد أطلق النار على نفسه بعد لقاء أخير جمع بينهما. وكان قد ترك قبلها بيومين ورقة كتب فيها: «لو مت فلا تتهموا أحدًا، ورجاءً لا تغتابوني. فالميت يكره الغيبة بشدة. أمي وأخواتي وزملائي. أرجوكم التمسوا لي العذر فلم يكن لدي خيار آخر....» وقد تحالف الشاعر في البداية مع الشيوعيين، ثم ما لبث أن تراجع وندم على فعلته؛ ولذا هناك رأي قوي يقول إن الشاعر قد وعي بذنبه كشاعر باع موهبته في البداية ثم استيقظ وندم.

قالت الشاعرة ماريا تسفيتايفا عن ماياكوفسكي «عاش ماياكوفسكي ١٢ عامًا كاملة تحت وطأة الشعور بأنه يقتل الشاعر الذي في داخله، وفي العام الثالث عشر استيقظ الشاعر وقتل الإنسان. إذا كان من وجود هنا لما يسمى الانتحار في هذه الحياة، فإنه ليس حيث يراه الناس، بل استمر كامنًا في أعماقه لاثنتي عشرة عامًا»

سيرجي يسينين (١٨٩٥ - ١٩٢٥م). كثيرون لا يصدقون حتى يومنا هذا أن يسينين قد انتحر. فلا توجد أدلة على موته انتحارًا. والجدير بالذكر أنه كان مدمنًا على الشراب حتى إنه تعرض للاعتقال كثيرًا بسبب ذلك. كما حاول الشاعر مرات عديدة الانتحار. وكان زملاؤه والمحيطون به ينقذونه في اللحظات الأخيرة. وليس من المعروف حتى الآن الحالة العقلية التي كان عليها الشاعر صاحب الثلاثين عامًا، عندما شنق نفسه بأن ربط عنقه في أنبوب

التدفئة في فندق «انترناشيونال» مستخدمًا حزام حقيبته. وقد كتب أشعارًا في وداع أصدقائه ومحبيه قال فيها:» إلى اللقاء. يا صديقي. إلى اللقاء... فالموت في هذه الحياة ليس بأمر جديد والحياة بالطبع ليست أجدد... لا أرى أي فرصة للاستمرار في الحياة. فالفن الذي منحته جل حياتي يخضع لسيطرة قيادة حزب جاهلة مغرورة... حياتي ككاتب لم يعد لها معنى. وأنا أغادرها الآن بكل سعادة لأتخلص وأنجو من البقاء العفن، حيث يتم وصمك بكل أصناف القذارة والكذب والوشاية».

وشهد القرن العشرون العديد من حالات الانتحار بين الأدباء الروس، نذكر منهم الشاعر ليونيد أرونزون (١٩٣٩ - ١٩٧٠م)، وماكس باتورين (١٩٦٤ - ١٩٩٧م)، ودميتري جولوبكوف (١٩٣٠ - ١٩٧٢م) وألكسندر باناموريوف (١٩٣٤ - ١٩٧٩م)، وليونيد سوبوليوف (١٨٩٨ - ١٩٧١م) وغيرهم كثيرون. ولعل التحولات السياسية والاجتماعية الحادة التي شهدنها روسيا في العقود الثلاثة والقيود التي فرضت على الإبداع كانت السبب الرئيس في وقوع معظمها، بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه، من دوافع وأسباب خاصة بالمبدع والأديب.

هناك مقولة شهيرة بين الشعراء في روسيا: هؤلاء الذين أنهوا حياتهم بطريقة مأساوية... أولئك هم الشعراء الحقيقيون. بالطبع لا يمكن القطع بصحتها تمامًا، ولكن لا شك أنها تعبر وبصدق عن حالة وظاهرة روسية فريدة.

الباب الرابع
سيرة أهم أعلام الأدب الروسي

1

ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين

يُعتبر ألكسندر بوشكين شاعرًا وكاتبًا روسيًّا كبيرًا، تربع على قمة المبدعين في زمانه. ويرجع إليه الفضل في تأسيس اللغة الروسية الفصحى الحديثة. وقد نال أثناء حياته لقب شاعر روسيا الوطني، ولقيت إبداعاته تقديرًا عاليًا من قِبل معاصريه.

وُلد بوشكين في السادس من يونيو ١٧٩٩م بمدينة موسكو في عائلة أحد النبلاء الروس ويدعى سيرجي لفوفيتش بوشكين ذا الأصول الأرستقراطية. وكان أبوه مولعًا بالشعر. فيما تعود أصول والدته إلى أحد الخدم الأفارقة لدى القيصر بطرس الأول، ونال هذا الخادم مكانة مقربة من القيصر حتى منحه لقبًا في البلاط. ويدعى الجد الأكبر لبوشكين إبراهيم جانيبال. وقد تحول هذا الرجل من خادم بسيط إلى مهندس عسكري ثم جنرال. أما عم بوشكين فيدعى فاسيلي لفوفيتش بوشكين وكان شاعرًا محترفًا. وكان لدى بوشكين أخت كبرى تدعى أولجا وأخ أصغر يدعى ليف. وقد بدا بوشكين كتابة الشعر وما بعد طفل صغير. وكانت تقوم على تربيته مربية تدعى ارينا راديونوفنا. وقد أحبها بوشكين كثيرًا وبقي يكنُّ لها احترامًا وحبًّا حتى آخر حياته حتى إنه كتب قصيدة شعرية عنها.

وقد تلقى بوشكين تعليمًا راقيًا في الليسيه، وهي مدارس خاصة أسسها القيصر ألكسندر الأول (١٧٧٧ - ١٨٢٥م) لتربية وتعليم أبناء النخبة الروسية، وكانت تضم أبناء الطبقة الأرستقراطية. وكانت المدرسة تقع بالقرب من مقر القيصر في ضواحي مدينة سانبطرسبورج والتى كانت في تلك الفترة عاصمة للبلاد. ويطلق على هذا المكان تساريسكوي سيلو. وكان بوشكين من أول الطلاب الدارسين في هذا الليسيه بعد افتتاحه في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٨١١م. ويتم حتى يومنا هذا الاحتفال سنويًّا بعيد افتتاح مدرسة ليسيه قرية تساروسكوي سيلو تقديرًا للشاعر الكبير ألكسندر بوشكين. وشهدت فترة الدراسة اكتشاف بوشكين لموهبته في كتابة الشعر. وقد تعرف في المدرسة على أبناء النبلاء الروس، ارتبط معهم بصداقات طويلة وكتب لاحقًا عن فترة الدراسة تلك القصيدة التي تسمى «١٩ أكتوبر».

وتتسم أشعاره المبكرة بكونها تنتمي إلى الاتجاه الكلاسيكي الروسي والفرنسي. وقد تأثر بوشكين كثيرًا بالشاعر الروسي الكبير فاسيلي

جوكوفسكي والمعروف بانتمائه إلى السينتمينتالية في الشعر.

وفي حفل المدرسة السنوي عام ١٨١٤م قرأ بوشكين قصيدته «ذكرياتي عن قرية تسارسكوي سيلو» فأعجب بها الحاضرون وكان بينهم الشاعر الروسي الكبير جابريل فونفيزين. كما كتب بوشكين في هذه الفترة قصائد أخرى منها «المدينة الصغيرة» و«الحلم» و«الأمنية» و«إلى أصدقائي» و«الوردة» وغيرها.

وانخرط بوشكين مبكرًا وهو لازال في المدرسة في جمعيات أدبية تمردت على القواعد القديمة في الأدب والتى كانت تميز الاتجاه الكلاسيكي أو الاتباعي.

وأنهى بوشكين دراسته في الليسيه عام ١٩١٧م وحصل على الشهادة التى كانت تعادل الشهادة الجامعية حينها، فتوجه للعمل بوزارة الخارجية. وفي عام ١٨١٩م انضم إلى الجمعية الأدبية «المصباح الأخضر» والتى كان لها دور مستقبلًا في ثورة الديسمبريين في عام ١٨٢٥ م ضد القيصر ومحاولة القضاء على النظام الملكي والحكم المطلق وتطبيق الدستور وإلغاء النظام الإقطاعي واستعباد وظلم الفلاحيين. وشهدت هذه الفترة نشاطًا إبداعيًّا لدى شاعرنا الذى تركز اهتمامه على الموضوعات السياسية دعى فيها إلى إلغاء قانون الرق والإقطاع وتطبيق الدستور وتقييد سلطات القيصر. ومن بين القصائد نذكر «القرية» و«الحرية». وعمل بوشكين في تلك الفترة على كتابة رائعته «روسلان ولودميلا» والتى صدرت في مايو ١٨٢٠م.

وقد جلب له انتقاده للسلطات الكثير من المتاعب، حيث أغضب ذلك الإمبراطور وأمر بنفي الشاعر إلى جنوب روسيا. وقضى بوشكين في الأقاليم الجنوبية أربع سنوات ١٨٢٠ - ١٨٢٤م. ويطلق النقاد على هذه الفترة «المنفى الجنوبي» لبوشكين. حيث أقام بعض الوقت في شبه جزيرة القرم وفي القوقاز. وقد أعجب الشاعر كثيرًا بالطبيعة في الجنوب واستلهم منها الكثير من قصائده وشهدت هذه الفترة ذروة إبداعاته الرومانسية. وشهدت فترة إقامته في القرم صدور قصيدته الشعرية «أسير القوقاز» والتى صدرت عام ١٨٢٢م وبفضلها ذاع صيته في روسيا كلها. كما بدأ هناك في كتابة قصيدته الشعرية «نافورة باختيساراي» (١٨٢٤) وروايته الشعرية «يفجيني اونيجين» ثم غادر بوشكين القرم متجهًا إلى مدينة كيشينيوف في مولدافيا حيث منفاه الرسمي، ولكن كان يسمح للشاعر بالسفر إلى المدن القريبة؛ ولذا سافر إلى كييف عاصمة أوكرانيا وإلى مدينة أوديسا على البحر الأسود. وفي مدينة كيشينيف انتهى الشاعر من كتابة رائعته النادرة وروايته الشعرية «يفجيني اونيجين» التى أطلق عليها النقاد فيما بعد «موسوعة الحياة الروسية».

واتسمت كتابات الشاعر في هذه الفترة بالرومانسية التى صبغت معظم أشعاره. وفي عام ١٨٢٤ أصدرت الحكومة الإمبراطورية مرسومًا بفصل بوشكين من وظيفته ونفيه إلى مكان جديد حيث ضيعة والدته في قرية ميخايلوفسكي على بعد ٤٠٠٠ كيلومتر من العاصمة. وفي ميخايلوفسكي قضى بوشكين عامين وأبدع خلال تلك الفترة أكثر من ١٠٠ عمل أدبي. ولعل أشهرها قصيدته «من وحي القرآن» و«نحو البحر» و«طالجر» و«النبيل نولين». وفي عام ١٨٢٥م التقى بوشكين سيدة تدعى آنا كانت هي بطلة قصيدته الشهيرة «ما زلت أذكر اللحظة الرائعة».

وتقول كلماتها:

مازلت أذكر اللحظة الرائعة

التي ظهرتِ فيها أماميَ

وكأنكِ بشارةٌ وامضة

طيفٌ ساحر مفعم بالجمال

كنتُ سجين كآبتي ويأسي

أعاني التيه وصخب الحياة

جاءني كثيرًا صوتكِ الجذاب

وحلمت بملامح وجهك الخلاب

ومضت السنون عنيفة كالرياح

تعصف وتبدد أحلامي الماضية

ونسيت معها صوتكِ الجذاب

ونسيت ملامح وجهكِ الخلاب

عشت أسيرًا في ظلامي ووحدتي

تمضي أيامي طويلة متصارعة

فقدت إلهامي وغابت رفعتي

وغابت الدموع والحب والحياة

حتى ظهرتِ ثانية أمامي

فنهضت روحي من سباتها

وكنتِ كما البشارةُ الوامضة

طيف ساحر مفعم بالجمال

قلبي يخفق بولهٍ شديد

وهو الذي صار يشعر من جديد

بأحاسيس الرفعةِ... والإلهام

والدموعِ.... والحبِ... والحياة.

في عام ١٨٢٥ م أنهى بوشكين كتابة تراجيديا «بوريس جودونوف» والتى ظهرت فيها بدايات تأثره وانتقاله إلى المنهج الواقعي في الأدب وهو الأسلوب الذى طبع إبداعاته الأخيرة. ويحاول بوشكين في كتابه هذا طرح تقييم موضوعي للحياة الإنسانية.

وبعد انتهاء فترة المنفى اختار بوشكين البقاء في قرية ميخايلوفسكي ليستريح من صخب الحياة في المدينة وفي عام ١٨٢٧ م بدأ العمل على روايته «عبد بطرس الأكبر» والتى تناول فيها حياة جده الأول إبراهيم جانيبال. واستغل بوشكين الفترة التى قضاها في القرية وقرأ الكثير من الكتب والمخطوطات القديمة ودرس تاريخ روسيا وقرأ عنه ودوَّن الكثير من الأغاني والحكايات الشعبية. ويرجع الفضل إلى مربيته في الطفولة في حبه الشديد وولعه بالحكايات والأغاني الشعبية الروسية.

كما اطلع بوشكين في تلك الفترة على القرآن الكريم الذى ترك أثرًا عظيمًا في نفسه وانعكس ذلك في عدد من الأعمال، اقتبس فيها بوشكين آيات من القرآن منها ما سبقت الإشارة إليه «من وحي القرآن» وكذا قصيدته الشهيرة «النبي» (١٨٢٦م)

وعند عودته إلى بطرسبورج شرع بوشكين في كتابة قصيدته الوطنية الملحمية «بولتافا» (١٨٢٩م) والتى يدور موضوعها حول العلاقات السياسية بين روسيا وأوروبا والأحداث التاريخية وتأثيرها على حياة الإنسان الفرد.

وفي ديسمبر ١٨٢٨م تعرف بوشكين على زوجته في المستقبل ناتاليا جونشاروفا والتى كانت تبلغ من العمر حينها ١٦ عامًا. وقد أغرم بها كثيرًا ومن اللحظة الأولى غير أن عائلة الفتاة لم تقبل به زوجًا بسبب سمعته كشاعر مناهض للسلطة وكذا بسبب فقره. وحزن بوشكين لذلك وتوجه إلى القوقاز كي ينسى حزنه. وفي عام ١٨٣٠ م قبلت عائلة ناتاليا بعرض بوشكين للزواج ويرحل بوشكين إلى ضيعة والده بولدينو والتى كانت تعاني وقتها من وباء الكوليرا، فمنع بوشكين من مغاردتها لمدة ٣ أشهر وكتب عن تلك الفترة قصيدته «في خريف بولدينو». كما ألف بوشكين في تلك الفترة ٣٠ قصيدة ومجموعة قصصية حملت عنوان «قصص بيلكين» وكذا التراجيديات الصغيرة، كما انتهى تمامًا من روايته الشعرية «يفجيني اونيجين» في عام ١٨٣٢م

وتعتبر هذه الرواية الأهم بين إبداعات الشاعر ومن أهم الأعمال في الأدب الروسي

وشهدت الثلاثينات بداية توجه بوشكين لكتابة النثر حتى إنه غلب الشعر من حيث الكم. فكتب روايته «دوبروفسكي» والتى تتناول حياة شاب نبيل، انتزعت أملاك أبيه ظلمًا فصار قاطع طريق.

وفي عام ١٨٣٣م أصدر بوشكين قصيدته الشعرية «الفارس النحاسي» و«حكاية الصياد والسمكة» و«حكاية الأميرة الميتة والعمالقة السبع» وغيرها. وقد سمحت الرقابة حينها بنشر قصيدته «الفارس النحاسي» في عام ١٨٣٣ م، واختير بوشكين عضوًا في أكاديمية العلوم الروسية.

وفي نهاية ١٨٣٣م عاد بوشكين إلى بطرسبورج واستكمل إبداعاته ونذكر منها قصة «ابنه الآمر» والتى صور فيها أحداث ثورة الفلاحين في سيبيريا.

وقد استشهد بوشكين أثناء مبارزة مع ضابط فرنسي يدعى جورج دانتيس، وكان ذلك في عام ١٨٣٧م. وتلقى إبداعات الشاعر شهرة ليس فقط داخل روسيا بل وفي مختلف بلدان العالم وترجمت أعماله إلى كل لغات العالم تقريبًا.

عيد اللغة الروسية يوافق يوم مولده

جوانب خفيَّة في حياة أمير الشعر الروسي ألكسندر بوشكين

تَحتفل روسيا في السادس من يونيو من كل عام بعيد اللغة الروسية، ويوافق هذا التاريخ يوم ميلاد الشاعر العظيم ألكسندر بوشكين، وفي هذا اليوم تُنظم فعاليات عديدة داخل روسيا وخارجها لمناقشة قضايا اللغة الروسية واستراتيجيات تطويرها وسُبل نشرها في العالم، كما يشهد توزيع ميدالية تحمل اسم الشاعر الكبير لأصحاب الاسهامات الكبرى في نشر الثقافة الروسية في العالم. وليس من قبيل الصُّدفة اختيار يوم مولد بوشكين عيدًا للغة الروسية؛ فقد كان للشاعر الكبير بوشكين دورٌ كبيرٌ في تأسيس اللغة الروسية، التي يتحدث بها الروس اليوم، حتى أنه يمكن القول: إن اللغة الروسية بعد بوشكين تختلف بشكل كبير عنها قبل بوشكين.

عُرف بوشكين في حياته بكونه شاعرًا عظيمًا، وتحوَّل بعد وفاته المبكرة إلى أمير الشعر الروسي، ورغم أنه عاش حياة قصيرة امتدت لسبعة وثلاثين عامًا فقط فإنها كانت ثرية بالأحداث والإبداعات. وسنعرج في هذا المقال على بعض الجوانب الخفيَّة في حياة الشاعر الكبير، بعيدًا عن موهبته في الإبداع شعرًا ونثرًا.

وُلد بوشكين في عائلة رائد متقاعد يُدعى سيرجي لفوفيتش بوشكين، وزوجته ناديجدا أوسيبوفنا هانيبال، كانت والدته حفيدة إحدى عبيد الإمبراطور ويُدعى إبراهيم هانيبال، الذي استطاع بذكائه أن يكون مقربًا من القيصر حتى أصبح له نفوذ قوي في البلاط؛ ولأن هانيبال كان من أصول أفريقية فقد ساد اعتقاد بأن بوشكين كان أسود اللون، غير أن الأمر لم يكن على هذا النحو، فهناك عدد غير قليل من الصور لبوشكين واللوحات التي ترسم حياته اليومية ورسمها فنانون مختلفون، ويتضح أن بِشرته باهتة بعض الشيء، وعيناه زرقاوان، كما كان شعره أشقر في شبابه، ثم أصبح داكنًا بعض الشيء مع تقدمه في العمر.

ومن الجوانب الخفيَّة أيضًا علاقة أمه به، التي اتسمت بالبرود وبعض التجاهل؛ فقد أولت اهتمامها بأخيه الأصغر ليف فيما أوكلت العناية ببوشكين الأكبر بست سنوات إلى أمها ماريا ألكسيفنا، وكان للأخيرة تأثير كبير على شخصية بوشكين، وبعد وفاتها عهد إلى المربية أرينا روديونوفنا برعايته، وكان لها أيضًا تأثير قوي، استمر حتى نهاية حياته.

في السنوات الأولى من حياته، كانت المربية أرينا روديونوفنا لا تزال شابَّة نسبيًّا، لم تتجاوز الأربعين عامًا، وكانت تقوم بإرضاع أخته الصغرى، واقترب بوشكين من مربيته أرينا في سنوات المنفى في ميخائيلوفسكي. في تلك الأثناء كتب عنها قصيدتين شهيرتين: «أمسية شتوية» و«مربية».

عندما بلغ بوشكين من العمر اثنى عشر عامًا، التحق بمدرسة الليسيه، التي كانت تُعد أرفع المدارس في الإمبراطورية. قبل ذلك حصل بوشكين على تعليم خاص في المنـزل، حيث أتقن اللغة الفرنسية، التي كانت لغة التواصل بين طبقة النبلاء، كما أنها كانت السبيل الوحيد للاطلاع على ثقافات العالم والاطلاع على إبداعات الكتَّاب في أوروبا. وهكذا نشأ بوشكين في أحضان الأدب الفرنسي، وأتقن الفرنسية حتى أن باكورة أعماله الشعرية كانت بالفرنسية.

كانت مدرسة الليسيه في تسارسكايا سيلو «قرية القيصر» مؤسسة تعليمية متميزة لأطفال النبلاء، في البداية كان من المفترض أن يدرس فيها أخوه الإمبراطور، لكن هذا لم يحدث فسمح لأبناء النبلاء بالالتحاق بها، وكانت واحدة من المؤسسات التعليمية القليلة في العالم، التي يحظر فيها العقاب البدني للطلاب. كما تميزت بكون شهادتها تعادل الشهادة الجامعية.

عاش بوشكين في المدرسة مع أقرانه حياة كاملة، ولم يكن يغادرها حتى في عطلات نهاية الأسبوع والأعياد. ولكونهم غير مراقبين فقد انغمس الطلاب بطبيعة الحال في جميع أنواع المرح وأحيانا المجون.

وفي عام ١٨١٧ تم إجراء أول اختبار لخريجي طلاب المدارس الثانوية، واجتاز بوشكين ١٥ اختبارًا خلال سبعة عشر يومًا من بينها الأدب اللاتيني والروسي والألماني والفرنسي، والتاريخ العام، والقانون، والرياضيات، والفيزياء، والجغرافيا. وحصل بوشكين على شهادته من الليسيه، وكان ترتيبه متأخرًا بين أقرانه حيث احتل المرتبة السادسة والعشرين من بين ثلاثين طالبًا هو مجموع طلاب الليسيه. ولم يظهر تفوقًا إلا في الأدب الروسي والفرنسي كما كان ماهرًا في فن المبارزة.

وقد التحق أغلب خريجي هذه المدرسة بسلاح الفرسان بعد إنهاء دراستهم فيها، واتسمت حياة بوشكين في هذه السن المبكرة بالمجون وملاحقة الفتيات، ولم يكن قد بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا بعد. وقد وصف الشاعر هذه الحالة التي عاشها في كتاباته، ومنها رسالة بعث بها إلى صديقه منصوروف، اعترف فيها أن حياته تسير كالمعتاد بين شرب الخمر والنساء.

وقبل زواجه من ناتاليا جونشاروفا، ورغم أنه لم يكن جميلًا، وكان قصير القامة فإنه استفاد من نجاحه الشعري المذهل مع النساء. قال الشاعر نفسه إنه مر بأكثر من مائة قصة حب غير أن الحب الحقيقي في حياته كان حبه لزوجته ناتاليا جونشاروفا. كانت زوجته أطول منه بعشرة سنتيمترات؛ ولذا لم يكن يحب أن يظهر معها كثيرًا حتى لا يهزأ الناس من هذا التباين.

وعلى غرار العديد من كبار الأدباء الروس كدوستويفسكي ونيكراسوف أولع بوشكين بلعب القمار في شبابه. وفي حين حقق نيكراسوف أرباحًا طائلة من لعبه القمار، فإن بوشكين ودوستويفسكي تكبدا خسائر كبيرة. حتى أن الأخير اضطر إلى بيع ممتلكات زوجته لسداد ديون القمار. أما بوشكين فلم يخسر المال فحسب، بل خسر أيضًا مخطوطاته الخاصة التي راهن بها عندما فقدَ كل ماله، وكان الدائنون يلاحقونه بطلب المال، ولم يستقر وضعه إلا بعد أن أقلع عن إدمانه لعب القمار.

وكانت ديون بوشكين بسبب لعبه القمار كبيرة؛ ولأنه كان شاعرًا عبقريًّا فقد كان يدفع ديونه شعرًا حتى أنه ذات مرة جلس على الطاولة فأبدع قصيدة بعنوان «النبيل نولين» وحصل على مقابل كبير سدد به ديونه واحتفظ بالباقي. كانت الأموال التي يجنيها من بيع قصيدة واحدة تكفيه لسداد ديونه وحاجاته لمدة شهر كامل.

ومن الحقائق غير المعروفة عنه التحاقه للعمل بوزارة الخارجية وهو في الثامنة عشرة من عمره، إلا أن العمل لم يرق له، فقد كان يفضل حياة الحرية والانطلاق.وكانت حياته التي اتسمت بالعربدة والمجون لا تتناسب وطبيعة العمل في هذه الوزارة المرموقة، وكان دائمَ الشراب، كثير الشجار، وبدا بوشكين على حافة الموت أكثر من مرة؛ نظرًا لدخوله في مبارزات خلاقًا على الفوز بامرأة ما أو للشغب والشجار مع الآخرين، وكانت معظم هذه المبارزات بمبادرة منه، ويقال إن عددها قد بلغ عشرين مبارزة. إلا أن أغلب المبارزات انتهت قبل أن تبدأ، وغالبًا ما كان يتصالح مع خصمه بعد أن يدرك الخصمان تفاهة سبب المبارزة.

وشهد يوم ٨ فبراير ١٨٣٧ آخر مبارزة في حياة الشاعر، أصاب الطرفان هدفهما، وأُصيبا كلاهما، إلا أن جُرح بوشكين كان أصعب بكثير، وعندما علم الإمبراطور بحالته أرسل إليه أفضل الأطباء، غير أنهم عجزوا عن إنقاذه، وعاش الشاعر يومين فقط قبل أن توافيه المنية، واستغل بوشكين هذا الوقت القصير في ترتيب شؤون أسرته بعد وفاته، وبعث إلى الإمبراطور برسالة يرجوه فيها العفو عنه، وأن يغفر له عدم وفائه بعهده بعدم التورط في مبارزات، وقد وعده الإمبراطور أن يتولى رعاية أسرته، حيث تم وضعهم تحت وصاية الحكومة، وتم سداد جميع ديونه.

أما عن سبب هذه المبارزة، فكانت زوجة بوشكين ناتاليا جونشاروفا، وكان خصمه الضابط الفرنسي الأصل دانتيس الذي كان قريبًا منه، فقد كان متزوجًا من أخت زوجته، وتُدعى كاترينا جونشاروفا. ولم يكن هذا الضابط يحب بوشكين، وأخذ يطلق الشائعات عن خيانة زوجة بوشكين له، فاستدعاه

بوشكين إلى المبارزة، ولكن المقربين توسطوا فيما بينهما، وألغيت المبارزة في المرة الأولى، غير أن دانتيس لم يتوقف عن توجيه الإهانات لبوشكين، وإطلاق الكلام السيئ عنه وعن زوجته؛ الأمر الذي اضطر الأخير إلى دعوته مرة أخرى إلى المبارزة التي أودت بحياته.

وكان مصير الضابط الفرنسي مأساويًّا أيضًا، فقد عانى من كراهية الروس له، ولاحقته الاتهامات بأنه السبب في مقتل شاعر روسيا الوطني، وتم طرده من البلاد، وعاش في فرنسا، ومات عن عمر يناهز ٨٣ عامًا. وعانى طوال حياته من الإحساس بالذنب.

جانب أخر خفي يتعلق بعلاقته القريبة وصداقته للقيصر. فعلى الرغم من الاعتقاد بأن بوشكين قد قُتل على يد القيصر وشيوع ذلك في الأدبيات السوفيتية، فإن الأمر لم يكن على هذا النحو على الإطلاق. كان الإمبراطور نيقولاي عاشقًا لبوشكين، وكان بوشكين من القلائل الذين تربطهم علاقة مباشرة ودون وساطة مع القيصر.

في عام ١٨٢٤ تم نفي بوشكين إلى ضيْعة والدته بأمر من الإمبراطور ألكسندر. وقضى بوشكين هناك ما يقرب من عامين. وبعد تولى القيصر نيقولاي الحكم أوفد إلى بوشكين يدعوه لزيارته في البلاط على الفور. وفي الطريق كان الشاعر خائفًا من سبب الدعوة، وتوقع أن يتم الزجُّ به إلى السجن؛ إلا أنه قوبل بترحاب شديد من القيصر، وتحدث معه ووعده بالدعم والحماية. وعندما اشتكى بوشكين من الرقابة على كتاباته؛ أخبره نيقولاي أنه سيكون الرقيب الوحيد على أعماله مستقبلًا، وطلب منه إرسال كل عمل جديد إليه. وكان ذلك بمثابة شرف عظيم يمكن أن يحصل عليه مؤلِّف، وكان لوقع الزيارة تأثير قوى على بوشكين؛ حتى أنه بكى من فرط السعادة.

بعد هذا التكريم عاد بوشكين إلى موسكو سعيدًا مزهوًّا بنفسه، وعندما حضر إلى المسرح لأول مرة، كان الجمهور كله لا ينظر إلى خشبة المسرح بل إلى النجم الجديد المقرَّب من الإمبراطور. لم ينكص القيصر بعهده لبوشكين بل أصبح من معجبيه، وغفر لبوشكين الكثير من التجاوزات التي سجلها أعضاء الرقابة على الإبداع ضده.كما ساعد القيصر بوشكين في الزواج من ناتاليا جونشاروفا، التي أغرم بها وهي بعد فتاة صغيرة. وكانت أمها ترفض هذا الزواج نظرًا للفضائح التي شاعت عن الشاعر، كما كانت تطمح في تزويجها من شخص شديد الثراء. فحزن بوشكين كثيرًا وغادر إلى القوقاز، حيث التحق بالجيش، وتدخل القيصر وضغط على عائلة الفتاة حتى وافقوا على الزواج.

ومن الجوانب الخفية أيضًا أن الشاعر بوشكين كان عالمًا لَغويًّا كبيرًا، وكان بارعًا في القراءة، وأجاد عددًا كبيرًا من اللغات كالإنجليزية، والفرنسية، واليونانية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، واللاتينية، كما كان يتقن اللغات السُّلافية. وقد عُثر في مكتبته بعد وفاته على ٣٥٦٠ كتابًا ثلثها فقط باللغة الروسية أما الباقي فبلغات أخرى، وهي كتب اشتراها الشاعر من الخارج.

ويقدّر علماء اللغة عدد المفردات التي أدخلها بوشكين على الروسية بحوالي ٢١.٢ ألف كلمة. واعتمدوا في ذلك على إبداعاته الشعرية والنثرية ومقالاته، أما في حال قياس عدد الألفاظ التي كان يستخدمها في حياته العادية فقد كانت أكثر بكثير.

وربما لا يعلم الكثيرون أن بوشكين قد أقدم على حرق عدد من مؤلفاته وكتبه الخاصة. حيث التهمت نار مدفئته الفصل العاشر من رواية «يفيجيني أونيجين» والجزء الثاني من «دوبروفسكي» بعد أن ألقى بنفسه المخطوطات للتخلص منها. وكان بوشكين ناقدًا صارمًا لأعماله الخاصة. حيث قام بتدمير مسودات قصة «ابنة الآمر» وقصيدة «قطاع الطريق». فيما استخدم ما تبقى منها سليمًا بعد الحرق في رائعته «نافورة باخش ساراي». كما كان كثيرًا ما يختار مقتطفات كاملة من الكتاب ويمزقها لعدم رضاه عنها. ويقول الباحثون في إبداعات بوشكين: إنه مزَّق الكثير من الأشعار التي كان من الممكن أن تثير غضب القيصر ضده خاصة بعد اللقاء الذي تم بينهما بالقصر.

تلك كانت بعض الجوانب الخفيَّة من حياة الشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين، الذي ذاع صيته في العالم كله. فهناك ما يقرب من مائتين وسبعين تمثالًا للشاعر الكبير، منهم مائتان في روسيا. حيث تحتل تماثيله الميادين في أرمينيا، واليونان، وكندا، والمكسيك، وتركيا، وبلجيكا، والصين، وسلوفاكيا، وبلدان أخرى. ولعل أهم تمثال له يوجد في إثيوبيا، حيث أصول جده إبراهيم هانيبال.

كما تم تخليد ذكراه بإطلاق اسمه على الشوارع والمسارح ومحطات المترو، وعلى القرية التي انحدر منها. كما أن هناك العشرات من المتاحف في روسيا باسم الشاعر، والقليلون جدًّا الذين يعرفون أن الاتحاد السوفيتي أطلق على الطائرة القتالية، التي تم إنتاجها في عام ١٩٤٣ اسم «ألكسندر بوشكين».

وقد تُوفي جميع أبناء بوشكين، ولم يعش منهم سوى ابنتيه ناتاليا وألكسندرا، في حين أحفاده يعيشون في إنجلترا، وألمانيا، وبلجيكا، وروسيا.

وفي السادس من يونيو من كل عام، يحتفل العالم وروسيا بذكرى مولده وباليوم العالمي للغة الروسية، التي تدين له بالفضل الكبير، فيما تحقق لها من إنجازات خلال القرنين الأخيرين.

2

ليرمونتوف.. أمير آخر للشعر في روسيا

في السابع والعشرين من يوليو عام ١٨٤١م سقط كبير شعراء الرومانسية الروسية في مبارزة وعمره لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين. ولعل هذا الشاعر لم ينل الاهتمام اللائق في عالمنا العربي، رغم ما قدمه من إبداعات أثرت ولا تزال في تطور الشعر الروسي الكلاسيكي.

لم يكن هذا الشاعر بأقل من سابقه ألكسندر بوشكين شاعر روسيا الأول وأمير شعرائها. ويكفي أن نقتبس مقولة كبير نقاد الأدب الروسي بيلينسكي: «كان مقدرًا ل (ليرمونتوف) أن يعبر بنفسه ويحقق بأشعاره أهدافًا أكثر سموًا (سواء من حيث متطلبات الشعر أو خصائصه أو التوقيت) من شعر بوشكين».

وُلد ليرمونتوف في موسكو عام ١٨١٤م، وكتب أول أشعاره وهو في الرابعة عشر من عمره. وكان قدر الشاعر أن يعيش في فترة من أكثر الفترات التاريخية الثورية في روسيا. فقد شهدت تلك الفترة دحر حركة الديسمبريين، ونشاط ما يعرف بالديمقراطية الثورية، كما كانت تلك الفترة من أكثر العصور رجعية وتخلفًا في تاريخ روسيا الحديث. وينحدر الشاعر من عائلة أرستقراطية، قضى طفولته في ضيعة جدته بعد وفاة أمه وهو لم يزل طفلًا. ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يقضي معهم وقت فراغه؛ولذا كان دائمًا حزينًا مكتئبًا. إلا أن وحدته تلك دعته إلى التأمل فيما حوله وتنامت قدرته على التخيل والإحساس العميق والتفكير. وقد ساعد التعليم الراقي الذي تلقاه الشاعر في صباه على تطوير موهبته؛ ففي عام ١٨٢٥م بدأ ليرمونتوف في تلقي علومه في ضيعة جدته التي جلبت له مدرسين أجانب «يوناني وفرنسي». واطلع ليرمونتوف على الكثير من الكتب،كما أتقن الإنجليزية والألمانية والفرنسية. ثم انتقل إلى موسكو وهناك شغف بالأدب، وبدأ في كتابة الشعر وكان في معظمه عن حياته الشخصية وتجاربه الحياتية حيث وصف في أشعاره معاناته من الوحدة وفقدان الأمل بالحياة وغيرها من المشاعر الحزينة التي فرضها عليها واقع حياته. وفي عام ١٨٢٩م أنهي كتابة قصيدته «مونولوج» والتي يعكس فيها أحاسيس القلق والمعاناة الداخلية.

وفي ١٨٣٠م كتب قصيدته «النبوءة» والتي تناول فيها موضوعًا سياسيًّا، وألمح إلى ضرورة القضاء على السلطة القيصرية في روسيا وقيام الثورة.

وقد شغف الشاعر بإبداعات كبار الأدباء مثل: بوشكين وشكسبير وشيلير، ولعب ذلك دورًا كبيرًا في تشكيل شخصيته كشاعر، كما تأثر كثيرًا بالشاعر بايرون وروح التمرد في إبداعاته.

وفي سبتمبر ١٨٣٠م التحق رسميًّا بجامعة موسكو وتحديدًا بكلية الآداب. وخلال فترة دراسته الجامعية قام بتأليف الكثير من القصائد الشعرية في مختلف الموضوعات سواء السياسية أو الاجتماعية، وكذلك التي تتناول الأحاسيس والمشاعر الإنسانية. ثم انتقل إلى عاصمة روسيا آنذاك «سان بطرسبورج «حيث التحق بالمدرسة العسكرية بإيعاز من جدته. وفي تلك الفترة كتب ليرمونتوف قصيدته الشهيرة «الشراع». يقول فيها:

وسط البحر وضبابه الأزرق

يلوح بياض خيال شراع وحيد

فعم يبحث في البلد البعيد؟

وماذا ترك خلفه في الوطن؟

بين عبث الموج بالموج

وهزيم الرياح

يترنح الساري يمنة ويسرة

لكنه لا يبالي

كما لو كان لم ينشد يومًا سعادة

ولم يهجر محبوبًا بإرادة....

وفي قصيدته «النبي» يتناول ليرمونتوف الدور الذي يقع على عاتق الشاعر في مجتمعه، والرسالة التي يحملها. ونقرأ فيها:

منذ أن وهبني الله الخالد بصيرة الأنبياء،

وأنا أتطلع في عيون البشر

لأرى صفحات من الشر والرذيلة

صرت أنادي بالحب وأدعو إليه،

وأنشر تعاليم الحق والدين

فأصبح كل من حولي

يرمونني بالحجارة كارهين.

وكانت أول قصيدة شعرية مطبوعة للشاعر هي قصيدة «الحاج إبريك» في عام ١٨٣٥م حيث كان كل ما كتبه الشاعر قبل ذلك معروفًا فقط في دائرة الأصدقاء والمقربين فقط. عندما مات بوشكين شهيدًا في مبارزة عام ١٨٣٧م كتب ليرمونتوف قصيدته الشهيرة «موت شاعر» والتي تسببت في نفيه إلى القوقاز في نفس العام؛نظرًا لمديحه» بوشكين»، وانتقاده ضمنيًّا للسلطات. يقول فيها:

مات الشاعر

سقط أسيرًا للشرف

تدعو الرصاصة التي في صدره للانتقام

وانحنت هامته الشامخة في النهاية

مات الشاعر

فاضت روحه ألمًا حتى الانفجار

من هول الافتراء

وقف وحيدًا في المبارزة

وها قد قتل

فكل نواح الآن لا جدوى منه

كما هي تراتيل الإطراء

وهمهمات الأسى

أمام إرادة الموت

منهج ليرمونتوف في الأدب

في عام ١٩٣٧م نشر ليرمونتوف قصيدته الشهيرة «بورودينو» والتي يصف فيها أحداث الحرب الوطنية ضد فرنسا عام ١٨١٢م. ويمتدح ليرمونتوف في القصيدة الشعب الروسي وحبه لوطنه واستعداده للتضحية في سبيله.

ويطرح ليرمونتوف بعمق في أشعاره قضايا فلسفية؛ مما يؤكد إلمامه بالفلسفة الأوروبية. وتميزت فلسفة ليرمونتوف بكونها طبيعية أو كونها فلسفة شعرية دون أن تفقد في الوقت نفسه إمكاناتها الفكرية وعمقها والدراما الغنائية والعاطفية فيها. يقوم ليرمونتوف بحل القضايا الفلسفية بطرق مختلفة معتمدًا في كل مرة على تجربة معاناة روحية أصيلة. وتبرز شخصية الشاعر في قصائد ليرمونتوف سواء في النص أو في الخلفية،و يبدو لنا إنسانًا ذا إرادة قوية جامحة. وبفضل مساعي جدته لم يبق الشاعر في منفاه طويلًا، حيث عاد في العام التالي إلى مدينة سان بطرسبورج وواصل خدمته في الجيش. وانعكس تأثره بالفترة التي قضاها في القوقاز على أعماله ومنها قصيدته الشعرية «الشيطان».

وفي عام ١٨٤٠م تعرض الشاعر لأول مبارزة في حياته وكانت ضد ابن سفير فرنسا في روسيا بسبب وشاية من بعض الأشخاص إلى ابن السفير مفادها أن ليرمونتوف قد سخر منه. وانتهت المبارزة بتصالح الطرفين. وعلم قادة ليرمونتوف في الجيش بموضوع المبارزة فحولوه إلى المحاكمة، ونفي إلى القوقاز مرة أخرى.

وفي فترة النفي الثانية اقترب ليرمونتوف أكثر من حياة السكان المحليين وعاداتهم وشارك بنفسه في العمليات القتالية. وشهد العام نفسه صدور روايته الشهيرة «بطل هذا الزمان». وقد صدرت الرواية في البداية على شكل فصول في مجلة «المذكرات الوطنية». ثم نشرت ككتاب كامل لاحقًا. وقد نفدت الطبعة الأولى من الرواية بالكامل. ويسعى ليرمونتوف في الرواية إلى رسم صورة واقعية لجيل الشباب الذي يمثله. وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه عندما قال إن هذا العمل لا يجسد حياة رجل واحد بل رذائل جيل بأكمله. «وإذا قال أحد إن الأخلاق لن تجني من ذلك خيرًا، فلا تتعجلوا، فطالما غذي الناس بالحلوى حتى فسدت معدتهم. ولزامًا عليهم الآن تجرع العقاقير المرة، وأن يتقبلوا الحقائق اللاذعة.. لقد أردت على سبيل التفكه أن أرسم صورة لإنسان هذا العصر كما فهمته، وكما رأيته في أغلب الأحيان» وفي عام ١٨٤٠م كان

الشاعر قد حسم أمره وقتها وقرر أن يكون الأدب هو هدفه الوحيد والأسمى في حياته.

وفي ربيع ١٨٤١م عاد ليرمونتوف للخدمة في القوقاز وأحس بمشاعر حزينة هذه المرة رغم حبه للقوقاز استشعر أمرًا سيئًا سيحدث. وفي طريقه إلى هناك نشب خلاف بينه وبين أحد الضباط يدعى نيقولاي مارتينوف. وحسب العادات الروسية حينها تبارز الاثنان ولم ينج ليرمونتوف هذه المرة.

ويستشعر القارئ للسطور الأولى من قصائده أنه على مشارف الدخول إلى عالم شعري فريد يفوح بالغفوة والغموض، ويتسم بالمأساوية وغلبة التراجيديا. وتمثل فكرة الحرية الموضوع الرئيس لشعر ليرمونتتوف؛ حيث وجد الشاعر في هذه الفكرة مادة مهمة جسدها في أشعاره بشغف وإصرار. وقد ساعدت إبداعات ليرمونتوف على إثارة الوعي النقدي لدى معاصريه، واستخدمها الشاعر ضد كل ما هو عنصري وغير إنساني. وبقيت أشعار ليرمونتوف حتى يومنا هذا تحافظ على قيمتها الثورية وأهميتها. ونجدها إلى اليوم تشحذ الهمم وترفع المعنويات. فأشعار ليرمونتوف ساعدت الناس حينها - كما هي اليوم أيضًا - في النضال من أجل الإنسان وقيمته وحريته وحقه في الفكر الحر الشجاع دون خوف. كما يقترب في نزعته النقدية من جوجول إلا أنه يتفوق على جوجول بقوة نبرته الاحتجاجية السياسية والاجتماعية وعمق المستوى الفكري لإبداعاته.

والطريف أن ليرمونتوف لم يستمتع بصدور كتبه في حياته حيث لم يصدر أثناء حياته سوى كتابين فقط يضم الكتاب الأول ٢٨ مقطوعة شعرية وقصيدة. أما الكتاب الثاني فيضم روايته الشهيرة «بطل هذا الزمان». إن ليرمونتوف يمكن أن يوصف بكونه أكثر الشعراء في التاريخ قدرة على التخيل؛ فهو كمن سقط من السماء إلا أنه لم يتمكن من إتمام مهمته ورسالته إلى النهاية.

لقد ترك ليرمونتوف أثرًا عظيمًا في الأدب الروسي، حيث تمثل إبداعاته مرحلة جديدة في تطور هذا الأدب وبداية ما يعرف بالنقد الثوري. ففي شخصه تجسدت للمرة الأولى وبجلاء صورة شاعر الشعب الذي يطرح في كتاباته القضايا الأخلاقية حول مصير وحقوق الإنسان الروسي. وترك ليرمونتوف فراغًا كبيرًا بعد وفاته حيث لم يظهر منافس له طوال عقدين كاملين، وقد ترك ليرمونتوف ميراثًا رائعًا استفادت منه الثقافة الديمقراطية الثورية، وعملت على إعادة صياغته وتطويره. ولم تكن وحدها التي أفادت من تراث الشاعر، بل الأدب الروسي الذي أصبحت إبداعات ليرمونتوف جزءًا عضويًّا مكونًا له، وواحدة من عناصر قوته الحيوية والمؤثرة. فنجد صوت ليرمونتوف واضحًا في إبداعات: تورجينيف وليف تولستوي ودوستويفسكي وألكسندر

بلوك وغيرهم. كما تأثر به أدباء الفترة السوفيتية بدءًا من مایاكوفسكي إلى باسترناك. ومن غير المستغرب أن يهدي باسترناك رائعته «أيا حياتي! شقيقتي» إلى ليرمونتوف.

كان ليرمونتوف مبدعًا ليس فقط في الشعر بل وفي النثر أيضًا، اتسمت إبداعاته بالشمولية وبكونها صالحة لكل زمان ومكان؛ ولذا تخطت حدود روسيا لتحتل مكانة مهمة في الأدب العالمي. ولم يكن لديه برنامج سياسي معين أو فلسفة ما، بل كان مبدعًا وقديرًا في سبر أعماق الحياة والتقاط تياراتها الخفية التي تحمل في طياتها المستقبل، أخذ شاعرنا يقنعنا بقرب قدوم هذا المستقبل، ويحلم بالإنسان الحر والمعتز بنفسه، والمرتبط ببلاده وبوعيها الشعبي. تلك هي الفكرة الخفية التي تميز كل إبداعات الشاعر ليرمونتوف وهي بمثابة علامة مميزة لها تساعد القارئ في كل العصور، على التعرف على ليرمونتوف وفهم إبداعاته ومن ثَمَّ الشغف بها.

3

نيقولاي فاسيليفيتش جوجول

(١٨٠٩ - ١٨٥٢م)

يُعد نيقولاي جوجول أحد كبار الكُتَّاب الكلاسيكيين في الأدب الروسي والعالمي، وهو ناثر وشاعر ومؤلف مسرحيات، على قدر كبير من الموهبة.

وُلد جوجول في ٢٠ مارس ١٨٠٩م في قرية من القرى التابعة لمدينة بولتافا في أوكرانيا. وتنتمي عائلته إلى الطبقة الإرستقراطية الروسية. توفي والده، وهو بعد صبيًّا في الخامسة عشر من عمره، وكانت والدته شديدة التدين. قد توفي والده وكانت الأسرة كبيرة العدد، حيث يبلغ عدد الأبناء اثني عشر، تُوفي سبعة منهم في طفولتهم. وكان نيقولاي الابن الأكبر في العائلة، وقد أحب والدته بشدة.

وقد شغف جوجول منذ صباه بالمسرح والقيام بالأدوار المسرحية؛ ويمكن أن يرجع السبب في ذلك إلى كون والده كان محبًّا للمسرح، وكاتبًا لعدد من المسرحيات.

وقد قضى جوجول طفولته في أوكرانيا، حيث عشق التقاليد والأغاني والرقصات والحكايات الشعبية؛ ولهذا نجد فيما بعد كثيرًا من مؤلفاته تدور عن الحياة في أوكرانيا.

وعندما أتم العاشرة من عمره أرسله والده للدراسة في مدينة بولتافا. حيث تعهده مدرس خاص لإعداده للالتحاق بالمدرسة. ثم التحق جوجول بالمدرسة في مدينة نيجين وقضى فيها الفترة من ١٨٢١ - ١٨٢٨م.. ورغم أنه لم يكن طالبًا مثاليًّا في الدراسة إلا أنه كان يتمتع بذاكرة قوية ساعدته على الاستعداد لاجتياز الاختبارات قبل موعدها بعدة أيام. وكان الأدب الروسي والرسم هما المادتين المفضلتين لديه. وأثناء الدراسة المدرسية أولع مثل رفاقه بأشعار بوشكين، وقاموا بإصدار مجلة حائط، كتب فيها جوجول أولى إبداعاته.

وفي عام ١٨٢٨م انتقل جوجول إلى عاصمة الإمبراطورية الروسية حينها – مدينة سان بطرسبورج. وكان حلمه أن يقوم بعمل ذي أهمية وقيمة، ويستفيد

من موهبته الطبيعية في أي من مجالات الحياة الإنسانية. وحاول أن يمتهن التمثيل في أحد مسارح بطرسبورج، كما جرب الوظيفة العادية، وكذا الكتابة. غير أنه لم يجد نفسه في أوساط الممثلين المسرحيين في العاصمة، كما لم يتقبله هؤلاء بينهم. كما بدا له العمل الوظيفي مملًّا ورتيبًا وهو ما دفعه للاستقرار نهائيًّا على تحقيق حلمه في الكتابة والإبداع الأدبي.

كان أول عمل أدبي منشور لجوجول هو قصيدته الرومانسية «هانز كيوخيلجارتين» (١٨٢٩م). إلا أنها كانت تجربة غير ناجحة. ولم يلق العمل إعجاب النقاد والقراء. حتى إن جوجول قد اضطر إلى شراء جميع النسخ من المكتبات وحرقها.

وبعد هذه التجربة الفاشلة في الكتابة توجه جوجول إلى ألمانيا وتحديدًا إلى مدينة ليوبيك. وكان لديه أحلام رومانسية، وكان يؤمن أنه سيحقق شيئًا غير عادي في الحياة. كما فكَّر في السفر إلى أمريكا أيضًا حتى يستطيع تحقيق كل ما يحلم به. غير أنه عاد مرة أخرى إلى بطرسبورج خلال شهر، وبدا العمل موظفًا في مختلف الإدارات الحكومية بالعاصمة. وفي عام ١٨٣١م تعرف جوجول على الشاعرين الكبيرين فاسيلي جوكوفسكي وألكسندر بوشكين وتاثر بهم كثيرًا وانعكس ذلك على إبداعاته.

واختار جوجول موضوعًا جديدًا للكتاب ألا وهو حياة الشعب في أوكرانيا. وطلب من والدته أن تبعث إليه بأخبار الحياة المعيشية اليومية للسكان خاصة الفلاحيين وعن معتقداتهم الدينية والأساطير والخرافات والملابس والعادات وغيرها. وفي عام ١٨٢٩م نشر جوجول أولى مؤلفاته عن الحياة في أوكرانيا ألا وهو «ليلة في شهر مايو» و«أمسية بالقرب من إيفان كوبالي» وغيرها.

وفي عام ١٨٣٤م بدأ العمل مدرسًا بقسم التاريخ بجامعة سان بطرسبورج، وكان قد كرث حياة كلها للكتابة والأدب.

وكان أول عمل أدبي كبير للكاتب هو «. أمسيات في مزرعة قرب ديكانكا» (١٨٣٢م) وقد صدر هذا الكتاب في بطرسبورج في جزئين. ويعد –بصدق - موسوعة في الحياة اليومية للفلاحيين الأوكرانيين، ويعكس بوضوح عاداتهم وتقاليدهم القديمة المتوارثة. ويتسم العمل بمسحة رقيقة من الفكاهة. وقد أعجب الشاعر بوشكين كثيرًا بالكتاب. ولقي الكتاب نجاحًا واسعًا بين النقاد والقراء. جح

وشهد العام ١٨٣٢ قيام جوجول بأول رحلة إلى موطنه في أوكرانيا منذ أن غادرها. وفي الطريق إلى هنا قام بزيارة موسكو. وواصل جوجول تناول الموضوعِ الأوكراني في كتاباته. وفي عام ١٨٣٥م أصدر مجموعتين قصصيتين

بعنوان «أرابيسك» و«ميرجورود». وجلب هذان العملان اعترافًا به ككاتب كبير في الأوساط الثقافية الروسية. ويضم كتابه «أرابيسك» مجموعته القصصية التى ألفها عن أحداث وأبطال في بطرسبورج ومنها «بورتريه» و«مذكرات مجنون» و«شارع نيفسكي». فيما ضمت المجموعة الثانية قصص «تاراس بولبا» و«قصة الشجار بين إيفان إيفانوفيتش وإيفان نيكيفروفيتش» و«ملاك زمان».

وقد حلم جوجول بأن يصبح عالم تاريخ عظيمًا. وقد شهدت ثلاثينيات القرن التاسع عشر تأسيس جامعة كييف، وسعى جوجول إلى الالتحاق بها رئيسًا لقسم التاريخ، وحلم بكتابة عمل مرجعي تاريخي كبير ألا أن أحلامه تلك لم يقدر لها أن تتحقق. غير أنه أصبح فيما بعد رئيسًا لقسم التاريخ بجامعة بطرسبورج والتى عمل بها أستاذًا حتى عام ١٨٣٥م. وخلال فترة عمله تلك قام بتأليف عدد من البحوث العلمية عن تاريخ القرون الوسطى في الشرق والغرب.

وفي عام ١٨٣٦ أصدر رائعته الجديدة الكوميديا المسرحية الشهيرة «المفتش العام» والتى يسخر فيها من طبقة الموظفين الروس والبيروقراطية الفاسدة أثناء حكم القيصر نيقولاي الأول..

وكان جوجول يعرف عن قرب بتفاصيل حياة الموظف، حيث عمل لسنوات موظفًا في بداية حياته. كما كانت له تجارب أخرى في مجال المسرحيات الكوميدية، ونذكر منها مسرحياته «اللاعبون» و«الزواج» وغيرها.

وفي عام ١٨٣٦ م قرر جوجول السفر إلى الخارج، وبقي هناك ١٠ سنوات عاش فيها متنقلًا بين فرنسا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا، وقد أعجب كثيرًا بالحياة في روما حيث أنهى فيها قصته الشهيرة «المعطف» حيث البطل الرئيس موظف بسيط وإنسان على الهامش. كما أنهي فيها قصته بعنوان «روما».

وتعج روايته «الأنفس الميتة» العمل الأهم للكاتب في تلك الفترة. وقد انتهى من العمل فيها عام ١٨٤١ وهو بعد في إيطاليا. وكان من المفترض أن تصدر الرواية في جزئين. وقد أنهى جوجول الجزء الأول بعنوان «الأنفس الميتة» في عام ١٨٤٢م. وصور فيها واقع الحياة الروسية بكل ما يعتريها من عيوب وما يميزها من إيجابيات. ويعرض جوجول للحياة اليومية الروسية سواء في طبقة الملاك أو الفلاحيين ويرسم لوحات رائعة للطبيعة الروسية. وفي عام ١٨٤٢ نشر روايته «تاراس بولبا» والتى تدور عن إحداث تاريخية واقعية

وثورة الفلاحين في أوكرانيا في عام في ١٦٣٧ - ١٦٣٨م. وقد استخدم جوجول مصادر تاريخية حقيقية أثناء كتابة الرواية.

وفي عام ١٨٤٢م وأثناء إقامته في أوروبا فكر جوجول كثيرًا في حياته ومعناها وسبب وجوده وتوجه إلى الدين. وكان عام ١٨٤٥ صعبًا على جوجول حيث مر بمحنة وأزمة نفسية صعبة حتى إنه كتب وصيته كما لو كان يستعد للموت. كما قام بحرق الجزء الثاني من روايته «الأنفس الميتة» والتى كان ينتظر نشره. حتى إنه قرر دخول الدير وأن يصبح راهبًا وينسحب من الحياة الدنيوية تمامًا. غير أنه وبعد فترة من التفكير تراجع عن أفكاره تلك.

وفي عام ١٨٤٧م صدر كتابه «مواضع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي» وكان يضم مراسلات حقيقية للكاتب مع أصدقائه.

وشهدت السنوات الأخيرة من حياته اهتمامه الشديد بموضوع الدين، وانعكس ذلك في مؤلفاته بوضوح. حيث قام بدراسة كتاب القديسين. وقي عام ١٨٤٨ قرر السفر للحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين. وبعد العودة واصل العمل في الجزء الثاني من روايته «الأنفس ا لميتة» والذي سبق وأحرقه.

وفي شتاء عام ١٨٥٢م مر الكاتب بأزمة نفسية أخرى، وكان ذلك أثناء فترة الصيام حيث قرر جوجول الالتزام بشدة به حتى يطهر نفسه من الآثام التى ارتكبها في حياته. وقد تحول الصيام عنده إلى ما يشبه الإضراب التام عن الطعام حتى خارت قواه تمامًا ولم يفلح أصدقاؤه أو الأطباء بإقناعه بالعدول عن ذلك. وأدى ذلك إلى وفاته في ٢١ فبراير ١٨٥٢م.

4

فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي

(١٨٢١ - ١٨٨١م)

هو كاتب روسي عظيم فيلسوف شهير ينتمي إلى القرن التاسع عشر، ويُعد من كبار الكلاسيكيين في الأدب الروسي والعالمي.

نشأة الكاتب

وُلد في الثلاثين من أكتوبر عام ١٨٢١م بمدينة موسكو، وينتمي أبوه إلى عائلة أرستقراطية، أما والدته فكانت ابنة أحد التجار. وكان عدد الأبناء في الأسرة ثمانية. كانت عائلته ثرية؛ ولذا حصل كاتبنا على تعليم مميز.

وفي الفترة من ١٨٣٤ - ١٨٣٧م درس دوستويفسكي مع أخيه الأكبر في مدرسة بمدينة موسكو. ثم انتقل عام ١٨٣٧ إلى مدينة سان بطرسبورج حيث التحق فيها بمدرسة الهندسة العليا والتى كانت تعد حينها من أرقى المؤسسات التعليمية. ودرس الكاتب هناك العلوم الهندسية والإنسانية أيضًا. ولم يكن دوستويفكسي يرغب في العمل مهندسًا حيث كان يحلم دائمًا أن يصبح كاتبًا وأديبًا. عمل مهندسًا لعامين فقط ثم استقال عام ١٨٤٤ وكرَّس حياته للأدب وحده.

وفي يناير عام ١٨٤٤م قام دوستويفسكي بترجمة رواية بلزاك «اوجيني جراندي» من الفرنسية. ونشرت هذه الترجمة دون الإشارة إلى اسم المترجم. وفي مايو ١٨٤٥م كتب دوستويفكسي قصة قصيرة فكاهية بعنوان «رواية في تسع خطابات». كما نشر له أيضًا قصص «السيد بروخارتشين» (١٨٤٦م) و«اللص الشريف» (١٨٤٨م) و«شجر عيد الميلاد والعرس» (١٨٤٨م). كما بدأ في كتابة القصة، حيث نشر له عام ١٨٤٨م قصتين وهما «سيدة المنزل» و«قلب ضعيف».

وفي عام ١٨٤٦ تعرَّف دوستويفسكي على منظمة سياسية رؤسها ميخائيل بيتروشيفسكي. وكانمت تدعو إلى حرية الكلمة ونشر الكتب وإلى إصلاح النظام القضائي وتحرير الفلاحين.

وفي عام ١٨٤٨م شكلت هذه المنظمة جمعية سرية تضم سبعة من الأعضاء شديدة الحماسة للتغيير، وكان كاتبنا واحدًا منهم. وترأس هذه الجمعية الشيوعي ن. سبيشنيف. وقد سعى هؤلاء الأعضاء إلى تنظيم انقلاب سياسي في روسيا وإعلان حرية النشر وإصدار الكتب.

وفي خريف عام ١٨٤٨م نشر دوستويفسكي قصته الشهيرة «الليالي البيضاء» في مجلة «مذكرات وطنية».

في إبريل عام ١٨٤٩م تم اعتقاله بعد اتهامه بالانتماء إلى منظمة سياسية. كما تم اعتقال العديد من أعضاء المنظمة السرية. وقضي دوستويفسكي في المعتقل السري فترة ثمانية أشهر كاملة في داخل قلعة (بيتر باول) بمدينة سان بطرسبورج. وكان هذا هو السجن المركزي والأكبر في روسيا ومخصصًا للمعتقلين السياسيين. وكانت الظروف داخل السجن شديدة القسوة. فقد كان يمنع على المساجين ممارسة أي نشاط بدني وكانوا معزولين في غرف انفرادية. وكانت السلطات تبرر ذلك بكون هؤلاء المساجين شديدي الخطورة على الدولة. وفي فترة سجنه كتب دوستويفسكي قصته القصيرة «البطل الصغير» (١٨٤٩م)

وفي أثناء محاكمته لم يعترف دوستويفسكي بذنبه غير أنه تم اتهامه ولقب بأنه من أعتى المجرمين. وأخطرهم. وقد حكمت عليه المحكمة في البداية بالإعدام، وحدد له تاريخ الثاني والعشرين من ديسمبر ١٨٤٩م. غير أن السلطات قررت في اللحظة الأخيرة استعمال الرأفة مع المحكومين واستبدال هذه العقوبة بالأشغال الشاقة. واتضح أن تنظيم منصة الإعدام في ديسمبر ١٨٤٩ لم تكن سوى مسرحية من السلطات كانت بمثابة تحذير للسكان ونوع من التعذيب النفسي للمعتقلين أيضًا. حتى إن أحد المحكومين فقد عقله بسبب هذا الضغط النفسي الشديد.

ثم تم إرسال دوستويفسكي ورفاقه المحكومين إلى سيبيريا لتنفيذ حكم الأشغال الشاقة. حيث قضى الكاتب أربع سنوات بمدينة أومسك في سيبيريا ولم يكن لديه الحق في كتابة خطابات لأصدقائه أو أقاربه. وعندما مرض ونقل إلى المستشفى قام بشكل سري بكتابة مذكراته التى وصف فيها مشاعره وأحاسيسه في المعتقل. ودوَّن ذلك في كراسة أطلق عليها «كراسة سيبيريا». وبعد خروجه من السجن تناول دوستويفسكي حياته هناك في قصته «مذكرات

من بيت الموتى». وفي المعتقل تعرف الكاتب على الكثير من الفلاحين الروس، واقترب من مشكلات الشعب البسيط وطريقة تفكيره. ولم يكن ذلك متاحًا له في الماضي لكونه ينتمي إلى عائلة أرستقراطية.

وفي عام ١٨٥٤م خرج الكاتب من السجن، وقضى شهرًا في مدينة أومسك. ثم انتقل للخدمة بالجيش في رتبة عسكري أو جندي بسيط في فرقة سيبيريا والتى تتمركز في مدينة سيميبالاتينسك، وتقع على أراضي جمهورية كازاخستان.

وبعد وفاة الإمبراطور نيقولاي الأول في عام ١٨٥٥م كتب دوستويفسكي قصيدة مديح للقيصر وحكمه، بعث بها إلى أرملة الإمبراطور ألكسندرا فيدوروفنا. وبفضل هذه القصيدة تمت ترقيته في الجيش لرتبة ضابط، كما منح الحق في نشر مؤلفاته، وهو الأمر الذي أسعده كثيرًا.

وكانت قصته القصيرة «البطل الصغير» (١٨٥٧م) هي أول عمل أدبي نشر له بعد خروجه من السجن. وفي السادس من فبراير عام ١٨٥٧م تزوج دوستويفسكي من ماريا دميتريفنا ايسايفا، وفي نفس العام حصل الكاتب على عفو عام، وأعيد إليه لقب نبيل.

تغيرت أفكار وآراء الكاتب بعد انتهاء فترة سجنه، حيث أصبح أكثر تدينًا وأصبحت الديانة المسيحية هي الفكرة الأساسية التى تسيطر على عقله ووجدانه. وأخذ من شخصية المسيح مثالًا يحتذيه في كل تصرفاته وطريقة عيشه حتى مات.

وفي عام ١٨٥٩م نشرت مجلة «مذكرات وطنية» قصتين للكاتب وهما «حلم العم» و«قرية ستيبانشيكوفا وأهلها».

وفي الثلاثين من يونيو ١٨٥٩م منح تصريح مؤقت للسفر من كازاخستان فتوجه مع زوجته إلى مدينة تفير الروسية والتى تقع بالقرب من موسكو. وفي ديسمبر ١٨٥٩م عاد مع أسرته إلى سان بطرسبورج. وعلى الرغم من الإفراج عنه إلا أن السلطات ظلت تراقبه بشكل سري حتى منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وفي عام ١٨٦٠م تم طباعة جزئين من المجموعة الكاملة لأعماله. ثم سرعان ما قام دوستويفسكي بنشر قصته «مذكرات من بيت الموتى» والتى تعد أول محاولة لكاتب روسي لتصوير واقع الحياة داخل معتقلات سيبيريا. وقد لقي العمل استحسان وإعجاب القارئ الروسي، وذاع صيت دوستويفسكي ليس فقط في روسيا بل وفي العالم كله.

وفي عام ١٨٦١م قام دوستويفسكي مع أخيه بإصدار مجلة سياسية وأدبية جديدة تحمل اسم «العصر». وفي عام ١٨٦٣م تم إغلاق المجلة فأصدر الكاتب مع أخيه مجلة أخرى تحمل اسم «العهد» ونشر فيها عددًا من مؤلفاته مثل: «مذلون مهانون» و«ملاحظات شتوية عن انطباعات صيفية» و«مذكرات من باطن الأرض».

وفي عام ١٨٦٤م قام الكاتب برحلة إلى أوروبا، حيث فتن بلعب القمار، وأنفق عليه كل ماله حتى أفلس. وفي نفس العام فقد أخيه وزوجته.

ويرصد النقاد خمسة أعمال للكاتب يطلقون عليها «الخماسية العظيمة» وتضم رواياته «الأبله» و«الجريمة والعقاب» و«الشياطين» و«المراهق» و«الإخوة كارامازوف».

ففي روايته الشهيرة «الجريمة والعقاب» يطرح الكاتب معتقداته وآراءه الإنسانية. ومن خلال البطل الرئيس للرواية راسكولنيكوف يظهر المؤلف أن الإنسان يمكن أن يُقدم على الجريمة لتحقيق هدف ما ولكنه في النهاية وبعد أن يرتكب الجريمة يعي أنه لا يوجد هدف في الحياة يستحق من أجل تحقيقه أن يقتل إنسانًا آخر.

ويتحدث دوستويفسكي في «الجريمة والعقاب» أن الحياة في وفق المعتقدات الدينية وتحقيق الهارموني والاتحاد بين الإنسان والله هو الطريق الوحيد والمتاح للإنسان. كما يتناول الكاتب موضوع الموت. ويرى أنه يتوجب على الإنسان أن يفهم أن الموت أمر محتم؛ ولذا ينبغي أن يسعد بحياته بوصفها هدية من الله؛ ولذا نجده في الرواية يظهر كيف يمكن للظروف الحياتية أن تدفع الإنسان لارتكاب جريمة إلا أن المجرم يجب وأن يتحمل العقاب والعقاب الأشد هو العقاب الإلهي. وأن السبيل الوحيد أمام البطل للتكفير عن ذنبه هو التوبة والحياة وفق تعاليم الدين.

وفي عام ١٨٦٧م تزوج دوستويفسكي للمرة الثانية من سيدة تدعى انا سنيتكينا دوستويفسكايا. وسافر الزوجان إلى أوروبا وساعدته زوجته على ترك لعبة الروليت التى أفقدته الكثير من ثروته. وأنجب من زوجته هذه أربعة أطفال. وبعد عودتهما إلى روسيا عاشا في مدينة ستاريا روس بالقرب من مدينة نوفجورود. وقضى في هذه المدينة الصغيرة ست سنوات حتى ١٨٧٨م، وكانت تلك فترة مثمرة في حياته، حيث كتب فيها رواياته «الشياطين» و«المراهق» وغيرها.

وفي عام ١٨٧٨م عاد الكاتب إلى بطرسبورج، وعاش بها وتحولت الشقة التى عاش فيها الآن إلى متحف أدبي، وفيها أبدع الكاتب رائعته «الإخوة

كارامازوف».

حدثت واقعة مهمة في حياة دوستويفسكي في تلك الفترة، حيث دعاه الإمبراطور ألكسندر الثاني كي تتعرف عليه عائلته.

وفي عام ١٨٨١م تُوفي دوستويفسكي في شقته في سان بطرسبورج.

5

ليف نيقولايفيتش تولستوي

(١٨٢٨ - ١٩١٠م)

يُعتبر تولستوي أديبًا روسيًّا كبيرًا وكاتبًا واقعيًّا وفيلسوفًا وأحد أهم كلاسيكي الأدب الروسي والعالمي.

وُلد تولستوي في عائلة أرستقراطية في عام ١٨٢٨م في قرية تقع بالقرب من مدينة تول. وتوفيت أمه وهو بعد طفلًا رضيعًا لم يبلغ العامين. وقامت إحدى أقربائهم وتدعى تايانا يرجولسكايا بتربيته وأخواته الأربعة.

وفي عام ١٨٣٧ انتقلت الأسرة إلى مدينة موسكو. وتوفي أبوه فعاد تولستوي مع إخوته إلى قريته في ياسنايا بوليانا، وعاش فيها حتى عام ١٨٤٠م. ثم انتقلت الأسرة إلى مدينة كازان، حيث تولت عمتهم رعايتهم، وكانت تدعى براسكوفيا يوشكوفا.

وقد تلقى تولستوي تعليمه الأولي على يد مدرسين أجانب من فرنسا وألمانيا. وعندما انتقل إلى بيت عمته في كازان التحق بجامعة كازان. وفي عام ١٨٤٤م التحق بكلية الاستشراق جامعة كازان بقسم اللغات العربية والتركية. وقد اجتاز تولستوي اختبارات القبول بنجاح، غير أنه واجه صعوبات أثناء دراسته للغات الشرقية، واتخذ قرارًا بالانتقال إلى كلية أخرى وهي الحقوق.

وفي الحادي عشر من مارس ١٨٤٧م مرض تولستوي ومكث في مستشفى كازان لفترة، وفي تلك الفترة كتب يومياته التى وصف فيها حياته والأحداث التى مرت به، وقد استمر في كتابة يومياته حتى وفاته. وفي عام ١٨٤٧م ترك الدراسة بالجامعة وتوجه إلى ضيعة ياسنايا بوليانا والتى آلت إليه ملكيتها بعد وفاة أبيه. وخلال إقامته في ضيعته سعى تولستوي لإقامة علاقة جيدة مع الفلاحين حتى إنه قام بافتتاح مدرسة لأطفالهم، وكان يقوم بالتدريس فيها أحيانًا.

وفي يومياته يصف تولستوي الأهداف التى وضعها نصب عينيه في شبابه. وكان منها - على سبيل - المثال تعلم اللغة الإنجليزية والموسيقى والتشريع.

وفي أكتوبر ١٨٤٨م سافر تولستوي إلى موسكو بهدف دراسة الدكتوراة. غير أنه لم يبدأ الدراسة، حيث شغل وشغف بحضور فعاليات النخبة المثقفة والعلمانية في موسكو، وهناك وقع فريسة للعب القمار، وخسر الكثير من ماله.

وفي فبراير ١٨٤٩م سافر تولستوي إلى بطرسبورج وهناك اجتاز بنجاح امتحانات القبول لدرجة الدكتوراه في كلية الحقوق إلا أنه فشل في اجتياز الامتحان الثالث والأخير فعاد مرة أخرى إلى ضيعته.

وفي تلك الفترة شغف تولستوي بالموسيقى وكان يجيد اللعب على البيانو. وكان عاشقًا لكبار الموسيقيين مثل باخ وشوبين. ومنذ عام ١٨٤٩م حضر إلى قرية ياسنايا بوليانا موسيقي يدعى رودولف فكان يقضي أوقاتًا كثيرة بصحبته في العزف حتى إنهما كانا يعزفان سويًّا بأيديهم الأربعة.

وفي عام ١٨٥٢ نشر في مجلة «المعاصر» كتابه «الطفولة» وكان وقتها كاتبًا غير معروف فوقع بالحروف الأولى فقط من اسمه. وتعد قصة «الطفولة» بمثابة سيرة ذاتية للكاتب، حيث يصف فيها معاناته النفسية أثناء سنوات الطفولة والمشكلات التى واجهها والحب الأول. وقد لقيت القصة نجاحًا كبيرًا بين القراء في روسيا، وكتب النقاد الروس حينها أن تولستوي يمتلك مهارة التعبير عن أعماق النفس الإنسانية وتحليلها بدقة، ويطرح أفكارًا فلسفية مهمة ووضعوه في مصاف كبار الكتَّاب الواقعيين في تلك الفترة.

وفي عام ١٨٥٤م نشر تولستوي في نفس المجلة «المعاصر» قصته الثانية بعنوان «الصبا» والتى تعد استكمالًا لقصته الأولى. وهنا يصف الكاتب حياته في سن المراهقة والأحداث في روسيا في نهاية القرن التاسع عشر.

وفي أثناء الخدمة العسكرية شارك تولستوي في معارك شرسة في القوقاز وكذا في حرب القرم. ومن أشهر المعارك التى خاضها كانت موقعة الدفاع عن مدينة سيفاستوبول بالقرم.

وفي عام ١٨٥٥م انتهى تولستوي من كتابة ثلاث قصص قصيرة عن الحرب وأطلق عليها اسم «قصص سيفاستوبول». ونشرت جميعها في مجلة «المعاصر» وقد أعجب بها الإمبراطور ألكسندر الثاني حينها كثيرًا، وتم منح تولستوي العديد من الأوسمة والجوائز نظير اشتراكه في القتال ومؤلفاته تلك.

وفي ١٨٥٦م استقال تولستوي نهائيًّا من الخدمة العسكرية، وانتقل إلى سان بطرسبورج وشهد هذا العام صدور قصته «العاصفة الثلجية». وفي عام ١٨٥٧م نشر تولستوي الجزء الأخير من سيرته الذاتية والتى ضمت في جزئيها

الأول والثاني قصتي «الطفولة» و«الصبا». وأطلق على الجزء الثالث عنوان «الشباب» وفيه يتناول الكاتب مرحلة الجامعة وعلاقة البطل بأصدقائه ونظرته للعالم.

وفي عام ١٨٥٧م قرر تولستوي السفر من بطرسبورج في رحلة إلى أوروبا زار فيها فرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وإنجلترا. وقد تركت هذه الرحلة أثرًا سيئًا في نفسه، حيث أصيب الكاتب باليأس والإحباط مما شاهده من قيم ثقافية في الغرب. وقد صور ذلك في قصته القصيرة «لوسرن».

وفي عام ١٨٥٩م أصدر تولستوي قصته «الوفيات الثلاثة» وروايته «السعادة الأسرية».

وفي ١٨٦٢م سافر تولستوي إلى قرية تسمى كاراليك وتقع بالقرب من مدينة سامار الروسية وكان أغلبها من الشعب البشكيري، وقد أراد تولستوي أن يعالج هناك بحليب الخيول والتى يطلق عليه البشكيريون «كوميس». وأقام هناك في كهف بشكيري بسيط يسمى «يورطا». وقد أعجب الكاتب كثيرًا بهذا المكان حتى إنه اشترى ضيعة هناك وكثيرًا ما كان يسافر إليها.

ثم واصل تولستوي بعد عودته إلى قريته ياسنايا بوليانا التدريس لأطفال الفلاحين واستكمال بناء المدرسة الخاصة بهم وتطويرها. وقد أرسى الكاتب نوعًا جديدًا من العلاقة بين المدرسين ونظامًا جديدًا للحياة بين التلاميذ. فلم يكن هناك نظام صارم للتدريس أو مقررات ثابتة بل كان كل تلميذ يمتلك مساحة كبيرة من الحرية. وكان الشرط الوحيد هو أن تكون العلاقة بين المدرس والتلميذ مثالية وكانت مهمة المدرس الأساسية ان يجذب اهتمام التلميذ وينمي فيه حب المعرفة. وفي ١٨٦٢م بدا تولستوي في إصدار مجلة تربوية بعنوان «ياسنويا بوليانا».

وفي عام ١٨٦٢ تزوج تولستوي من فتاة قروية تدعى صوفيا اندريفنا بيرس أنجبت له ثلاثة عشر طفلًا إلا أن خمسة منهم ماتوا في سن صغير. وفي عام ١٨٦٣م صدرت قصة تولستوي «القوزاق» والتى يصف فيها حياة هذا الشعب في القوقاز. وقد كتبه من وحي تجربته الشخصية والسنوات التى عاشها هناك أثناء خدمته العسكرية.

خلال السنوات الست من ١٨٦٣ - ١٨٦٩م عمل تولستوي على كتابة ملحمته الشهيرة «الحرب والسلام» والتى نالت نجاحًا وشهرة واسعة بين القراء وأهدت كاتبها شهرة عالمية. ويصف الكاتب في الرواية أحداث الحرب بين روسيا وجيش نابليون. وتعد الرواية عملًا نادرًا في الأدب الروسي عكس كل جوانب الحياة وكل طبقات المجتمع الروسي من الأرستقراطيين وحتى

الجنود والفلاحين البسطاء. ويولي الكاتب اهتمامًا خاصًّا فيها بموضوع الوطنية الحقيقية والحب الحقيقي للوطن.

وفي الفترة من ١٨٧٣ - ١٨٧٧ انشغل تولستوي في كتابة رائعته «انا كارينينا» والتى نالت بدورها شهرة عالمية واسعة. ويتناول فيها الكاتب موضوع الحياة العائلية ومكانة ووضع المرأة في الأسرة والمجتمع.

وقد أحب تولستوي الفلكلور الروسي كثيرًا والحكايات والأساطير والأغاني الشعبية الروسية؛ ولذا نجد الكثير من مؤلفاته تزدني بموتيفات الإبداع الشعبي الروسي. ومنها على سبيل المثال قصصه «بم يحيى الناس؟» (١٨٨١) و«العجوزان» (١٨٨٥م) و«الأخوات الثلاثه» (١٨٨٥م) و«الصلاة» (١٩٠٥م) و«العجوز في الكنيسة» (١٩٠٧م)

وفي السنوات الأخيرة من مشواره الإبداعي اتجه تولستوي إلى موضوع الفلسفة الدينية وطرح رؤيته وتصوراته الفلسفية وما خلص إليه من نتائج من خبراته الحياتية في كتابه «الاعترافات» والذى هو سيرة ذاتية للكاتب. وصدر في عام ١٨٨٤م. كما تناول في العقيدة المسيحية ورؤيته حولها في كتبه «الشيطان» (١٩١١م) و«البعث» (١٨٩٩). وقد تعرض تولستوي بالنقد في روايته «البعث» لبعض الطقوس التى تمارس في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. وكان ذلك سببًا في أن تقوم الكنيسة في عام ١٩٠١م بطرده أي عدم الاعتراف به كمسيحي. وبعد تفكير عميق في معنى الحياة وأصلها قرر نهائيًّا العودة إلى قواعد الدين المسيحي. حتى إنه امتنع تمامًا عن أكل اللحوم وأصبح يرتدي ثيابًا بسيطة ورخيصة تمامًا وأصبح يعيش كإنسان بسيط فقير.

وفي عام ١٩٠٠م كتب تولستوي مسرحيته «الجثة الحية» والتى نشرت بعد وفاته. وفي عام ١٩١٢م صدرت له قصة «الحاج مراد» والتى تصف فيها أحداث الحرب التى خاضها الإمام شامل في القوقاز.

وفي عام ١٩١٠م اتخذ تولستوي قرارًا بالانعزال عن أسرته وغادر سرًّا ضيعته في قرية ياسنويا بوليانا. وتوجه في رحلة إلى المدن الروسية، وفي أثناء سفره داهمه المرض بشدة وتوفي في السابع من نوفمبر عام ١٩١٠ في محطة السكك الحديدية بالقرب من مدينة ريزان. ودفن تولستوي في ضيعته، وشارك الآلاف في جنازته.

في ذكرى مرور ٢٠٠ عام على مولده

«إيفان تورجينيف».. أفضل من تغنَّى بالطبيعة

يعد «إيفان تورجينيف» (١٨١٨ – ١٨٩٣م) واحدًا من أهم كُتَّاب العالم في القرن التاسع عشر، وأحد كبار الكُتاب في العصر الذهبي للأدب الروسي. استطاع هذا الكاتب، الذي نحتفل هذا العام بمرور ٢٠٠ عام على ميلاده، تأسيس منظومة فنية جديدة، كان لها عظيم الأثر في إحداث ثورة في بنية الرواية، ليس في روسيا بل في العالم بأكمله.

تعرَّضت كتاباته في حياته مرات للمديح، ومرات أكثر للانتقاد، فيما قضي هذا الأديب سنوات حياته بحثًا عن الطريق الذي يجب أن تسلكه روسيا نحو الازدهار والرخاء.

ويُعد- بحق- أستاذًا ورائدًا في التحليل النفسي، وكان له أثر عظيم في تطور الأدب والثقافة الروسية.

تعود أسرة «تورجينيف» إلى أصول أرستقراطية، حيث كان أبوه «سيرجي تورجينيف» من قادة سلاح الفرسان، وأمه «فارفارا لوتوفينوفا» من المُلَّاك وأصحاب الأراضي الأثرياء. وُلد «تورجينيف» في مدينة أريول الصغيرة في عام ١٨١٨م، وفي سن التاسعة انتقلت الأسرة إلى موسكو، وبعد وفاة أبيه، سافر الشاب «تورجينيف» إلى بطرسبورج، حيث التحق هناك بكلية الفلسفة، وفي عام ١٨٣٦م عرض أولى أشعاره على الأديب «بيتر بليتنيف» الذي قام بدعوة الشاعر الشاب إلى أمسية شعرية وأدبية، وهناك التقى- للمرة الأولى- الشاعر الروسي العظيم «ألكسندر بوشكين»، وفي أثناء دراسته الجامعية كتب أكثر من مائة قصيدة شعرية، وفي عام ١٨٣٨م نشر «تورجينيف» أولى قصائده الشعرية في مجلة «سوفريمينيك» (المعاصر). وفي العام نفسه، توجَّه إلى ألمانيا. كانت الرغبة في استكمال دراسته تمتزج مع رفضه للواقع الروسي وكراهيته للقانون الإقطاعي القائم. وعاش «تورجينيف» في برلين لمدة عام تردد فيها على محاضرات بالجامعة، ودرس اللغات الكلاسيكية، وكتب الشعر، وعاد إلى روسيا لفترة قصيرة، ثم سافر مرة أخرى إلى إيطاليا وألمانيا.

وبعد إنهاء دراسته الجامعية، سافر «تورجينيف» إلى أوروبا لمواصلة دراسته، وتوصل إلى نتيجة مفادها: أنه على روسيا التخلص من الجهل الذي تعاني منه، وأن تتبع النموذج الأوروبي.

وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر، عاد إلى وطنه روسيا، وتعرَّف على كبار الكُتاب الروس حينها، أمثال: «جوجول»، و«أكساكوف»، و«خومياكوف»، و«دوستويفسكي».. وغيرهم.

وفي نهاية الأربعينيات، كتب العديد من المسرحيات، منها: مسرحية «الأعزب» و»شهر في قرية» و»فتاة القرية» التي نالت شهرة ونجاحًا كبيرًا بين الجمهور والنقاد. وبعدها بسنوات قليلة صدرت مجموعة القصص القصيرة «مذكرات صياد»، والتي عكست كراهية الكاتب لنظام الإقطاع السائد في روسيا حينها. ونلحظ من خلال هذه المجموعة القصصية موهبة الكاتب الكبيرة، وفهمه العميق وإحساسه بالطبيعة. ويُعد هذا الكتاب من بين أوائل المؤلَّفات التي تتحدث عن مآسي نظام الإقطاع. وقد حُكم على الرقيب الذي سمح بنشر المجموعة بالإحالة إلى التقاعد، وحرمانه من مستحقاته المالية، فيما تم منع إعادة نشر الكتاب مرة أخرى. وأُتهم «تورجينيف» بأنه يقوم بعملية تسييس للأمر، ومبالغة في تصوير معاناة الشعب من سطوة مُلَّاك الأراضي الزراعية.

وفي عام ١٨٥٦م، صدرت أولى روايات الكاتب التي تحمل عنوان «رودين»، وقد استغرقت كتابة الرواية سبعة أسابيع فقط، وأصبح اسم البطل رمزًا للإنسان الذي لا تتفق أقواله مع أفعاله، وكانت هذه الرواية بمثابة انطلاقة لسلسلة من أعمال «تورجينيف» الكبيرة التي تتمحور حول شخصية البطل المفكر، صاحب الأيديولوجية، الذي يرصد «الواقع السياسي والاجتماعي». وطرح المؤلف قضية الأهمية الاجتماعية لهؤلاء الناس من أمثال «رودين»، ودورهم في تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي. وبعد ثلاث سنوات صدرت روايته الجديدة «بيت النبلاء»، والتي لاقت نجاحًا منقطع النظير في روسيا، حتى إنه يمكن القول: إنه لا يوجد شخص متعلم في روسيا إلا وقد قرأ هذه الرواية. تمحورت الرواية حول قصة حب عميق في مأساويته، وهي في الوقت ذاته رواية عن الواجب الأخلاقي، والإيثار، ومعنى الحياة.

وفي بداية الستينيات من القرن التاسع عشر، صدرت مقتطفات من روايته الأشهر «آباء وأبناء». وتتناول الرواية المزاج الشعبي في تلك الفترة، وخاصة الرؤي العدمية التي سيطرت علي شباب روسيا. وقد وصفه الكاتب والفيلسوف الروسي «نيقولاي ستراخوف» قائلًا: «أظهر تورجينيف مقدرة كبيرة على الحفاظ على روعة الأدب، وفي الوقت نفسه على توظيفه في خدمة المجتمع».

ونالت الرواية استحسان النقاد، غير أنها هُوجمت من قِبل الليبراليين، وساءت علاقة «تورجينيف» بالكثير من أصدقائه في تلك الفترة، ومنهم على

سبيل المثال: الكاتب «ألكسندر جيرتسين» الذي كان يري أن مستقبل روسيا الحقيقي في تحقيق الاشتراكية الزراعية، معتبرًا أن أوروبا البرجوازية قد انتهت، فيما كان «تورجينيف» يدافع عن فكرة دعم روابط الثقافة بين روسيا والغرب.

ناصر «تورجينيف» هذه الفكرة بقوة حتى أطلق البعض عليه لقب «الكاتب الأوربي» في الأدب الروسي. لكنه تعرَّض لانتقادات لاذعة مع صدور روايته الجديدة «الدخان»؛ لأن تلك الرواية كانت تسخر بشدة من الطبقة الأرستقراطية المحافظة في روسيا، ومن طبقة الليبراليين الداعين للثورة في الوقت نفسه.

وفي سبعينيات القرن التاسع عشر، عاش «تورجينيف» في باريس، وكان نادرًا ما يزور وطنه روسيا، وشارك الكاتب بشكل نشط في الحياة الثقافية في أوروبا الغربية، ودعا الأوروبيين لقراءة الأدب الروسي والثقافة الروسية، وكانت هناك اتصالات ورسائل بينه وبين «تشارلز ديكينز»، و«جورج ساند»، و«فيكتور هوجو»، و«جان دي موباسان»، و«جوساتف فلوبير».. وغيرهم.

وفي النصف الثاني من السبيعينيات نشر «تورجينيف» روايته الكبري «الأرض العذراء» التي انتقد فيها بشدة أعضاء الحركة الثورية في سبعينيات القرن التاسع عشر.

وقد كشفت أعماله الأخيرة عن اغترابه الشديد عن روسيا. وبالطبع لم تلق الرواية الأخيرة قبولًا من رفقائه، حتى إن الكاتب الكبير «سالتيكوف شيدرين» وصف الرواية بأنها «قدَّمت خدمة عظيمة للحُكم المطلق في روسيا»، غير أن أعمال «تورجينيف» السابقة ظلت تحظي بشهرة وانتشار واسعين.

ونال الكاتب في سنواته الأخيرة شهرة كبيرة، سواء في روسيا أو في خارجها. وكان كتابه الأخير بعنوان «أشعار نثرية» التي بدأها بقصيدة بعنوان: «القرية»، وختمها بأخري بعنوان «اللغة الروسية». وكانت هذه المجموعة الشعرية بمثابة وداعٍ للأديب مع الحياة والفن عمومًا.

وفي تلك الفترة أيضًا التقى «تورجينيف» مع حبه الأخير الفنانة «ماريا سافينا»، وكانت تبلغ من العمر ٢٥ عامًا فقط. ورغم اعترافه بحبه لها فإنها كانت تعتبره صديقًا يعتمد عليه، ولم تكلل العلاقة بالزواج.

ومرض تورجينيف مرضًا شديدًا في نهاية حياته، وتُوفي في الثالث من سبتمبر عام ١٨٨٣م في باريس. ونظمت مراسم جنازة ضخمة للأديب الكبير في باريس، ثم تم نقله إلي بطرسبورج الروسية، حيث دُفن هناك، وكانت

وفاته بمثابة صدمة عنيفة لمحبيه واحتشد الجماهير بعشرات الآلاف في وداعه.

تغنَّي «تورجينيف» بالطبيعة في كل أعماله تقريبًا، فالطبيعة لديه لا تنفصل عن حياة البطل، ومزاجه وعالمه الداخلي ومعاناته. وصْف الطبيعة لديه ليس فقط مسهبًا وباستخدام ألفاظ جميلة وعبارات مبهرة، بل وتحمل في طياتها زخمًا شعوريًّا ونفسيًّا قويًّا، يترك تأثيره على القارئ. استخدم «تورجينيف» وصف الطبيعة للكشف عن العالم الداخلي لأبطاله، وفي كثير من المرات عن معاناته الشخصية، وكثيرًا ما يبدو مهمومًا بكشف ألغاز الطبيعة والعالم المحيط. وقد استفاد الكاتب من إتقانه للغة الروسية، ومفرداته في التعبير عن جمال الطبيعة.

ظل «تورجينيف» من أكبر أدباء روسيا، وظلت أعماله حتى يومنا هذا، وستبقى لكون القضايا التي تناولها تتسم بالخلود. ويُعد- بحق- أقدر أدباء روسيا على الكتابة بحِرفية وإتقان وفهم لبناء النص، حتى إن القارئ العادي يجد صعوبة بعض الشيء في فهم كتاباته وتذوقها. وسيظل اسمه لعقود وقرون أخرى عديدة لكونه خاض طيلة حياته نضالًا حقيقيًّا من أجل القارئ، وقدم للعالم مثالًا فريدًا لكيفية ربط النص الأدبي بالأيديولوجيا.

6

أنطون بافلوفيتش تشيخوف

(١٨٦٠ - ١٩٠٤م)

يُعد أنطون تشيخوف من كبار الكُتَّاب الروس في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد اشتهر ككاتب ومؤلف مسرحي، بلغ عدد مؤلفاته أكثر من تسعمائة عمل، تُعد من كلاسيكيات الأدب الروسي. وقد نالت أعماله شهرة واسعة على مستوى العالم، وترجمت إلى أكثر من مائة لغة أجنبية بما فيها العربية.

وُلد الكاتب في مدينة تاجانروج في جنوب روسيا في عام ١٨٦٠م، وتلقى تعليمه في مدرسة يونانية بالمدينة في البداية، ثم انتقل إلى مدرسة للبنين في عام ١٨٦٨م، وقد شغف تشيخوف بالأدب منذ طفولته، وبدأ في تجربة نفسه في الكتابة حيث صدر أول أعماله وهو لم يبلغ الثامنة عشر من عمره بعد، ويحمل عنوان «اليتم» وقد انتهى من هذا العمل أثناء دراسته بالمدرسة، وكان يستخدم اسمًا أدبيًّا مستعارًا، وهو تشيخونتي.

وفي عام ١٨٧٩ أنهى تشيخوف دراسته، وانتقل إلى مدينة موسكو، حيث التحق بكلية الطب جامعة موسكو. وأنهى دراسته بالجامعة عام ١٨٨٤م، وعمل طبيبًا في المستشفى.

وفي أثناء دراسته الجامعية أنهى تشيخوف كتابة عدد من المؤلفات، نشرت في مجلات ساخرة في موسكو وسان بطرسبورج. وحيث صدرت له أولى مجموعته القصصية والتي تحمل عنوان «حكايات ميلبومينا»

وفي الفترة من ١٨٨٥ - ١٨٨٦م كتب تشيخوف عددًا كبيرًا من القصص القصيرة. وكانت فترة مثمرة في حياته حتى إنه قال عنها لاحقًا إنه كان يكتب كل يوم قصة قصيرة.

وفي عام ١٨٨٧ توجَّه تشيخوف إلى جنوب روسيا لزيارة المدينة الأم، وسافر من هناك إلى القرم ثم إلى القوقاز. وقد تركت هذه الرحلة في نفسه أثرًا عظيمًا، وهو ما انعكس في قصته الشهيرة «السهوب» والتى نشرت في

مجلة «أخبار الشمال». وقد لاقت هذه القصة إعجاب واستحسان القراء، وذاع صيته في أنحاء روسيا.

وفي عام ١٨٨٨م حصل تشيخوف على جائزة بوشكين من أكاديمية العلوم الروسية. ثم نشر في مجلة «أخبار الشمال» قصته «حكاية مملة» في عام ١٨٨٩م.

وفي عام ١٨٩٠ قرر السفر إلى مكان أبعد، وقام برحلة غير عادية عبرَ فيها كل أراضي روسيا نحو الشرق وتحديدًا إلى جزر ساخالين. وقد استغرقت رحلته إلى هناك ٢٨ يومًا كاملة وتركت في نفس الكاتب انطباعات ثورية عن الطبيعة الروسية في منطقة سيبيريا، ودوَّن تلك الانطباعات في مقالات بعنوان «من سيبيريا». وفي الجزيرة تحدث تشيخوف مع السكان المحليين ومعظمهم ممن يقضون عقوبة الإبعاد نتيجة قيامهم لتصرفات وأفعال مناهضة للدولة. وقام تشيخوف بسؤالهم عن حياتهم هناك وسبب نفيهم إلى الجزيرة ودوَّن إجاباتهم. ثم قام بما يشبه بإحصاء للسكان في الجزيرة حيث جمع آلاف الكروت في كل منها معلومات كثيرة عن كل ساكن هناك. حذرت السلطات الكاتب من التواصل مع المعتقلين السياسيين إلا أنه لم يلتزم بالتحذير وواصل الاتصال بهم وتدوين المذكرات.

وعاد تشيخوف من هناك عبر البحر على باخرة اسمها «بطرسبورج». وزار أثناء رحلة العودة بلدانًا عديدة، نذكر منها هونج كونج وسنغافورة وسيلان ومصر وتركيا.

وبعد العودة إلى موسكو قضى تشيخوف خمس سنوات في كتابة رائعته «جزيرة ساخالين» واعتمد فيها على انطباعاته أثناء رحلته إلى هناك. وقد ترك هذا الكتاب أثرًا كبيرًا في إبداعات تشيخوف فيما بعد.

شهدت الفترة من ١٨٩٠ - ١٨٩٥م صدور عدة قصص قصيرة له ومنها «قصة إنسان مجهول» و«العنبر رقم ٦» و«المبارزة». وعاش تشيخوف في تلك الفترة ما بين مدينة موسكو وما بين ضيعته في قرية ميليخوفو بالقرب من موسكو. وفي ضيعته تلك كتب تشيخوف ٤٢ عملًا أدبيًّا أهمها قصته الشعرية «الرجل المنطوي».

ويصور تشيخوف في كتاباته مشكلات الناس بواقعية، ويسعى إلى اتباع النهج الموضوعي في الحكم على الظواهر المختلفة. أما أبطاله فهم أناس معاصرون له، وينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع. أما البطل المفضل لديه فهو الإنسان البسيط الذي يعيش على هامش المجتمع، والذي يعيش داخل الإطار الذى حدده له المجتمع ولا يخرج أو يحاول الخروج عنه أي أنه يعيش في

عالم محدد، وفي داخل شرنقة من نوع خاص. ويعرض الكاتب في أعماله لحياة أناس يمثلون مختلف طبقات المجتمع ومختلف المهن والوظائف، ويعرض لسماتهم الخاصة سواء الظاهرية أو النفسية وأثبت بحثه أنه أستاذ قدير في التحليل النفسي ورسم السمات النفسية لكل أبطاله.

وفي عام ١٨٩٦م صدرت رائعته المسرحية «النورس» والتى نشرت للمرة الأولى في مجلة «الفكرة الروسية» ثم تم تحويلها إلى عرض مسرحي لأول مرة في سان بطرسبورج عام ١٨٩٧م. وفي نفس العام نشر تشيخوف مسرحيته الثانية «الخال فانيا».

وفي عام ١٨٩٨م بنى تشيخوف منزلًا خاصًّا به في مدينة يالتا بجزيرة القرم، وأصبح يقضى هناك معظم أوقاته. وفي عام ١٩٠٠م كتب تشيخوف مسرحية من أربعة فصول وهي «الأخوات الثلاثة» وعرضت على مسارح موسكو عام ١٩٠١م. وتزوج في العام نفسه من الممثلة المسرحية أولجا كنيبير، وكانت تعمل واحدة من كبار ممثلات مسرح موسكو، وتحت قيادة المخرج الروسي العظيم قسطنطين ستايسلافسكي.

وتُعد مسرحية «بستان الكرز» من أهم وأشهر مسرحيات الكاتب، وصدرت عام ١٩٠٤م وعرضت على مسرح موسكو أيضًا. وتعكس أحداث المسرحية حالة المجتمع الروسي قبيل حدوث التحولات السياسية والاجتماعية في بداية القرن. وقد جعل الكاتب من حياة عائلة روسية أرستقراطية نموذجًا لتصوير حياة المجتمع الروسي بأكمله.

وتُعد هذه المسرحية حتى يومنا هذا جزءًا أصيلًا في برنامج جميع المسارح الروسية، وتلقى نجاحًا هائلًا بين الجماهير حتى اليوم، ليس فقط في روسيا بل وترجمت إلى معظم لغات العالم.

وفي الثاني من يوليو ١٩٠٤م توفي تشيخوف أثناء رحلته إلى المانيا للعلاج من مرض السل. ونقل جثمان الكاتب الروسي بالقطار، ودفن في موسكو في التاسع من يوليو ١٩٠٤م.

7

ألكسندر ألكسندروفيتش بلوك

(١٨٨٠ - ١٩٢١م)

يُعتبر بلوك واحدًا من أعظم شعراء روسيا، ورمزًا للأدب الكلاسيكي الروسي في القرن العشرين.

وُلد في مدينة سان بطرسبورج عام ١٨٨٠. وكان والده يعمل أستاذًا بجامعة وارسو في قسم القانون. أما والدته فهي ابنة رئيس جامعة سان بطرسبورج. وقد انفصل الوالدان قبل ولادة بلوك مباشرة. وعاش الشاعر الصغير في منزل خاله ولقي عناية ورعاية خاصة. وبدأ في كتابة الشعر وعمره خمس سنوات حتى إنه أصدر في سنوات الطفولة مجلة تنسخ باليد اختبر فيها نفسه في مختلف أجناس الأدب. حيث كتب الشعر والمقالات ومدونات، وقام بترجمات من اللغات الأجنبية إلى الروسية. غير أن انشغاله بالأدب بشكل تام لم يبدأ إلا مع بلوغه سن السابعة عشرة. وكانت تلك هي المرحلة الأولى في مشواره الإبداعي، حيث اتسمت باكتساب وتراكم الخبرات وتحديد طريقه الإبداعي. وكان الشاعر حينها واقعًا تحت تأثير الاتجاه الرومانسي في الشعر، وكانت كتاباته جميعها في هذا الإطار.

وفي عام ١٨٩٨م التحق بلوك بعد انتهائه من الدراسة الثانوية بكلية الحقوق جامعة سان بطرسبورج كما اهتم بالمسرح. وأصبح عضوًا في فرقة مسرح الراما في المدينة. وفي صيف هذا العام التقى بلوك مع زوجته في المستقبل لوبوف دميتريفنا مينديلييفا (ابنة العالم الروسي الشهير دميتري مينديلييف). وشهدت الفترة بين ١٨٩٨ - ١٩٠٠م بداية مرحلة جديدة في إبداعاته. وكان هذا التعارف وتلك فترة الآمال غير الواضحة والأحلام والبحث عن المثل والنموذج والقدوة في الحياة وعن أسس الحياة الروحية. وهكذا تكون في وعي الآخر ميثولوجيا شعرية غير عادية مرتبطة بالنموذج الرمز «الأنوثة الخالدة المتمثلة في هذه المرأة الرائعة». كما ارتبط هذا الرمز أيضًا لديه بالأفكار حول تجلي العالم. وكثيرًا ما نلحظ في أشعاره في تلك الفترة نموذج السيدة الرائعة، حيث يُعد الرمز الرئيس في أشعار بلوك المبكرة.

وفي عام ١٩٠١م انتقل بلوك من كلية الحقوق إلى كلية التاريخ. وعمل على توسيع دائرة معارفه وأصدقائه. حيث تعرَّف على الفيلسوف فلاديمير سولوفييف، وعلى الشعراء الكبار في تلك الفترة دميتري ميرجكوفسكي وزينايدا جيبوس وفاليري بريوسوف وغيرهم. من كبار رجال الثقافة والأدب والشعر في العصر الفضي. ونشرت مجلة «الطريق الجديد» أول مجموعة منتقاة من أشعاره وتحمل عنوان «من الإهداءات» (١٩٠٣م). كما نشر له في نفس العام في مجلة «زهرة الشمال» ديوان شعر بعنوان «أشعار عن سيدة رائعة». وفي عام ١٩٠٤م نشر أشعاره السابقة كاملة في كتاب يحمل نفس العنوان.

مع الوقت أصبح بلوك يهتم أكثر بالواقع المحيط، حيث عبر عنه في أشعاره يمزج بين الواقع والفانتازيا أو ما سمي بالواقعية الخيالية حينها. ويبرز ذلك في مجموعته الشعرية «المدينة» ١٩٠٤ - ١٩٠٦م.

واشتغل الشاعر بالبحث عن قيم أخرى بديلة لتلك التى انشغل في شبابه من أحلام ومفاهيم مجردة. وتحول الرمز الموحد للجمال الأنثوي الأبدي إلى وجوه أنثوية مختلفة ومتنوعة. أحيانًا تظهر غامضة تثير الحيرة (قصيدة «الفتاة المجهولة») و«الداعرة الواقفة في الميدان» أو السيدة التى يلتقيها صدفة في الشارع. أصبح البطل الغنائي في أشعار بلوك على استعداد أن يتقبل من العالم المحيط والمتغير لحظة سعادة غير متوقعة. هكذا أطلق بلوك على مجموعته الشعرية التى نشرها عام ١٩٠٧م «لحظة سعادة غير متوقعة».

غير أن طموحات الشاعر وأحلامه لم تتحقق.. وعانى الشاعر من انهيار داخلى وصراع وخلافات مع المحيطين ومنهم من كان مقربًا له روحًّيا وخاصة أندريه بيلي. وانعكس هذا كله في كتاباته.

ورأى بلوك أن السبيل إلى خروجه من هذا المأزق النفسي هو البحث عن النموذج الغنائي لروسيا. فقد تقبل انهيار أحلامه، ولم يعتبر ذلك كارثة بل بداية لطريق طويل قدره أن يسير فيه ويكمله، وكذا قدر روسيا أيضًا.

وقد انعكست رؤاه تلك للعالم المحيط في مجموعته الشعرية «الأرض مغطاة بالجليد» (١٩٠٨م). ويبرز نموذج روسيا في الكتاب بوصفها رمزًا للإيمان والثقة في المستقبل. واعتقد بلوك أن على الشاعر أن يكون ملمًّا بكل ما يعاني منه الوطن. وكان هذا هو الموضوع الرئيس أيضا لدراما «أغنية المصير» ١٩٠٨م حيث ينسحب البطل الرئيس ويغادر بيته ويتجه إلى الانخراط في الدنيا والعالم المحيط كي يصطدم بالواقع ويتعرف خلال ترحاله في

أراضي روسيا الشاسعة على مآسي القرن الجديد ويختبر قواه وقدرته على المقاومة.

وفي ١٩٠٩م سافر بلوك إلى إيطاليا، وكانت تلك الرحلة مصيرية في حياته، حيث تركت انطباعات كثيرة في نفسه انعكست في مجموعته الشعرية «أشعار إيطاليا». وقد عبر فيها الشاعر عن عدائه للحضارة الأوروبية من ناحية وعن إحساسه بخلود الروح السامية والإبداع الحقيقي الذي يقهر الموت والزمن من ناحية أخرى.

وقد شعر بلوك بانتهاء العقد الأول وبداية العقد الثاني من القرن العشرين، واعتبر ذلك نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في إبداعاته وتفكر كثيرًا فيما أنجره سابقًا. وقد تحدث عن آرائه تلك في مقالته التى نشرت عام ١٩١٠ بعنوان «حول الحالة المعاصرة للرمزية الروسية». وتناول الشاعر في مقالته عرضًا لفهمه لفن الرمزية، كما حدد سمات رؤيته الفنية وأفكاره حول العالم وبرر حتمية حدوث الأزمة وكيفية الخروج منها.

وفي عام ١٩١٤م ومع بداية الحرب العالمية الأولى نشط بلوك كشاعر وطني يدعو لحب الوطن والدفاع عنه بشدة حتى إنه عقد آمالًا كبيرة على أن تغيير تلك الحرب من الواقع المؤلم إلا أنه سرعان ما اكتشف أنها بلا معنى وتسببت في إراقة الكثير من الدماء. وفي عام ١٩١٦م استدعي للجيش وخدم فيه حتى مارس ١٩١٧م حيث عاد إلى بيتراجراجد (سان بطرسبورج) وعين في إحدى لجان التحقيق الطارئة. وكان ذلك عملًا غريبًا على الشاعر وقد كتب كتابًا يتناول تلك المرحلة بعنوان «الأيام الأخيرة للسلطة الإمبراطورية» (١٩٢١م).

ولم يكتب بلوك شعرًا تقريبًا بعد عام ١٩١٦م حيث اكتفى بإعادة نشر كتبه ودواوينه وأحيانًا يدرج بعض التعديلات على بعض النصوص والأشعار القديمة. وقد رحب الشاعر بثورة ١٩١٧م، وكتب قصيدة في مديحها بعنوان «الاثنى عشر». ويرمز فيها الشاعر بالاثني عشر جنديًّا في الجيش الأحمر إلى القوة الهادرة للثورة. وكان المهم بالنسبة للشاعر أن يتجاوب العالم وينطلق وأن يصحو الناس من غفوتهم وأن تساعد هذه النيران المشتعلة للثورة على أن يختفي إلى الأبد كل ما يشوه الحياة ويسلبها جمالها وعذوبتها.

وقد أثارت هذه القصيدة الكثير من الجدل حيث رحب بها عدد من النقاد فيما رفضها آخرون ومنهم جيبوس وميرجكوفسكي. وتعتبر هذه القصيدة خاتمة لإبداعات بلوك الشعرية. حيث بدأ يستشعر انطفاء جذوة الروح الثورية، وأن الحياة التى يأملها لن تتحقق. ومرة أخرى عانى الشاعر من أزمة في

إيمانه بمعنى الحياة ولم يتمكن هذه المرة من تجاوزها والنجاة منها. ورغم معاناته تلك إلا أنه واصل العمل في اللجنة التى تشرف على إصدارات الأدب الروسي الكلاسيكي حتى أصبح في عام ١٩٢٠ رئيسًا لاتحاد شعراء روسيا في مدينة بتراجراد، وشهد هذا العام اشتداد أزمته النفسية ووصوله إلى حالة الاكتئاب إلى أن أصيب بأزمة قلبية وتوفي في أغسطس عام ١٩٢١م ودفن في بيتراجراد (سان بطرسبورج).

8

نيقولاي ستيبانوفيتش جوموليوف

(١٨٨٦ - ١٩٢١م)

ينتمي جوموليوف إلى شعراء العصر في الفضي في الأدب الروسي، وكان له الفضل في تأسيس مدرسة الذروة الروسية. كما عمل جوموليوف مترجمًا وناقدًا أدبيًا ورحالّة وضابطًا. وُلد في الثالث من أبريل عام ١٨٨٦م في جزيرة قريبة من بطرسبورج تسمى كرونشتاد. وينتمي الشاعر إلى عائلة أرستقراطية.

وكان أول أشعاره وهو بعد في السادسة من عمره، حيث قام بكتابة عدة أبيات عن شلالات نياجرا. وفي خريف ١٨٩٤م التحق بالمدرسة إلا أنه سرعان ما انسحب من الدراسة وانتقل إلى التعليم المنزلي بسبب مرضه المتكرر وضعف بنانيه.

وفي عام ١٨٩٥م انتقلت العائلة إلى مدينة سان بطرسبورج، وفي العام التالي التحق جوموليوف بمدرسة خاصة. في عام ١٩٠٠ اضطرت عائلته إلى السفر إلى القوقاز نظرًا لمرض أخيه بالسل. واضطر شاعرنا مرة أخرى إلى ترك المدرسة وهو في الصف الرابع. وهناك التحق بمدرسة بمدينة تفليسي ونشر أثناء دراسته بالمدرسة أول أشعاره بعنوان «لقد فررت من المجن إلى الغابة» في عام ١٩٠٢م.

وفي عام ١٩٣م عادت العائلة مرة أخرى إلى سان بطرسبورج، وواصل جوموليوف تعليمه في الصف السابع بالمدرسة القيصرية. وكان طالبًا سيئًا في الدراسة حتى إنه تعرض لخطر الفصل من المدرسة مرة لولا إصرار مدير المدرسة على منحه فرصة إضافية لعام آخر.

وقبل تخرجه من المدرسة بعام أصدر جوموليوف على نفقة عائلته ديوانه الشعري الأول. وقد كتب الشاعر الشهير حينها فاليري بريوسوف مقالًا نقيًّا مستقلًا عن الديوان. وعلى الرغم من أن مؤسس الرمزية الروسية لم يمدح جوموليوف إلا أنه اختتمها بجملة عبَّر فيها عن خالص أمانيه للشاعر الشاب. ثم توطدت الصداقة بين الشاعرين، واعتبر جوموليوف بريوسوف أستاذًا له ومعلمًا في بداياته.

وفي عام ١٩٠٦ انتقل جوموليوف للعيش في باريس، حيث استمع إلى محاضرات عن الأدب الفرنسي بجامعة السوروبون ودرس فن الرسم، وزار الكثير من المدن في أوروبا. وفي فرنسا أصدر مجلة أدبية بعنوان» سيريوس»، وقد نشرت فيها أولى قصائد الشاعرة الروسية الشهيرة آنا أخماتوفا، كما زار جوموليوف المعارض الفنية، وتعرف على كثير من الكتَّاب الروس والفرنسيين، وتعاون أدبيًّا مع الشاعر الكبير بريوسوف الذى ساعد تلميذه جوموليوف وتحدث عن موهبته في الدوائر والحلقات الأدبية. كما تعرف جوموليوف على كبار الشعراء الروس مثل زيناديا جيبوس ودميتري ميرجكوفسكي وانردية بيلي.

وفي أبريل ١٩٠٧م عاد جومليوف إلى روسيا حيث استدعي للجيش. والتقى الشاعر الشاب عند عودته مع الشاعر بريوسوف ومع محبوبته الشاعرة الشهيرة آنا اخماتوفا. ثم توجه إلى مدينة سيفاستوبول ومنها إلى بلاد الشام في رحلة طويلة هي الأولى إلى هذه المنطقة. ولا توجد أخبار عن رحلته تلك سوء إشارة في إحدى المكاتبات بينه وبين الشاعر بريوسوف. كما أن هناك أقوالًا بأن جوموليوف سافر إلى أفريقيا في هذا العام أيضًا.

وفي عام ١٩٠٨م أصدر جوموليوف ديوانًا شعريًّا بعنوان «أزهار رومانسية». وقد استفاد من الأموال التى جناها من بيع هذا الكتاب بالإضافة إلى مساعدة مالية من والديه، وسافر مرة أخرى إلى الشرق، حيث زار تركيا واليونان ومصر. وفي القاهرة زار الأزبكية وكتب عنها. وهناك أنفق الشاعر كل ما لديه من مال واضطر إلى العودة مرة أخرى إلى بطرسبورج.

لم يكن نيقولاي جوموليوف شاعرًا فحسب بل وواحدًا من أهم الباحثين الروس في قارة أفريقيا. فقد قام بعدد من الرحلات الاستكشافية في منطقة شرق وشمال شرق القارة وأحضر منها عند عودته إلى وطنه مجموعة نادرة وثمينة من من المقتنيات أهداها إلى متحف الأنثروبولوجيا والأثنوغرافيا في مدينة سان بطرسبورج.

وفي عام ١٩٠٩م قام بالتعاون مع سيرجي ماياكوفسكي بإصدار مجلة مصورة تعنى بقضايا الرسم والموسيقى والمسرح والأدب وتحمل عنوان «أبوللو» وترأس فيها قسم النقد الأدبي ونشر فيها «رسائل في الشعر الروسي».

وفي عام ١٩١٠م أصدر جوموليوف ديوانه «الدرة» والذي يضم قصيدته الشهيرة «القباطنة». وقد نال الكتاب شهرة واسعة سواء من النقاد أو القراء.

وفي العام نفسه تزوج الشاعر من الشاعرة آنا اخماتوفا بمدينة كييف الأوكرانية.

وفي عام ١٩١١م أسهم الشاعر في تأسيس «ورشة الشعراء». وضمت الورشة كلًّا من آنا اخماتوفا واوسيب ماندلشتام وفلاديمير ناربوط وسيرجي جوروديتسكي وغيرهم. وكان الاتجاه الرمزي في تلك الفترة يعيش أزمة، وسعى الشباب من الشعراء إلى تجاوز هذه المرحلة الأدبية. ودعى إلى الاعتراف بالشعر كحرفة وقسموا الشعراء إلى صنفين محترفين وهواه. وكان جوموليوف يُعد من المحترفين والأساتذة بين جيله. وفي البداية لم يكن للورشة توجه أدبي معين إلا أنه وفي عام ١٩١٢م تم الإعلان عن ميلاد اتجاه جديد في الأدب وهو مدرسة الذروة والتى انضم إليها أعضاء «ورشة الشعراء». ودعت مدرسة الذروة إلى دقة الكلمة والمادية وتصوير الموضوعات والشخصيات. وافتتح شعراء الذروة دار نشر خاصة، كما أسسوا مجلة ادبية.

وعلى الرغم من الشهرة والنجاح الذي حققه جوموليوف إلا أنه كان دائمًا ما يرى نفسه تلميذًا يحتاج إلى مزيد من التعلم والعمل على تطوير نفسه. فالتحق بكلية التاريخ والآداب في جامعة سان بطرسبورج، حيث درس فيها الشعر الفرنسي القديم وسرعان ما أصدر ديوانه الشعري «سماء غريبة» في عام ١٩١٢م.

وفي عام ١٩١٣م شارك جوموليوف في الحملة الاستكشافية الثانية إلى أفريقيا، وضمت بلدان أثيوبيا وجيبوتي وإريتريا وأرض الصومال. وعاد إلى روسيا عام ١٩١٤م غير أن طريق العودة كان شاقًّا، وتوافق مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. وتم تجميد نشاط «ورشة الشعراء» واندلعت الخلافات الزوجية بينه وبين الشاعرة آنا اخماتوفا حيث أصيبت الشاعرة بالضجر من حياته البوهيمية التى اعتاد عليها قبل زواجه.

وتطوع جوموليوف في الجيش في نوفمبر ١٩١٤ وشارك في المعارك التى وقعت في جنوب بولندا. وأظهر شجاعة نال نظيرًا لها وسام جريجوري الرفيع من الدرجة الرابعة وتمت ترقيته. وقضى الشاعر سنوات الحرب كاملة على الجبهة ونال عدة أوسمة، وكان ينتهز أية فرصة راحة بين المعارك لممارسة هوايته المحببة وهي الشعر. وفي سنوات الحرب صدرت له ثلاثة دواوين شعرية.

وفي الخامس من أغسطس عام ١٩١٨م تم الطلاق بينه وبين الشاعرة آنا اخماتوفا وكانا قد انفصلا فعليًّا منذ فترة، غير أنه قبل عام ١٩١٧م لم يكن من

المسموح بالطلاق مع الاحتفاظ بحق الزواج مرة أخرى.

وفي عام ١٩١٩م تزوج جوموليوف من آنا نيقولايفنا انجيلجاردت وهي ابنة المؤرخ والأديب ن.انجيليجاردت. وخلال عام تم اختيار الشاعر رئيسًا لفرع مدينة بيتراجراد في اتحاد الشعراء الروس. وتوطدت علاقته في تلك الفترة مع الكاتب الكبير ماكسيم جوركي. وعندما فكر جوركي في إصدار كتاب «تاريخ الثقافة المصور» ساعده جوموليوف وقدم له ثلاثة من مسرحياته للنشر في فصل الدراما بالكتاب.

وفي عام ١٩٢١نشر جوموليوف ديواني «عمود اللهب» و«الخيمة». ويضم الأخير انطباعات الشاعر عن رحلته إلى إفريقيا وكان من المفترض أن يصبح جزءًا من «كتاب شرح الجغرافيا شعرا». وكان جوموليوف ينوي أن يصف بلدان العالم المأهولة بالشعر.

وفي ربيع ١٩٢١ م ترأس جوموليوف استوديو إبداعي نقل من خلاله خبراته إلى شباب الشعراء وقرأ محاضرات عن الشعر. غير أن الشاعر لم يكن يخفى اتجاهاته وميوله الدينية، وكان ذلك أمرًا مرفوضًا في الحقبة السوفيتية. كما أنه كان يتحدث أيضًا في آرائه السياسية. وفي إحدى الأمسيات الأدبية وردًّا على سؤال عن رؤيته للنظام السياسي الأفضل للدولة رد أنه يعتقد أن الملكية هي الأفضل.

وكان نتيجة ذلك أن تم اعتقاله في أغسطس ١٩٢١ بتهمة المشاركة في مؤامرة ضد الدولة. وحاول الأصدقاء من الشعراء التوسط لدى السلطات للعفو عنه دون فائدة. وتم إعدام الشاعر بالرصاص وإخفاء مكان الدفن. ولم يتم إعادة الاعتبار للشاعر سوى في عام ١٩٩٢م.

9

آنا أندرييفنا أخماتوفا

(١٨٨٩ - ١٩٦٦م)

نشأة الكاتبة

تُعتبر آنا اخماتوفا من عظماء الشعر الروسي في القرن العشرين، ويطلق عليها أميرة الشعر الروسي في العصر الفضي. كما عملت اخماتوفا ناقدة أدبية ومترجمة. وُلدت في الثالث والعشرين من يونيو ١٨٨٩م بمدينة أوديسا في أوكرانيا. وكان أبوها من النبلاء يعمل ضابطًا في أسطول البحر الأسود، كما أن أمها أيضًا تعود إلى أصول أرستقراطية.

في عام١٨٩٣ انتقلت العائلة إلى مدينة سان بطرسبورج، حيث التحقت اخماتوفا بالمدرسة. وكانت مجدة في دراستها ولكن لم تكن نجاحاتها مبهرة. وعندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها تعرفت على زوجها في المستقبل الشاعر نيقولاي جوموليوف، وكان حينها يستعد لإصدار أول ديوان شعري له.

وفي عام ١٩٠٥م تم الطلاق بين أبويها. وبقي الأب في بطرسبورج أما الأم فانتقلت مع أطفالها إلى القرم.

وفي عام ١٩٠٦م سافرت اخماتوفا إلى مدينة كييف لإنهاء دراستها، وعاشت هناك عند أقربائها، وهناك ظهر شغفها الشديد بالمسرح.

وفي خريف عام ١٩٠٨م التحقت بجامعة كييف بكلية الحقوق، وهو ما منحها في المستقبل إمكانية لتحقيق دخل مرتفع واستقلالية مادية. وقد كتبت اخماتوفا عن تلك المرحلة أنها استمتعت بمواد تاريخ القانون واللغة اللاتينية، في حين كانت تشعر بالملل من مواد القانون نفسها.

وفي تلك الفترة كان الشاعر نيقولاي جوموليوف قد تقدم عدة مرات للزواج منها لكنها كانت دائمًا تقابل عروضه بالرفض حتى إنه حاول الانتحار لهذا السبب ثلاث مرات. وفي عام ١٩٠٩م اقترح جوموليوف مرة أخرى عليها الزواج فوافقت، وتم الزواج في ٢٥ أبريل عام ١٩١٠م بمدينة كييف.

وعاش الزوجان في قرية بوشكين تسارسكوي سيلو في الفترة من ١٩١١ - ١٩١٦م وكانا يسافران في الصيف إلى مدينة تفير، حيث وُلد جوموليوف. وفي عام ١٩١٢م أصدرت الشاعرة ديوانها الأول بعنوان «الأمسية» وتجسدت فيه مبادئ مدرسة الذروة بوضوح. وسرعان ما لاحظ النقاد القدرات الهائلة لدى اخماتوفا وأهمها الخط الغنائي العاطفي العميق والتحليل النفسي الدقيق والشاعرية. وقد تميزت الشاعرة عن زملائها في مدرسة الذروة بحبها الشديد للإنسان والإيمان بقدراته الروحية وإمكاناته.

منهج اخماتوفا في الأدب

نشطت اخماتوفا في المشاركة في الصالونات الأدبية في بطرسوبرج حتى أطلق عليها أميرة العصر الفضي. كما أطلقت عليها الشاعرة الشهيرة مارينا تسفيتايفا لقب» آنا لعموم روسيا». وازدادت شهرة الشاعرة، وفي عام ١٩١٧م صدر لها ديوان جديد وشهدت تلك الفترة انفصالها عن زوجها الشاعر نيقولاي جوموليوف.

وواصلت اخماتوفا الكتابة والنشر حيث صدرت دواوينها الجديدة «رفقاء السفر» و«انو دوميني» في عام ١٩٢١م غير أن أشعارها في تلك الفترة لم تكن تتفق، والروح الثورية السائدة؛ ولذا أخذ الكارهون للشاعرة يقللون من قيمة أشعارها، ويتحدثون عن نزعتها للتدين، وكان ذلك سببًا في قلة أعمالها في السنوات التالية.

واعتبر عام ١٩٢٥ عام «الوفاة المدنية» للشاعرة، حيث أصدر الحزب البلشفي مرسومًا «بسياسة الحزب فيما يتعلق بالأدب». فتوقفت دور النشر تمامًا عن طباعة أعمال أخماتوفا خلال السنوات من ١٩٢٥ - ١٩٣٩م. وكان ذلك بمثابة حكم بالموت على الشاعرة، ولم يسمح لها بالنشر سوى في عام ١٩٤٠م، حيث صدر ديوان لها بعنوان «من بين ست كتب». واضطرت اخماتوفا إلى ممارسة الترجمة حتى تنفق على متطلباتها الحياتية، حيث ترجمت أعمال ١٥٠ شاعرًا.

وقد تعرضت مدينة ليننجراد في سنوات الحرب العالمية الثانية إلى حصار من القوات الفاشية الألمانية، وعانت الشاعرة من هذا الحصار ثم تم ترحيلها إلى طشقند في أوزبكستان. وهناك كتبت الشاعرة قصيدة «الشجاعة»

الشهيرة في فبراير ١٩٤٢م. كما تمكنت الشاعرة من إصدار ديوان جديد لها، وساعدها في ذلك الكاتب الروسي الكسي تولستوي.

ومع انتهاء الحرب عادت اخماتوفا إلى لينتجراد إلا أنه سرعان ما تعرضت الشاعرة مرة أخرى إلى هجوم أدبي من النقاد المرتبطين بالسلطة، حيث اعتبرت أشعارها غريبة على الشعب السوفيتي، وتم طردها من اتحاد الكتاب السوفيتي. وبقيت اخماتوفا دون مورد مادي يكفيها للمعيشة، كما تم تدمير كل نسخ أعمالها وكتاباتها.

وبعد مضي خمس سنوات كاملة أعيدت عضويتها في اتحاد الكتاب، وبعدها بعدة سنوات تم منحها بيتًا ريفيًّا صغيرًا في قرية كوماروفا القريبة من بطرسبورج، والتى كتبت فيه الشاعرة الكثير من الأشعار الرائعة الغنائية والفلسفية.

وفي عام ١٩٦٢م صدرت قصيدتها الشعرية «صلاة الجنازة» والتى تحكي صفحات من زمن المعتقلات الحكومية والمعاناة التى عاشها الشعب الروسي. وقد نشرت القصيدة في البداية خارج الحدود الروسية عام ١٩٦٣م، ولم تنشر في روسيا سوى عام ١٩٨٧م، وبعد أن توفيت.

وفي عام ١٩٦٤م نالت اخماتوفا شهرة عالمية، حيث حصلت على جائزة إتنا تاورمين الإيطالية في الأدب ثم في عام ١٩٦٥ على جائزة جامعة أكسفورد وشهادة الدكتوراة الفخرية من الجامعة.

أما آخر ديوان صدر في حياة الشاعرة فكان بعنوان «ركض الزمن» (١٩٦٥م) وفي العام التالي توفيت الشاعرة الكبيرة، ودفنت بقرية كوماروفا بعد أن أصبحت المرأة الرمز للعصر الفضي في الأدب الروسي.

10
فلاديمير خليبنيكوف
(١٨٨٥ - ١٩٢٢م)

نشأة الكاتب

يُعتبر فلاديمير خليبنيكوف شاعرًا وناثرًا وأحد كبار رجال الثقافة الروسية في بداية القرن العشرين، ومن الشعراء الذين قادوا حركة إصلاح كبيرة في اللغة الشعرية. وُلد في عام ١٨٨٥م في قرية مالي ديربيتي في محافظة كالميكيا. وكان أبوه عالمًا في الحيوان وأمه متخصصة في التاريخ.

وبسبب عمل الأب كانت الأسرة تنتقل باستمرار من مكان إلى مكان؛ ولذا فقد بدأ الشاعر دراسته في مدرسة بمدينة سيمبيرسك أو اوليانوفسك حاليًا في عام ١٨٩١م. ثم انتقل مع أسرته بعد ثلاث سنوات إلى مدينة كازان، والتحق هناك بمدرسة ثانوية ثم بكلية الفيزياء والرياضيات بجامعة كازان. وقد شارك الشاعر في مظاهرات بالجامعة في عام ١٩٠٣م فتم اعتقاله وقضى شهرًا كاملًا بالسجن.

وتعود أولى تجاربه الأدبية إلى عام ١٩٠٤م، حيث كتب مسرحية بعنوان «يلينا جوردياتشكينا» وحاول نشرها في دار «المعرفة» إلا أن محاولاته باءت بالفشل. وخلال الفترة من ١٩٠٤ - ١٩٠٧م درس خليبنيكوف اليابانية بحثًا عن أشكال جديدة للتعبير، كما شغف بإبداعات الرمزيين الروس وخاصة فيودور سولوجوب. وفي تلك الفترة كتب خليبنيكوف كتابه النثري الشامل «ينيا فويكوف» (بقي غير مكتمل). ويعد هذا الكتاب من المراحل المهمة في طريقة الإبداع وتكون شخصيته الأدبية ككاتب.

وفي عام ١٩٠٨م وصل الشاعر إلى مدينة سان بطرسبورج، وهناك التحق بالجامعة بكلية التاريخ والآداب. واقترب من الرمزيين أكثر وأخذ يزور صالون فيتشيسلاف ايفانوف الأدبي و«أكاديمية الشعر» التابعة لمجلة «أبوللو» حيث التقى شعراء مدرسة الذروة. واهتم الشاعر بالأساطير الروسية والتاريخ والفلكلور، حتى إن الرمزيين الروس منحوه اسمًا سلافيا قديمًا وهو (فيليمير).

غير أن أعماله في تلك الفترة كانت تتميز عن الرمزيين وكتاب الذروة من حيث رؤيته لطبيعة الكلمة.

وكانت أول قصائد خليبنيكوف هي»إغواء المذنب» (١٩٠٨) ونشرت بمجلة «الربيع» وكانت بداية لظهور أشعار أخرى له على صفحات مجلات مدرسة المستقبليين. وسرعان ما أصبح خليبنيكوف المنظر الرئيس لهذه المدرسة. ونشرت قصائده ضمن دواوين شعرية تحمل عنوان «لطمة للذوق المجتمعي» وغيرها.

في عام ١٩١٢م نشر كتابه «المعلم والتلميذ». وتناول فيه أسس ومبادئ الاتجاه المستقبلي في الأدب بوصفه فنًّا جديدًا. وابتكر بالتعاون مع الشاعر الكسي كروتشيني مصطلح» لغة ما وراء العقل» وكتب العديد من الأبحاث التى تدلل وتؤسس لها المصطلح.

وفي بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م بدأ خليبنيكوف في دراسة قوانين الحروب السابقة ومسار الحرب الراهنة. ونشر كتابه بعنوان «معارك ١٩١٥ - ١٩١٧م. درس جديد للحرب» (١٩١٥)

وفي عام ١٩١٦م استدعى خليبنيكوف للجيش، وتم توزيعه على فرقة قوات الاحتياط في مدينة فولجاجراد، وشهدت تلك الفترة حسب تعبير الشاعر «تحوله إلى حيوان فاقد للعقل». واستعان بصديق له طبيب لإعفائه من الخدمة بالجيش. كان الشاعر يحلم بتأسيس منظمة تضم قادة الكرة الأرضية، تضم كل من يشعر بتوحده مع الإنسانية ومسئوليته عن مصيرها. ويرى خليبنيكوف أن للفن أهمية كبيرة في مصير الشاعر المبدع وفي بناء حياته.

وعند اندلاع ثورة ١٩١٧م كان الشاعر في مدينة بيتروجراد. ووصف أحداث الثورة في قصيدته «التفتيش الليلي» (١٩٢١). وعاش الأديب في الفترة بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢١م في أوكرانيا حيث أصبح شاهدًا على انكسار الجيش الأبيض بقيادة الجنرال دينيكين ووصف هذه الأحداث في قصائده.

ثم سافر الشاعر إلى القوقاز، وكان يموج بأحداث الثورة أيضًا. وهناك عمل الشاعر في مختلف الصحف والمجلات والجمعيات. وصور في قصائده رؤيته للثورة بوصفها ظاهرة كونية. وتعد تسمية القصيدة من الكلمات الجديدة التى اخترعها الشاعر ليعطي معنى جديدًا يتمثل في التجانس العالمي الشامل. وفيها يصور الشاعر نموذج الإنسانية الموحدة والمتحدة مع الطبيعة.

وفي ديسمير ١٩٢١م عاد خليبنيكوف إلى موسكو، وفي تلك الفترة تنبأ بمصيره الشخصي حيث قال إن الناس الذين يحملون رسالته عادة ما يموتون

في السابعة والثلاثين. وقد تحققت نبوءته بالفعل حيث توفي خليبنيكوف في عام ١٩٢٢م بعد صراع مع المرض.

وقد تركت إبداعات فيليمير خليبنيكوف أثرًا كبيرًا في الأدب الروسي وتأثر بمدرسته الكثير من الشعراء الروس في القرن العشرين، ومنهم فلاديمير ماياكوفسكي واوسيب ماندلشتام ومارينا تسفيتايفا وبوريس باسترناك، كما لعبت رؤاه وأفكاره دورًا كبيرًا في تطور الإمكانات الجديدة في الشعر في إبداع الكلمة والتنبؤ بالمستقبل.

11

فلاديمير فلاديميروفيتش ماياكوفسكي

(١٨٩٣ - ١٩٣٠م)

نشأة الكاتب

يُعد ماياكوفسكي واحدًا من كبار الشعراء الروس في القرن العشرين، كما عرف ككاتب مسرحي وكاتب سيناريو وفنان. وُلد في يوليو ١٨٩٣م في جمهورية جورجيا لأب موظف.

وفي عام ١٩٠٢م التحق بالمدرسة ودرس أربع سنوات فقط حيث تُوفي أبوه في عام ١٩٠٦م وانتقلت العائلة إلى موسكو. وهناك واصل الشاعر دراسته في مدرسة تقليدية إلا أنه لم يستطع استكمال الدراسة لعجزه عن سداد المصروفات وتم فصله في عام ١٩٠٨م. وبعد ذلك تعرف الشاعر الشاب على عدد من الطلاب الماركسيين الذين كانوا يقومون بنشاط ثوري وأعجب بأفكارهم وأصبح عضوًا في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

وقد اعتقل ماياكوفسكي ثلاث مرات خلال عامي ١٩٠٨ - ١٩٠٩م وقضى في السجن ١١ شهرًا ونظرًا لكونه لم يكن قد أتم سن البلوغ بعد فقد تم العفو عنه. وفي السجن خطى ماياكوفسكي أولى خطواته في كتابة الشعر.

وفي عام ١٩١١م وبعد عدة محاولات للانضمام في أي معهد أو مؤسسة لتعليم الفنون التحق ماياكوفسكي بمدرسة الرسم في موسكو. وتعرف في تلك الفترة على كبار الفنانين والأدباء المستقبليين. وظهرت أولى أشعار ماياكوفسكي في عام ١٩١٢م حيث نشرت في مجلات الكتاب المستقبليين. وكانت أول قصيدة بعنوان «الليل».

وفي عام ١٩١٣م أصدر ماياكوفسكي أول جزء من سلسلة أشعاره بعنوان «أنا» والذي اعتبر أول ديوان شعري. ونسخ منه ٣٠٠ نسخة بخط اليد ومدعوم بالرسومات للفنان فاسيلي شيكريجين والفنان ليف جيجين.

وسرعان ما تم فصله من مدرسة الفنون عقابًا له على مشاركته في فعاليات خطابية عامة؛ ولذا قرر الشاعر أن يطور الفن التكعيبي بين الجماهير، وسافر مع زملائه في رحلة عبر مدن روسيا.

وأثرت الحرب العالمية الأولى في احتجاج ماياكوفسكي، فكتب عدة مؤلفات يفضح قسوة وبشاعة وعدم جدوى الحرب ونذكر منها «أنا ونابليون» وقصيدته الشهيرة «الحرب والسلام» (١٩١٥م). في عام ١٩١٦م صدر أول ديوان لأشعار ماياكوفسكي وفي عام ١٩١٧ نشرت قصيدته «الثورة والتطور التاريخي للشعر».

وقد بدأ الواقع الاشتراكي الجديد قريبًا من ماياكوفسكي من الناحية الجمالية. فلم يكن للشاعر في الماضي أي مستقبل اجتماعي في ظل الوضع الحكم السابق؛ ولذا بدأ في مؤلفاته يدعو إلى نشر أفكار الشيوعية. وعلى الرغم من توجهه الشيوعي لم يعجب البلاشفة بإبداعاته وكتاباته. حتى إن الزعيم فلاديمير لينين كتب مقالة انتقد فيها قصيدة ماياكوفسكي «١٥٠٠٠٠٠٠٠» (١٩٢١م)

وفي تلك الفترة أظهر ماياكوفسكي قدراته وموهبته كفنان ورسام. ففي عام ١٩١٩م بدأ في كتابة الشعارات الدعائية ورسمها والتى بلغ عددها أكثر من ١١٠٠. وقد أطلق الشاعر على نفسه لقب «الشاعر العامل» الذي يسخر طاقته لخدمة الثورة.

في بداية العشرينيات ظهرت عناصر جديدة في إبداعاته حيث أصبح الشاعر عضوًا في الجمعية الأدبية «جبهة اليسار» وهناك تعرف عن قرب على الشاعر بوريس باسترناك وسيرجي تريتيكوف ونيقولاي اسييف وغيرهم. وجرب الشاعر نفسه في مختلف الأجناس والاتجاهات الأدبية وعمل أيضًا مراسلًا للعديد من الصحف، وكتب أشعارًا مختلفة ومنها للأطفال كما عمل في مجال الدعاية الصناعية والسياسية. وقام معرض باريس للفنون التطبيقية والجميلة بمنحه ميادلية فضية وشهادة تقدير.

وأخد ماياكوسكي يتردد على أوروبا حيث زار لاتفيا وفرنسا وألمانيا وعاد من هناك بأفكاره المعادية للبرجوازية.

وفي عام ١٩٢٥م قام بأطول رحلة سفر إلى أمريكا حيث زار كوبا والمكسيك وقضى في الولايات المتحدة الأمريكية ثلاثة أشهر، وشارك هناك في مختلف الفعاليات الثقافية والأدبية وألقى العديد من المحاضرات. ولاحقًا أصدر ديوانًا شعريًّا بعنوان «إسبانيا والمحيط وهافانا والمكسيك وأمريكا».

وفي نهاية العشرينيات عمل ماياكوفسكي ككاتب مسرحي أكثر منه كشاعر. وشهدت تلك الفترة صدور أكثر المسرحيات الساخرة له ونذكر منها «الحمام». غير أن انتقاده وسخريته من عيوب المجتمع السوفيتي جلب على الشاعر متاعب وانتقادات شديدة حيث لم يرق لقادة الحزب ما فعله الشاعر، وظهرت في الصحف حملات للانتقام من الشاعر.

وحدث تحول في مصير الشاعر؛ لذا حظي في السابق بدعم السلطات وحياة رغدة حيث بدأت الاتهامات تنهال عليه بالكذب وخيانته للشيوعية، وتم عزله من معظم الجمعيات والمؤسسات الإبداعية. وفي مارس ١٩٣٠م نظم ماياكوفسكي معرضًا بعنوان «٢٠ عامًا من العمل» حيث طرح فيه الكثير من أعماله. إلا أن المعرض لم يحظ بأي اهتمام سواء من رفقائه السابقين أو من السلطات. كما بدأت المشاكل تنهال على الشاعر، ومنها الصحية، حيث فقد صوته. ومنيت مسرحيته الأخيرة «الحمام» بفشل ذريع، وهو ما أدى بالشاعر إلى الانتحار في أبريل ١٩٣٠م.

12

سيرجي ألكسندروفيتش يسينين

١٨٩٥ - ١٩٢٥م

وُلد الشاعر الروسي الكبير سيرجي يسينين عام ١٨٩٥م بالقرب من مدينة ريزان. وقد انفصل الوالدان وهو بعد طفل في الثالثة من عمره، حيث سافرت والدته إلى مدينة ريزان للعمل وبقي هو مع جدته وجده. وكانت جدته تحفظ الكثير من الأغاني والحكايات والأشعار ويعترف الشاعر أن جدته كان لها الفضل الأول في دفعه إلى الاهتمام بالشعر وكتابة أولى قصائده.

وفي عام ١٩٠٤م التحق يسينين بالمدرسة حيث أنهاها في عام ١٩٠٩م ثم التحق بالمدرسة الكنسية في ريزان. وفي عام ١٩١٢م سافر إلى موسكو حيث عمل أولًا في محل لبيع اللحوم ثم في مطبعة.

وفي عام ١٩١٣م التحق يسينين بقسم التاريخ والفلسفة مستمعًا وهو قسم يتبع جامعة موسكو الشعبية. وكان يجمع بين الدراسة والعمل في المطبعة. وشهدت تلك الفترة لقاء الشاعر بالشعراء الأعضاء في الجمعية الأدبية الموسيقية.

وفي عام ١٩١٤م نشر أول أشعاره في مجلة «العالم الصغير». وفي عام ١٩١٥م انتقل يسينين إلى بطرسبورج حيث قرأ أشعاره على ألكسندر بلوك وسيرجي جوروديتسكي وغيرهما من كبار الشعراء.

وفي يناير ١٩١٦م تم استدعاء الشاعر إلى الجيش حيث عمل في قطار حرب - واستشفائي أي تابع للإمبراطورة الروسية ألكسندرا فيودوروفنا زوجة القيصر نيقولاي الثاني.

وشهدت تلك الفترة تقاربًا بين الشاعر وشعراء القرية الجدد وأصدر أول ديوان شعري في عام ١٩١٦م وذاع صيته في روسيا. ونشط الشاعر في المشاركة في الفعاليات الثقافية وقراءة المحاضرات وأشعاره بما في ذلك في حضور الإمبراطورة ألكسندرا وبناتها. وعرف يسينين شاعرًا عاطفيًّا رقيقًا ومرهفًا وأستاذًا في التحليل النفسي وتصوير الطبيعة وأفضل من تغنى بالقرية الروسية، وعالمًا في اللغة الروسية الشعبية.

وتوطدت العلاقة بينه وبين الشاعر أناتولي مارينجوف منذ عام ١٩١٨، وخلال العشرينيات. حيث قاما سويًّا بتأسس المدرسة التصويرية في موسكو. وأصدر خلال تلك السنوات عددًا من الدواوين الشعرية أشهرها «اعترافات رجل متمرد» و«أشعار مروج فضائح» و«بوجاتشوف» غيرها.

وفي عام ١٩٢١م زار الشاعر الأورال واورينبورج كما سافر إلى آسيا الوسطى إلى مدينتي طشقند وسمرقند. وألقى المحاضرات والأشعار في الأمسيات الشعرية ومنازل الأصدقاء.

وفي خريف العام نفسه تعرف الشاعر على الراقصة الأمريكية ايسدورا دونكاك وسرعان ما تزوجا وسافرا سويًّا إلى أوروبا، حيث زارا ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا ثم أمريكا. وبعد عودته نشر عددًا من المقالات عن أمريكا في صحيفة ازفيستيا. ولم يدم زواجه طويلًا.

لم يجد الشاعر نفسه في روسيا الجديدة، ولم يتفق وسياسات الحكومة البلشفية؛ ولذا تورط في عدد من المشكلات وتم القبض عليه من قبل الشرطة أكثر من مرة إلا أنهم كانوا يطلقون سراحه سريعًا لكونه شخصية شهيرة في المجتمع بوصفه شاعرًا شعبيًّا مناصرًا للفلاحين. وعلى الرغم من حالته الصحية والمعنوية السيئة إلا أنه واصل الكتابة، وعمل على تطوير نفسه أكثر وأكثر

وفي بداية العشرينيات شارك يسينين بنشاط في سوق النشر وبيع الكتب. حيث استأجر محلًّا صغيرًا في وسط موسكو، وأصبح يقضي معظم وقته هناك. ورغم ذلك استمر حرصه على السفر والترحال حيث سافر في ربوع روسيا وزار منطقة القوقاز ثلاث مرات ولينجراد عدة مرات.

وفي الفترة بين عامي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ زار يسينين جمهورية أذربيجان، ونشر هناك ديوانه الشعري «الشرق الجميل». وشهدت هذه الفترة انشقاقه عن المدرسة التصويرية بسبب خلافات حادة نشبت بينه وبين شريكه مارينجوف. وقام بكتابة إعلان عن حل الجمعية الأدبية. غير أن الشاعر ظل يعاني من أزمة نفسية وروحية لا سيما مع ظهور عدد من المقالات النقدية التى اتهمته بالإدمان على الشراب وافتعال الشجار والتصرفات غير المسئولة. كما اتهم بمعاداته للسامية وعبَّر عن ذلك في قصيدته «قضية الشعراء الأربعة». كما تسببت له قصيدة «الإنسان الأسود» في الكثير من المشكلات، وعبرت بجلاء عن معاناته ورفضه لمصيره الشخصي ومصير بلده.

وفي نهاية عام ١٩٢٥ اتفقت زوجته الرابعة صوفيا تولستايا حفيدة الكاتب الروسي الشهير ليف تولستوي مع مدير مستشفِى نفسي تابع لجامعة موسكو

على إدخال زوجها المستشفى وعلاجه بها. غير أن يسينين فر من المستشفى خلال شهر وألغى كافة العقود التى وقعها مع دار النشر وسحب كل أمواله بالبنوك وسافر بعد يوم إلى لييننجراد حيث أقام في فندق إنجلترا.

وشهدت الأيام الأخيرة من حياة الشاعر لقاءات مع الأدباء في لييننجراد. وفي ٢٨ ديسمبر، وبعد وصوله بأسبوع فقط عثر عليه مشنوقًا في غرفته. انتحر الشاعر شنقًا باستخدام حزام حقيبته. وكانت أخر قصيدة قبل موته بأيام إلى صديقه فولف ايرليخ يقول فيها «إلى اللقاء يا صديقي... إلى اللقاء». وقد اشتكى لصديقه من عدم وجود حبر في غرفته للكتابة؛ ولذا فقد كتب الأبيات الأخيرة بدمه.

13

مارينا ايفانوفنا تسيفتايفا

١٨٩٢ - ١٩٤١م

هناك بعض الكتَّاب والشعراء في تلك الفترة لم ينضموا أو ينتموا إلى أي من المدارس الأدبية أو الجمعيات. ومنهم الشاعرة الروسية الكبيرة مارينا تسيفتايفا.

نشأة الكاتبة

تُعد تسفيتايفا شاعرة أصيلة من الشعراء الروس الكبار في العصر الفضي، كما اشتهرت بكونها مترجمة بارعة. ولدت في عام ١٨٩٢م في موسكو. والدها كان عالمًا في التاريخ والفنون والعمارة والآداب ومديرًا لمتحف الفنون الجميلة في موسكو. أما والدتها فتنحدر أصولها إلى عائلة ألمانية بولندية. وكانت عازفة موسيقى. وقضت تسفيتايفا سنوات طفولتها في موسكو ثم في مدينة تاروس الصغيرة بالقرب من موسكو. وتلقت تعليمها الابتدائي في موسكو ثم واصلت دراستها في سويسرا. وألمانيا حيث اصطحبتها والدتها معها أثناء فترة علاجها في الخارج.

وبدأت الشاعرة في الكتابة وعمرها لا يتجاوز السادسة، حيث كتبت أول قصة بعنوان «الذين حلوا في المرتبة الرابعة»، كما ترجمت إلى الروسية دراما للكاتب الفرنسي غ. روستان بعنوان «الغزال الصغير» والتى تحدث عن مصير مأساوي لابن ناليون. غير أن كلًّا من القصة والترجمة قد ضاعا ولم يتم العثور عليهما.

وفي عام ١٩١٠م نشرت تسفيتايفا على نفقتها الخاصة أول ديوان شعري بعنوان «الألبوم المسائي». وجذبت إبداعاتها القرَّاء والنقَّاد وكبار الشعراء حينها ومنهم فاليري بريوسوف وماكسيميليان فالوشين ونيقولاي جوموليوف، وفي عام ١٩١٢ نشرت كتابها الثاني بعنوان «الفنار البديع» غير أنه تعرض لانتقادات.

وفي عام ١٩١٣م أصدرت ديوانها الثالث بعنوان «خلاصة كتابين». حيث انتقت بدقة نصوصًا من بين ٢٣٩ نصًّا يضمها كتاباها الأولان، وانتقت الشاعرة أربعين قصيدة فقط وأعادت نشرها. وذاع صيتها بشدة وكانت قد تعرفت في تلك الفترة على الأديب سيرجي ايفرون وتزوجا في عام ١٩١٢م وأنجبت منه طفلة.

لما اندلعت الحرب العالمية الأولى رأت فيها الشاعرة انفجارًا للكراهية ضد دولة ألمانيا العزيزة على قلبها. وكتبت أشعارًا عن هذا الحدث اصطدمت بالمشاعر الوطنية التى كانت تسيطر حينها على معظم الأدباء الروس.

كما رحبت الشاعرة بثورة فبراير ١٩١٧م أما ثورة أكتوبر ١٩١٧ فناهضتها الشاعرة وظلت على مدى ثلاثة أعوام ١٩١٧ - ١٩٢٠ تكتب شعرًا يدعم الجيش الأبيض ضد الأحمر. وقد ضمت هذه الأشعار لاحقًا في كتاب لم ينشر إلا عام ١٩٥٧. غير أن تمجيد تسفيتايفا للبيض لم يكن بدوافع سياسية إنما لأسباب روحية وأخلاقية. لم تتضامن الشاعرة أو تدعم الجانب المنتصر أي البلاشفة بل دعمت الطرف المحتم فشله وكان زوجها أيضًا بينهم. وقد كتبت قصيده أهدتها لزوجها بعنوان «الفراق» ١٩٢١. وقد فقدت الشاعرة في تلك السنوات ابنتها الصغيرة وكتبت أيضًا مرثية لها.

وفي يوليو ١٩٢١م تلقت تسفيتايفا خطابًا من زوجها يخبرها أنه هرب إلى تركيا ومنها إلى التشيك. وبعد عدة محاولات سمح للشاعرة بالسفر إلى خارج الاتحاد السوفيتي، وكان ذلك في مايو ١٩٢٢م.

وقضت الشاعرة في التشيك أربع سنوات وأنجبت ابنها جيورجي وأقامت علاقات مع الجمعيات الأدبية ودور النشر والمجلات. وصارت كتاباتها تنشر في مختلف دور النشر، ومنها «إرادة روسيا» و«على طريقتنا». كما اشتغلت الشاعرة في التحرير لبعض المجلات الأدبية.

وفي نهاية عام ١٩٢٥م قررت الشاعرة السفر إلى فرنسا. حيث اعتقدت أنها ستتمكن بشكل أفضل من العمل وتحقيق نجاحات وتوفير حياة كريمة في باريس لها ولعائلتها، وكانت باريس حينها قد أصبحت مركزًا للهجرة من روسيا. وهناك تمكنت من كتابه «قصيدة العام الجديد» وتراجيديا «فيدرا». كما شهدت فترة إقامتها في فرنسا صدور عدة دواوين لها إهداء إلى كبار الشعراء الروس ومنها «إلى ماياكوفسكي» و«أشعار إلى بوشكين» و«أشعار لليتيم». كما جربت الشاعرة نفسها في كتابة النثر حيث كتبت سير ذاتية ومقالات عن بوشكين ومؤلفاته» بوشكين وبوجاتشوف» و«بوشكين الخاص بي»

غير أن انتقالها إلى فرنسا لم يخفف من صعوبة الحياة لا سيما وأن زوجها لم يكن من محبي العمل أو الكد والكفاح وكان يجنى القليل من المال، ولم تكن المكافآت التى تحصل عليها تسفيتايفا من الكتابة تكفيهم. وكانت الشاعرة غريبة على مجتمع الأدباء الروس المهاجرين حيث كان معظمهم يدور في فلك الأدب الروسي الكلاسيكي في حين كانت تسفيتايفا أكثر عاطفية وحماسة. فقد قيم الشعراء والكتاب المقيمون في باريس حينها (جيبوس واداموفيتش وايفانوف وغيرهم) إبداع تسفيتايفا بشكل سلبي. وساعد على ذلك طبيعتها وشخصيتها المعقدة والصعبة في التعامل وسمعة زوجها

والإشاعات التى كانت تدور حول محاولاته للعودة إلى روسيا وانضمامه إلى اتحاد العائدين إلى الوطن بل وتعاونه مع المخابرات السوفيتية.

وفي النصف الثاني من الثلاثينيات عانت الشاعرة من أزمة إبداعية شديدة. حيث توقفت تقريبًا عن كتابة الشعر باستثناء قصيدة واحدة بعنوان «أشعار عن التشيك» عبَّرت فيها عن احتجاجها على احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا. وحدث خلاف شديد بين الشاعرة وعائلتها التى كانت ترغب في العودة إلى الوطن. وبعد تردد طويل غادرت مع أسرتها عائدة إلى روسيا السوفيتية عام ١٩٣٩ ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية.

غير أنه سرعان ما تم اعتقال زوجها وابنتها واعتبروا أعداء للوطن. ومنذ تلك اللحظة وأفكار الانتحار تراود تسفيتايفا، حيث لم تكن تتوقع أن تكون عودتها إلى الوطن على هذا النحو وتؤدي إلى هذه النتيجة. وانتقلت الشاعرة مع ابنها إلى بيت الأدباء في قرية جوليتسينو بالقرب من موسكو غير أن اتحاد الكتَّاب رفض مساعدتها لوصفها زوجة وأمًّا لأعداء الوطن. ولم يتم طباعة الديوان الذى كتبته في عام ١٩٤٠ وعانت الشاعرة من نقص شديد في المورد. وكان دخلها شحيحًا من بعض التراجم، واضطرت إلى تلقي المساعدات من بعض الأصدقاء.

وبعد بداية الحرب في روسيا عام ١٩٤١ تم ترحيل الشاعرة وابنها من موسكو إلى مدينة صغيرة في تتارستان. ولم تعثر على عمل هناك، وأخذ الابن يلومها فيما آلت إليه أحوالهم. ولما لم تحمل الخلافات وضيق العيش انتحرت شنقًا في أغسطس عام ١٩٤١م ومن غير المعلوم المكان الذي دفنت فيه الشاعرة.

14

فاليري ياكوفليفياش بريوسوف

(١٨٧٣ - ١٩٢٤م)

هو شاعر روسي وأحد مؤسسي الرمزية الروسية، وناثر وكاتب مسرحي وناقد أدبي ومترجم. وُلد في عام ١٨٧٣ بموسكو من عائلة تمارس التجارة. وكان أبوه شغوفًا بالعلوم والأدب، وله عدة قصائد منشورة، كما كانت أمه تحب الأدب. وكانت تقرأ له الروايات الفرنسية.

ولم تكن أسرة بريوسوف أسرة متدينة بل على العكس كانت تنحو نحو الفلسفة المادية والإلحاد حتى إنهم منعوا الأبناء من قراءة الكتب الدينية. غير أن فاليري كان ذا حظ جيد في التعليم، حيث ألحقه أبوه بمدارس جيدة. وبعد انتهاء دراسته في المدرسة الثانوية التحق بالجامعة في موسكو بكلية الأدب والتاريخ، وظل فيها في الفترة من ١٨٩٣ - ١٨٩٩. حيث درس في البداية في قسم الأدب الكلاسيكي ثم انتقل إلى كلية التاريخ. وفي عام ١٨٩٦ تزوج فاليري من السيدة يوانا ماتفيفنا رونت والتى أصبحت مساعدًا له في نشاطه الأدبي.

وقد بدأ بريوسف مبكرًا في كتابة الشعر إلا أنه قوبل بعدم اهتمام من القراء والنقاد لفترة طويلة. وفي فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر اهتم بقراء أعمال الكتّاب والشعراء الرمزيين في فرنسا وجاءته فكرة إصدار سلسلة من الدواوين الشعرية بعنوان «الرمزيون الروس». وصدر أول ديوان بعنوان «الروائع» في عام ١٨٩٥م. وقد تضمن الكتاب مجموعة من قصائد الشاعر إلا أن النقاد هاجموه وقللوا من أهميته.

وفي عام ١٨٩٧م أصدر مجموعته الثانية بعنوان «هذا أنا» ولم يكن حظه أفضل من سابقه لدى القرا ء أو النقاد.

وفي عام ١٩٠٠م أصدر كتابه الثالث بعنوان «الدرع الثالث» والذي مثَّل مرحلة جديدة في إبداعات الشاعر. غير أن صيت الكاتب لم ينتشر في ربوع روسيا إلا بعد صدور الكتاب الرابع «إلى المدينة والعالم» الذى جعل منه زعيمًا للاتجاه الرمزي في الأدب.

شهدت سنوات الثورة «١٩٠٥ - ١٩٠٧) صدور مجموعة من القصائد في ديوانه «التاج» والذي يعد أروع ما كتب الشاعر وتتويجًا لإبداعه الشعري. وقد تناول فيه بيريوسوف قضايا مدنية وشعرًا غنائيًّا في الحب، وصل فيها الشاعر إلى قمة الشفافية والرقة في التاثير.

وقد ترأس بريوسووف بمقدرة كبيرة مجلة «الميزان» حتى أصبح خلال فترة قصيرة واحدة من أكثر الإصدارات النافذة والمؤثرة على الساحة الثقافية في روسيا والمجلة الرئيسية لمبدعي الحداثة الروس. غير أن عام ١٩١٠م قد شهد توقف إصداره المجلة حينما استسلم الرمزيون وسلموا مقاليد الأدب إلى التيارات الجديدة حينها. وحدث تحول كبير في أسلوب بريوسوف الإبداعي تحول فيه إلى البساطة في شكل الشعر (ديوان «مرآة الظلال» ١٩١٢م) غير أنه التزم فيما بعد بقواعده القديمة، وعاد إلى اللغة الصعبة والأسلوب الثري المزخرف؛و لهذا أخذ يبتعد تدريجيًّا عن الشعر، ويتجه إلى النثر والترجمة.

وقد نادى الشاعر كثيرًا بنظرية هيمنة الجنس السلافي وتصوير روسيا بأنها روما الثالثة ثم صدم بقوة بعد الحرب الروسية اليابانية، وبدت له معتقداته تلك أوهامًا. واتجه خلال الفترة من ١٩٠٧ - ١٩١٢م إلى التفكير بعمق في القانون والمنطق الذى يحكم هذه التحولات التى تجرى في العالم. وصدرت له روايتان في تلك الفترة (١٩٠٧ – ١٩٠٨) и يتحدث فيهما عن الفترات التاريخية المهمة والتى شهدت تحولات قوية، ويحاول فيهما أن يفهم مع القارئ أسباب هذا الوضع الكارثي الذى يسيطر على العالم انطلاقًا من دروس التاريخ والنماذج المشابهة.

وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م سافر بريوسوف إلى الجبهة وعمل كمراسل عسكري، وكتب تحت تأثير هذه التجربة عدة قصائد وطنية جمعها في ديوان بعنوان» ألوان الطيف السبعة» ١٩١٦م. ونلمح فيها أنه تعاطف وشارك في البداية مشاعر الوطنية العسكرية إلا أنه وبعد فترة من وجوده على الجبهة توصل إلى نتيجة مفادها أن الحرب ضد الإنسانية.

وقد استقبل بريوسوف ثورة ١٩١٧ في روسيا بترحاب، واعتبرها تحولًا مهمًّا في تاريخ الإنسانية، وتعاون بشكل نشط مع السلطات السوفتية في مجال الثقافة والتعليم. وفي عام ١٩٢٠ التحق بريوسوف بالحزب الشيوعي، كما شغل قبلها في الفترة من ١٩١٧ - ١٩١٩م لجنة الصحافة وقسم المكتبات العلمية والقسم الأدبي بوزارة التعليم، كما شغل مناصب رفيعة أخرى. بالإضافة إلى ذلك أسس بريوسوف في عام ١٩٢١م المعهد العالي للآداب

والفنون وأصبح أول رئيس له. وقضى سنوات عديدة في التدريس بجامعة موسكو والأكاديمية الشيوعية.

وقد حاول بريوسوف في أشعاره الأخيرة (١٩٢٤) تفسير مبادئ المنهج العلمي الجديد في فهم العالم المحيط، غير أن محاولاته تلك لم تجد استحسانًا أو صدى بين القراء.

وتُوفي بريوسوف في عام ١٩٢٤ بعد معاناة مع مرض الالتهاب الرئوي.

15

ألكسندر ايفانوفيتش كوبرين

١٨٧٠ - ١٩٣٨

من أهم كتَّاب الواقعية في العصر الفضي ألكسندر كوبرين. وُلد عام ١٨٧٠ في محافظة بينزا من أب موظف مات بعد عام واحد من ميلاده. وتولت والدته ذات الأصول التتارية تربيته، حيث انتقلت به إلى موسكو وفيها قضى الكاتب طفولته وصباه. وعندما بلغ السادسة من عمره التحق بمدرسة للأيتام تخرج منها عام ١٨٨٠ ثم مدرسة ثانوية عسكرية وأنهى دراسته عام ١٨٨٧م.

وكانت أولى تجاربه الأدبية في الشعر إلا أنها لم تنشر. وفي عام ١٨٩٠م التحق بالجيش، وخدم ضابطًا لأربع سنوات في أوكرانيا وهو ما منحه تجربة ثرية وخبرات كبيرة ومادة للكثير من أعماله في المستقبل.

وفي الفترة بين ١٨٩٣ - ١٨٩٤ نشر في مجلة «الثراء الروسي» عددًا من القصص القصيرة «ليلة مقمرة» كما تناول موضوع الجيش في عدة قصص قصيرة نذكر منها «نوبة الليل» و«الحملة».

وفي عام ١٨٩٤م استقال من الجيش وانتقل إلى مدينة كييف الأوكرانية. وسافر كثيرًا في السنوات التالية عبر المدن الروسية وجرب نفسه في العديد من الوظائف وأخذ ينهل منها المزيد من الانطباعات والخبرات.

وفي التعسينيات من القرن التاسع عشر نشر كوبرين عددًا من القصص القصيرة والقصص وذاع صيته في البلاد ككاتب موهوب. وتعرف في تلك الفترة على كبار الكتَّاب أمثال ايفان بونينو انطون تشيخوف وماكسيم جوركي. وفي عام ١٩٠١ انتقل الكاتب إلى بطرسبورج حيث بدأ العمل سكرتيرًا لمجلة أدبية تحمل اسم «مجلة للجميع». وبدأ ينشر قصصه القصيرة في مجلات بطرسبورج ومنها «البركة» (١٩٠٣).

وفي عام ١٩٠٥م صدرت قصته «النزال» والتى نالت نجاحًا كبيرًا. وكانت قراءة الكاتب لفصول من قصته أمام الحضور في إحدى الفعاليات حدثًا كبيرًا على المستوى الثقافي. وفي تلك الفترة نشر الكثير من القصص القصيرة ومنها «الضابط ريبنيكوف» و«نهر الحياة» و«حدث في سيفاستوبول».

بين ثورتي ١٩٠٥ و١٩٠٧ اتسمت إبداعاته بكونها مناهضة ومنتقدة لروح الانهزامية التى سادت بين المثقفين الروس في تلك السنوات. وأصبحت كتاباته النثرية ظاهرة فريدة في الأدب الروسي، حيث واصل الكاتب تقاليد الواقعية الروسية في عصرها الذهبي.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى حول كوبرين منزله إلى مستشفى ميداني. وفي نوفمبر ١٩١٤م استدعيَ للجيش وخدم في فنلندا إلا أنه سرعان ما عاد في العام التالي نظرًا لحالته الصحية.

وفي هذا العام أنهى الكاتب قصته «الحفرة» والتى يحكي فيها عن حياة الفتيات الداعرات في روسيا وهو ما عرضه لانتقادات كبيرة نظرًا لجرأتها الشديدة في تصوير هذه الظاهرة على الرغم من كونه صور ما يحدث بالفعل. وتم تحميل دار النشر التى أصدرت القصة المسئولية القانونية واتهامها بنشر كتاب يحمل مضمونًا إباحيًّا.

وقد استقبل الكاتب بحماس شديد أنباء ثورة فبراير ١٩١٧ وعزل الإمبراطور نيقولاي الثاني. وفي عام ١٩١٧م ترأس كوبرين عدة مجلات أدبية «روسيا الحرة» و«الحرية» و«ورقة بيتروجراد». وعندما استولى البلاشفة على السلطة عارض الكاتب سياسة الشيوعية العسكرية وما يرتبط بها من إرهاب فكري. وفي عام ١٩١٨م التقى كوبرين مع فلاديمير لينين رئيس الحكومة البلشفية. واقترح عليه إصدار صحيفة مختصة بالقرية الروسية باسم «الأرض». كما عمل الكاتب في دار نشر «الأدب العالمي» والتى أسسها مكسيم جوركي وقام بإعداد ترجمات وخاصة أعمال شيلير إلى الروسية.

وقد أدت معارضته للسلطات السوفيتية إلى اعتقاله. وقضى الكاتب ثلاة أيام في السجن ثم خرج من السجن وأدرج في قائمة الرهائن.

وفي أكتوبر ١٩١٩م ومع وصول الجيش الأبيض إلى مدينة جاتشينا حيث كان يعيش انضم إليهم كوبرين وخدم في الجيش الأبيض حتى إنه قام بالعمل في صحيفة عسكرية تابعة للجيش الأبيض. وبعد أن نالت منهم الهزيمة فر كوبرين إلى أستونيا ومنها إلى فنلندا وعاش هناك حتى ديسمبر ١٩٢٠ ثم انتقل إلى باريس.

وعاش الكاتب سبعة عشر عامًا في فرنسا وكانت سنوات مثمرة. حيث كتب في المهجر ثلاث قصص كبيرة والكثير من القصص القصيرة والمقالات. ولاحظ النقاد أن كتاباته أصبحت أكثر إشراقًا.

وحل الفقر بعائلته وتضاعفت ديونه مع حلول عام ١٩٣٠. وكانت المكافآت التى يحصل عليها عن كتاباته ضئيلة وأخذ بصره يضعف وينفق على علاجه. وأصبحت العودة إلى الاتحاد السوفيتي الحل الوحيد لمشاكله المادية والنفسية. وفي نهاية عام ١٩٣٦ طلب تأشيرة لدخول روسيا وحصل عليها في العام التالي، حيث دعته الحكومة السوفيتية للعودة، وكان المرض قد تمكن منه.

إلا أنه لم يتمكن من استكمال إبداعاته وتحقيق خططه في الكتابة، حيث لم ينجح في نشر سوى كتاب واحد «موسكو العزيزة». وفي أغسطس ١٩٣٨م توفي الكاتب بعد صراع مع مرض السرطان.

16

إيفان الكسيفيتش بونين

١٨٧٠ - ١٩٥٣م

يعتبر بُونين من كبار الشعراء والكتَّاب الروس في القرن العشرين، ومن بين خمس شخصيات روسية حصلت على جائزة نوبل في الآداب. وُلد الكاتب في أكتوبر ١٨٧٠م بالقرب من مدينة فورونيج. وكان أبوه ضابطًا شارك في الدفاع عن جزيرة القرم. وبعد ميلاد بونين انتقلت الأسرة إلى محافظة أخرى تسمى أرلوف حيث قضى الكاتب طفولته.

ولم يلتحق الكاتب المدرسة إلا وعمره ١١ عامًا. أما قبلها فقد تلقى تعليمه بالمنزل على يدي والدته. وبقي في المدرسة خمس سنوات وكانت مدرسة داخلية. وتخرج فيها عام ١٨٨٦ وعاد إلى منزله حيث تولى تعليمه أخوه الأكبر يوليا. وانشغل بونين في تعليم نفسه ذاتيًّا واهتم بقراءة الأدب العالمي وكلاسيكيات الأدب الروسي. وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره بدأ في كتابة الشعر، وصدرت أولى أعماله عام ١٨٨٧م.

وفي عام ١٨٨٩ انتقل بونين إلى مدينة أوريول، وعمل مصححًا ومدققًا في صحيفة «أخبار أورولوف». وتعرف الكاتب على زميلته بالصحيفة وتقدم لخطبتها إلا أن والداها رفضا؛ ولذا تزوج منها سرًّا في عام ١٨٩٢م وسافرا إلى أوكرانيا. وكان قبلها قد تمكن من نشر أول ديوان شعري له في عام ١٨٩١م بعنوان «قصائد شعرية».

وفي عام ١٨٩٥م تعرف بونين على أنطون تشيخوف، وكانا قبلها قد تراسلا لمدة طويلة. كما تعرف في تلك الفترة على كل من ميرا لوخفيتسكايا وقنسطنطين بالمونت وفاليري بريوسوف.

وفي التسعينيات من القرن التاسع عشر سافر الشاعر كثيرًا وزار العديد من المدن الروسية، حيث استقل باخرة تجوب نهر الدنيبير وزار ضريح الشاعر الأوكراني العظيم تاراس شيفشينكو، والذي كان يعشقه وترجم لاحقًا الكثير من أعماله.

وفي سبتمبر ١٨٩٨م تزوج من السيدة هانا نيقولايفنا تساكين ابنة الناشط الثوري والثري الأوكراني ن. تساكين. غير أن زواجهما لم يستمر طويلًا وتوفي ابنهم الوحيد بعد خمس سنوات فقط من مولده. وفي عام ١٨٩٨م صدر ديوانه الشعري «تحت السماء المفتوحة». وفي عام ١٩٠٠ ظهرت أولى قصصه القصيرة بعنوان «تفاحات أنطون» وتعد من أعماله المميزة.

في عام ١٩٠١م صدر له ديوان «تساقط الأوراق في الخريف» وفي عام ١٩٠٣م منح الشاعر جائزة بوشكين الأدبية. وواصل بونين ترحاله، حيث زار جنوب روسيا والقوقاز ثم زار فرنسا وسويسرا وإيطاليا وتركيا.

وفي عام ١٩٠٩م تعرف الشاعر على السيدة فيرا نيقولايفنا مورومتسيفا، وسافر معها في العام التالي إلى فلسطين وسوريا ومصر.

وفي حين تناول بونين في قصصه المبكرة «على حافة العالم» و«تفاحات أنطون» حياة صغار طبقة النبلاء والذين بدءوا يعانون ويفقدون أملاكهم، فقد شهدت الفترة التالية تطورًا ونضجًا في موهبة الكاتب الذى أصبح الموضوع الرئيس في أعماله يدور حول دراماتيكية المصير التاريخي الروسي وتجسد ذلك بوضوح في أعماله «القرية» و«الوادى الجاف» ١٩١٠ و١٩١٢ على التوالي.

وقد نال هذان العملان نجاحًا عظيمًا لدى القراء والنقاد، حيث أشار الكاتب الكبير ماكسيم جوركي إلى أهميتهما، وقال: إن بونين قد طرح قضية مصير روسيا ومستقبلها. اعتقد بونين أن القرية الروسية مهددة بالزوال والانهيار، وقد اتهمه البعض بأنه يعكس نظرة تشاؤمية وسلبية للحياة في القرية.

وفي عام ١٩١٠م سافر بونين مرة أخرى حيث زار في البداية أوروبا، ومنها انتقل إلى مصر وجزيرة سيلان. وفي خريف ١٩١٢م وحتى ربيع ١٩١٣م زار بونين مدن طرابازون والقسطنطينية وبوخارست. وانتقل إلى كابري في إيطاليا وعاش فيها حتى ١٩١٤م. وقد انعكست انطباعاته عن تلك الرحلات في أعماله الأدبية وخاصة في قصته «الإخوة» ١٩١٤م.

وفي العامين ١٩١٥ - ١٩١٦م أصدر مجموعات قصصية للكاتب وهي «السيد من سان فرانسيسكو» و«كأس الحياة» ويعرض بونين في أعمال تلك الفترة مأساوية الحياة للمصير التراجيدي والمحتوم الذي ينتظر الناس في روسيا والكراهية التى وصلت مداها بين الحضارات والتى تسعي لتدمير بعضها البعض. وأصبحت أعماله تدور في معظمها عن الموت والمصير وعادة ما ينتهي التصارع بين الشخصيات إلى القتل. ويري بونين أن القيم الوحيدة الباقية في عالمنا المعاصر تبقى الحب والجمال والطبيعة. حتى الحب بين أبطال مؤلفاته نجده يحمل مسحة مأساوية ونهايته مؤلمة.

وقد استقبل ايفان بونين ثورة فبراير ١٩١٧م باستياء حيث تنبأ بالأحداث المأساوية التى ينتظرها الشعب الروسي، أما ثورة أكتوبر من نفس العام فقد عمقت في نفسه الثقة واليقين بقرب الانهيار. وقد كتب ما يشبه يوميات لتلك الأحداث ورؤاه وأفكاره حولها وصدر ذلك في كتاب يحمل عنوان «أيام لعينة» (١٩١٨).. وقد أجبرت الأحداث الثورية بونين على الفرار من روسيا بصحبة زوجته. حيث سلكا طريقًا عبر كييف وأوديسا ثم بلجراد حتى وصل إلى باريس في مارس ١٩٢٠م.

وفي المهجر قام بونين بنشاط اجتماعي وسياسي فعَّال وكبير، حيث كان يلقي المحاضرات، وتعاون مع المنظمات السياسية الروسية ذات التوجهات القومية والعودة للملكية. كما كتب بانتظام مقالات في الصحف. وفي عام ١٩٢٤م أصدر بيانًا يحمل عنوان «مهمة الروس في المهجر». وفيه أعطى بونين تقييمه الشخصي لما حدث في روسيا ورؤيته لشخص زعيم البلاشفة فلاديمير لينين. كتب بونين: «هذا الكائن الأحمق منذ مولده لينين أظهر العالم مكانًا موحشًا مخيفًا وأفقر أغني دولة في العالم وقتل ملايين البشر. وما زالوا هناك يتجادلون، ماذا كان هذا الشخص نعمة على الإنسانية أم نقمة».

وكتب بونين في أثناء إقامته في المهجر أروع إبداعاته شعرًا ونثرًا ونذكر منها «ضربة شمس» ١٩٢٤ و«حياة أرسينيف» ١٩٣٣ ومجموعته القصصية «الدروب المظلمة» ١٩٤٠م. ومثلت هذه الأعمال مرحلة جديدة في إبداعات الشاعر والكاتب بونين، وكذا في تاريخ الأدب الروسي بشكل عام. ورأى النقاد في قصته «حياة ارسينيف» واحدة من أروع المؤلفات في الأدب الروسي، وكذا ظاهرة في الأدب العالمي.

وفي عام ١٩٣٣م منح بونين جائزة نوبل في الأدب.

وقد عاش بونين سنوات الحرب العالمية الثانية في فرنسا وعاني فيها من الفقر والجوع إلا أنه لم يتعاون أبدًا مع النازيين، ولم يقم بنشر أي عمل خلال تلك السنوات.

وقضى بونين السنوات الأخيرة في حياته في باريس، حيث تعرض لمرض طال علاجه. وأخذ يحلم بالعودة إلى الوطن ورؤية موسكو من جديد إلا أن المرض لم يمهله، حيث توفي في الثامن من نوفمبر عام ١٩٥٣م.

17

مكسيم جوركي
١٨٦٨ - ١٩٣٦م

الاسم الحقيقي للكاتب مكسيم جوركي هو الكسي مكسيموفيتش جوركي، وهو كاتب روسي بارز ومؤلف دراما وناشط اجتماعي. وُلد جوركي في مارس ١٨٦٨م بمدينة كانافينو بالقرب من مدينة نيجني نوفجورود. قضى سنوات طفولته في منزل

جده فاسيلي كاشيرين بعد وفاة أمه وأبيه. وتولت جدته أكولينا إيفانوفنا رعايته وأخذت تحكي له القصص والأساطير الشعبية والحكايات وقام جده بتعليمه القواعد الأولية في اللغة الروسية.

ولم ينل الكاتب حظه من التعليم حيث درس في مدرسة للحِرَفِ وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره اضطر بسبب فقره إلى ترك المدرسة والعمل في محل وفي مخبز وفي غسيل الصحون على إحدى السفن، كما تعلم رسم الأيقونات وغيرها.

وفي عام ١٨٨٤م حاول جوركي الالتحاق بجامعة كازان إلا أن محاولته باءت بالفشل إلا أنه تعرف في تلك الفترة على الأدب الماركسي وأصبح يفكر بإمعان في ضرورة تغيير النظام العالمي. وبعد أربع سنوات وبسبب علاقته الوطيدة بالثوريين وضع تحت المراقبة من الشرطة.

وفي عام ١٨٨٨ عمل جوركي حارسًا في محطة سكك حديدية في جنوب روسيا. وقد تركت هذه المنطقة انطباعات قوية في نفسه، وهو ما انعكس لاحقًا في كتاباته عن حياته «الحارس» و«في سبيل القليل من الملل»

وفي يناير ١٨٨٩م، وبناء على طلبه (قدم شكوي مكتوبة شعرًا) تم نقله إلى محطة بوريسجليبسك ثم إلى محطة كرواتيا وفي ربيع ١٨٩١م توجه جوركي في رحلة عبر روسيا. وفي الرحلة جرب الحياة في الكهوف وبين الرعاع، وعاني الجوع وعمل أجيرًا في بعض الأوقات للحصول على المال، وهكذا عبر منطقة الفولجا كاملة سيرًا على الأقدام، وكذا منطقة نهر الدون، كما زار أوكرانيا والقرم والقوقاز.

وبدأ جوركي مشواره الأدبي بالعمل في صحيفة محلية. ونشر فيها أولى أعماله، وكان يوقع تحتها باسم مستعار، ولم يعرف باسمه الحقيقي سوى في عام ١٨٩٢م عندما نشر قصته «ماكار تشودرا» في صحيفة «القوقاز»

ثم عاد الأديب الشاب إلى نيجني تنوفجورود، واستطاع هناك أن ينشر قصصه القصيرة الرومانسية «العجوز ايزيرجيل» و«تشيلكاش» وعندها فقط أحس الكاتب بنفسه أديبًّا حقيقيًّا.

وقد كتب جوركي معظم مؤلفاته المهمة في الفترة بين عامي ١٨٩٧ - ١٩٠١م. حيث ضمت هذه المرحلة صدور أعماله «أناس من الماضي» «مالفا» وفي عام ١٨٩٨م نشر الجزء الأول من أعماله الكاملة ثم رواية «فوما جوردييف» ومسرحية «في الحضيض».

انعكست في أعماله الروح الثورية التى سادت المجتمع الروسي وخاصة في رواية «الأم» التى صدرت في عام ١٩٠٦م. حيث وصف فيها الكاتب أناسًا عاديين من عامة الشعب ومعاناتهم في الحياة. واستطاع جوركي أن يظهر ويصور التوجهات الثورية التى تتنامى في المجتمع يومًا بعد يوم والحراك الديمقراطي وعدم قبول الشعب بسلطة القيصر، وهو ما منح جوركي شهرة عالمية.

وعاش جوركي بعد ذلك في إيطاليا وشهدت الفترة بن الثورتين في روسيا ١٩٠٥ - ١٩٠٧م بعض التغيرات على القناعات والرؤى السياسية له. حيث أخذ ينتقد سياسة البلاشفة بزعامة فلاديمير لينين. وانعكست فلسفته المناهضة للبلاشفة في روايته «الاعترافات» ١٩٠٨م. وعلى الرغم من ذلك انخرط جوركي عند عودته في عام ١٩١٣ في العمل محررًا في صحف البلاشفة «البرافدا» و«زفيزدا» كما عمل في صحيفة «التنوير» واشتغل في تلك الفترة في إعادة قصته «حكاية عن إيطاليا» ١٩١٢ - ١٩١٦م

كما انتهى جوركي في تلك الفترة من كتابة سلسلة من القصص القصيرة جمعها في كتاب سماه «في رحاب روسيا» وكذا قصصه في سيرته الذاتية «الطفولة» و«بين الناس» أما الجزء الثالث من هذه الثلاثية فكان اسمها «جامعاتي»،و نشرت في عام ١٩٢٣م.

ونشط الكاتب سياسيًّا واجتماعيًّا في عامي ١٩١٨ و١٩١٩م، ولم يمنعه ذلك من انتقاد منهج الشيوعية العسكرية وعلاقة السلطة السوفيتية الجديدة بطبقة المثقفين القديمة. ونظرًا لكثرة نقاط الخلاف بينه وبين الشيوعيين في العديد من النقاط، وكذا نظرًا لمرضه الشديد بالسل اضطر جوركي إلى مغادرة

روسيا وانتقل إلى إيطاليا في عام ١٩٢١م. وهناك أصدر روايته «قضية أرطامان»

وفي عام ١٩٢٨م دعته الحكومة السوفيتية للعودة، وكان ذلك بخطاب من الزعيم جوزيف ستالين نفسه، فسافر جوركي إلى روسيا السوفيتية في رحلة تركت انطباعات غنية في نفسه، وكتب عن ذلك في عدة مقالات أدبية بين عامي ١٩٢٨ - ١٩٢٩م. وفي عام ١٩٣١م وبعد أن اقتنع بضخامة الإنجازات التى تحققت في عصر الاشتراكية قرر العودة إلى وطنه بشكل نهائي.

ونظرًا لمكانته الكبيرة على الساحة الأدبية كلفته الحكومة بتأسيس أول مؤتمر للكتَّاب السوفييت والذى انعقد في موسكو عام ١٩٣٤م، وفي تلك الفترة أنهى الكاتب كتابه مسرحيات «يجور بوليتشيف وأخرون» ١٩٣٢، كما واصل عمله في كتابة روايته الشهيرة «حياة كليم سامجين»

وفي يونيو ١٩٣٦ تُوفي مكسيم جوركي، وتم دفنه بالميدان الأحمر.

18

ليونيد أندرييف

١٨٧١ - ١٩١٩م

هو ناثر وكاتب مسرحي، وُلد في عام ١٨٧١م. كان أبوه موظفًا بسيطًا، أما والدته فكانت ابنة أحد الأثرياء البولنديين الذى فقد أملاكه. وعندما بلغ من العمر ست سنوات تعلم القراءة والكتابة. وكان مولعًا بالقراءة منذ صغره وفي سن الحادية عشرة التحق بالمدرسة الثانوية الداخلية، وأنهى دراسته فيها في عام ١٨٩١م. وقد شغف منذ صغره بالرسم، ولكن لم يكن هناك أساتذة للرسم في مدينته أوريول.

ثم درس أندرييف بكلية الحقوق بجامعتي بطرسبورج وموسكو، وفي عام ١٨٩٧ نال شهادة دبلوم الحقوق. وعمل لعدة سنوات محاميًّا، ومارس في الوقت نفسه هوايته في الرسم كما عمل صحفيًّا.

وكان أندرييف شخصًا موهوبًا، ولكنه كان شديد التوتر وحاول مرتين في شبابه الانتحار وأصيب بمرض القلب. كانت روحه التشاؤمية ورغبته في محاسبة الحياة على ما تجلبه على الإنسان من متاعب مبعثها اعتناقه لأفكار الفيلسوف الألماني أرتور شوبينهاور.

وبدأ أندرييف ممارسة الكتابة الأدبية الاحترافية في عام ١٨٩٧م. عندما صدرت أولى مقالاته وقصصه القصيرة على صفحات صحيفة «ساعي البريد» التى تصدر بموسكو. وكان لقصته القصيرة «بارغاموت وجاراسكا» ١٨٩٨ فضل كبير في ذيوع صيته. وقد أعجب جوركي بالقصة وهو صاحب الفضل في انضمام أندرييف إلى الجمعية الأدبية. وكانت هذه الجمعية تضم كتَّاب الواقعية الروسية، وكان معظمهم من أصحاب الرؤى الراديكالية سياسيًّا. غير أن أندرييف لم يكن ذا أهمية شديدة بالسياسة.

وفي عام ١٩٠١م ساعده جوركي في نشر كتابه الأول بعنوان «قصص قصيرة» واتبع فيها الكاتب تقاليد الواقعية، حيث تأثر بشدة بكبار الكتَّاب في القرن التاسع عشر أمثال تولستوي وتشيخوف ودوستويفسكي. فضلًا عن ذلك اعتبر أندرييف نفسه تلميذًا لهؤلاء وتابعًا وأعلن عن استمراره على نهجهم.

وكانت أولى القصص الناضجة للكاتب في أعوام ١٨٩٩ «الخوذة الكبيرة» ١٩٠٠ «الصمت» و«حكاية سيرجي بيتروفيتش» ١٩٠١ و«كان يا ما كان» وغيرها وكانت جميعها تتسم بالتحليل النفسي. وجمع فيها الكاتب بين ثراء الحياة الواقعية والمعيشية مع عناصر الخيال ما يجعل من العمل الأدبي نموذجًا فريدًا في السخرية من الواقع. وقد منحه كتابه «قصص قصيرة» شهرة واسعة في عموم روسيا، كما وضعه النقاد في صف كل من جوركي وبلوك وبينهما أي بين الواقعية والرمزية. وكانت شهرة الكاتب عظيمة وخاصة بين الشباب.

انشغل الكاتب بظاهرة الاغتراب المتنامية والوحدة التى يعاني منها الإنسان الروسي وغلبة المادية على الروحانية. (قصة «المدينة» ١٩٠٢م). كما اهتم بموضوعات الجنون والموت «الفكرة» ١٩٠٢ ورواية «حياة فاسيلي فيفيسكي» ١٩٠٣م.

وفي عام ١٩٠٤م وفي أثناء احتدام الحرب الروسية اليابانية كتب أندرييف قصة قصيرة بعنوان «الضحكة الحمراء» والتى تعد مرحلة مهمة في طريقه الإبداعي.و عبَّر الكاتب بشكل رمزي عن جنون الحرب الذى أصبح يسود في العالم.

وفي أثناء ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ قدم أندرييف الدعم للثوريين فتم اعتقاله وسجنه. غير أنه لم يكن أبدًا على قناعة بالثورة. فقد تشكك كثيرًا في جدواها، وعبَّر عن شكوكه تلك في مسرحيته «نحو النجوم» والتى تفوح برائحة الثورة، كما كتب في الوقت نفسه قصة قصيرة بعنوان «هذا ما كان» حيث يطرح رؤى تشاؤمية حول جدوى الثورات.

وفي الفترة بين عامي ١٩٠٧ - ١٩١٠ صدرت له مؤلفات تنتمي إلى مدرسة الحداثة مثل «سافا» و«الظلمة» و«قيصر الجوع». كما كتب مسرحيات فلسفية «حياة الإنسان» «الأقنعة السوداء» وغيرها. وتعاون الكاتب في تلك الفترة بنشاط مع مجلات مدرسة الحداثة. إلا أن أعمال تلك الفترة لم تكن مميزة ولم تلق الاهتمام المعتاد. غير أن الكاتب ظل فاعلًا على الساحة الأدبية، حيث تناول موضوعات في الإنجيل وضمنها في أعماله مثل «يهوذا الأسخريوطي» (١٩٠٦) حيث اقترب الكاتب من فهم الشخصية الإنسانية.

وكان آخر عمل كبير للكاتب «مذكرات الشيطان» وانعكس فيه تأثر أندرييف بالثورة وأحداث الحرب العالمية الأولى. وقد اعترض الكاتب على ثورة أكتوبر وعاش في فنلندا وكانت تابعة للامبراطورية الروسية حتى استقلت عام ١٩١٧ فظل هناك.

وتوفي أندرييف في سبتمبر ١٩١٩م في فنلندا.

20

لودميلا أوليتسكايا..

شاهدة على زمن التحولات في روسيا

تعتبر الكاتبة لودميلا أوليتسكايا ظاهرة فريدة في الأدب الروسي المعاصر. وعلى الرغم من الجوائز الأدبية العديدة التي حصلت عليها الكاتبة وكون مؤلفاتها تتمتع بانتشار واسع في روسيا ويعاد إصدارها مرات ومرات ويتم ترجمتها إلى مختلف اللغات، إلا أن أعمالها كثيرًا ما تتعرض لانتقادات أيضًا ليس فقط من الناحية الأدبية بل والأخلاقية أيضًا.

ولدت لودميلا يفجينيفنا أوليتسكايا عام ١٩٤٣م بجمهورية بشكيريا الروسية، حيث تم ترحيل أسرتها في سنوات الحرب إلى هناك. وقضت الكاتبة طفولتها المبكرة في مدينة دافليكانوفا إلى أن انتهت الحرب فعادت الأسرة مرة أخرى إلى موسكو.

وفي العاصمة التحقت لودميلا بجامعة موسكو الحكومية حيث اختارت أكثر الأقسام صعوبة وهو قسم علوم الجينات. وليس ذلك بغريب حيث كان أبواها يعملان في المجال نفسه. فقد كانت أمها ماريانا جينزبورج عالمة أحياء وكيمياء شهيرة. أما الأب يفجيني ياكوفليفيتش اوليتسكي فكان أستاذًا في العلوم التقنية وله عدة كتب ومؤلفات عن الميكانيكا والاقتصاد الزراعي.

وبعد أن أنهت دراستها الجامعية التحقت بالعمل بمعهد علوم الجينات العامة التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية واستمرت عامين فقط حيث أرغمت على الاستقالة من وظيفتها لما لوحظ عليها من الولع بالقراءة وإعادة نسخ الكتب الممنوعة يدويًّا وهو الأمر الذي لم يكن مرحبًا به في تلك السنوات.

وكانت تلك اللحظة فارقة في مسارها الإبداعي حيث ظلت لودميلا بلا عمل لسنوات ثم التحقت بمساعدة أصدقائها للعمل رئيسًا لقسم الأدب في المسرح الموسيقي اليهودي. وكان من بين واجبات الوظيفة كتابة المسرحيات والسيناريوهات، وكذا نقد المسرحيات والعروض المسرحية. كما كانت أوليتسكايا تقوم أيضًا بترجمة الأشعار من اللغة المنغولية وكان هذا أمرًا نادرًا. كان عملها يتطلب مهارة إبداعية كبيرة وقدرة على رؤية العالم المحيط بتفاصيله الصغيرة. ودفعتها الوظيفة إلى التفكير في أن يكون لها نشاطها

الأدبي الإبداعي الخاص وبدأت أعمالها القصصية في الصدور منذ نهاية الثمانينيات.

نالت الكاتبة شهرة واسعة ككاتبة سيناريو بارعة. وكان ذلك بفضل كتابتها لسيناريو فيلمي «الأخوات ليبيرتي» و«امرأة للجميع». كما قامت بكتابة سيناريو لأفلام «الموت السهل» و«ملكة البستوني» و«مراسم دفن مرحة».

وصدرت أول مجموعة قصصية للكاتبة تحت عنوان «الأقارب الفقراء» في عام ١٩٩٣م باللغة الفرنسية. وبعد مرور عام واحد نالت ترجمة «صونيشكا» جائزة بوصفها الأفضل بين الكتب المترجمة. وقد نالت الكاتبة على هذه القصة جائزة ميديتشي. ثم منحتها إيطاليا جائزتها الأدبية التي تحمل اسم جوزيبي أتشيربي.

وبلغ عدد الأعمال التي نشرت للكاتبة منذ ذلك الوقت أكثر من عشرة أعمال بما فيا الروايات والقصص والمجموعات القصصية والتي تم ترجمة الكثير منها إلى أكثر من ٣٠ لغة. وتعد لودميلا أوليتسكايا المرأة الأولى في روسيا التي تنال جائزة البوكر الروسية عن روايتها «قضية كوكونسكي» والتي تم تحويلها أيضًا إلى مسلسل. وما تزال الكاتبة تبدع إلى يومنا هذا.

وفي عام ٢٠٠٧م قامت لودميلا أوليتسكايا بتأسيس صندوق يحمل اسمها يهدف إلى تقديم الدعم للمبادرات الإنسانية. وشهدت الفترة من ٢٠٠٧ - ٢٠١٠م تقديم دعم مكثف من الصندوق لإصدار عناوين محددة من كتب الأطفال التي تتناول تفسير الاختلافات الثقافية والاجتماعية والإثنية بين مختلف الأمم. ونال هذا المشروع دعمًا من معهد التسامح الديني واثنتين من كبريات دور النشر الروسية.

وقد جمعت الكاتبة في إبداعاتها بين القيم الرفيعة للأدب الروسي الكلاسيكي مع عناصر وأدوات أدب ما بعد الحداثة. ويمثل أدب ما بعد الحداثة ظاهرة أدبية عالمية فريدة يمثل مجموعة من التصورات الفلسفية والجمالية التي تعكس أزمة الإيمان والقبول بكل القيم السابقة. وينطلق من اتجاه «الحداثة» ويركز اهتمامه على تنوع وتعدد أوجه جمالياته. وهذا ما يبرر تسامحه في التعامل مع كل أشكال الأدب والفنون الأخرى بشكل عام. ويخلق أدب ما بعد الحداثة مزيجًا من جماليات الأدبين الجماهيري والنخبوي، وبذا يتسم بازدواجية التوجه. وتتسم نصوص ما بعد الحداثة بكونها ممتعة لكل من المثقف الراقي والقارئ العادي. أما اتجاه ما بعد الحداثة الروسي فيجمع بين المذهب العقلي الغربي والروحانية الشرقية، وهذا ما يميزه عن نظيره الغربي.

وتحمل إبداعات أوليتسكايا مؤثرات أدب ما بعد الحداثة ممزوجة بالتقاليد الكلاسيكية في الأدب الروسي. وقد لعبت وظيفة الكاتبة الأولى دورًا مهمًّا حيث نراها تعشق التفاصيل الدقيقة وهو ما يجعل وصفها لطباع الأبطال وعالمهم الداخلي مميزًا.

وتجمع أوليتسكايا في إبداعاتها بين مختلف الأجناس الفنية، حيث يخرج العمل الأدبي فريدًا ومميزًا. وربما المثال الواضح على ذلك رواية «المترجم دانيال شتاين» والتي تعد نموذجًا للتنوع الفني فهي رواية كولاج وكتاب سيرة ذاتية ووثائقي ولاهوتي.

وتمس إبداعات أوليتسكايا مختلف الموضوعات. وأغلب هذه الموضوعات تحمل طابعًا انطولوغيًّا. كما يغلب موضوع العائلة في كتبها وغالبًا ما يرتبط بمشكلات الطفولة. وتؤكد الكاتبة في أعمالها على أهمية العائلة في المجتمع وتظهر ما يعاني منه المجتمع من افتقاد التفاهم بين الناس وغياب الوحدة الروحية بين الأقارب. حيث لم تعد الأسرة تمثل قيمة عند أبطال أوليتسكايا. وهذا ما نلحظه جليًّا في قصة «صونيشكا»

وفي الوقت نفسه تظهر أوليتسكايا وجهًا آخر محتملًا للحياة عندما تصبح العائلة درعًا وسندًا للإنسان. ويمثل ذلك الموضوع الرئيس لقصتها «الثاني من مارس من نفس العام»

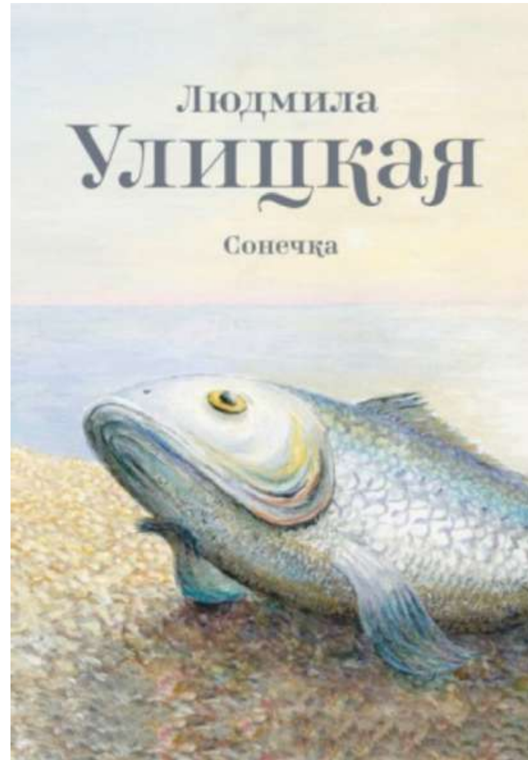
ويرتبط موضوع العائلة بموضوع الطفولة. ودائمًا ما يكون الحديث عن الطفولة مرتبطًا بسرد بيوغرافيا الأبطال. وهنا تكشف الكاتبة العالم الداخلي لأبطالها ويساعدنا ذلك على فهم سمات الشخصيات وأسباب سلوكياتهم. وتنظر أوليتسكايا للقضايا العائلية من وجهه نظر اجتماعية، وكذا من منطلق تكوين الشخصية والعلاقات الإنسانية.

وتدور أحداث قصة «صونيشكا» حول فتاة شابة غير جميلة حادة الطباع وليس لديها أصدقاء، تقضي معظم وقتها في قراءة الكتب. وتضع البطلة نفسها مكان بطلات الروايات التي تقرؤها فتعاني معهن عذابات الحب والخيانة ومتعة النجاح. ثم تلتحق بالعمل بمكتبة الحي فتقضي وقتًا أطول في القراءة – هوايتها المفضلة الوحيدة.

وتمر السنوات وتنتهي الحرب والفتاة تلتهم الكتاب تلو الآخر ولا تفكر في حياتها الخاصة. إلى أن حدثت الصدفة التي غيرت حياتها. حيث التقت صونيشكا في المكتبة بفنان مغمور يدعى روبرت فيكتورفيتش. وكان يكبرها بسنوات كثيرة حتى إنها كانت تراه في الأيام الأولى من التعارف كأب لها. كان يبدو لها رجلًا حكيمًا طيبًا واعيًا. وفي المقابل نظر إليها روبرت كامرأةٍ تصلح له زوجة

مخلصة وقادرة على تأسيس عائلة. لم يكن يشعر تجاهها بأحاسيس الحب الجارف بل كان أقرب إلى الاحترام والمشاعر الطيبة. وتزوجا وسرعان ما أنجبا ابنتهما وكرست صونيشكا حياتها لعائلتها بالكامل. وسرت الحياة هادئة حتى التقى الزوج بفتاة تدعى ياسا استطاعت أن تسلب الرجل الحكيم عقله حيث أغرم بها وهو العجوز وعاود الرسم من جديد بفضلها. وعندما علمت زوجته صونيشكا بذلك لم تتألم كثيرًا فقد كانت تعي أنها تشغل مساحة معينة في حياة روبرت وكذا ياسا تشغل مساحة أخرى. وكان هذا الوضع يرضي الجميع.

وأصبح الزوج يقضي وقتًا أطول مع ياسا. وكبرت الابنة وانفصلت لتعيش بمفردها. أما صونيشكا فعادت للقراءة مجددًا بالتدريج. ويموت الزوج فجأة فتقوم صونيشكا على تنظيم أمور الدفن وتحيط ياسا بعنايتها ورعايتها وتنظم معرضًا للوحات الزوج المتوفى. وتعود الحياة مرة أخرى لتنتظم وتنقضي أيام المعاناة وتغرق صونيشكا مرة أخرى في القراءة وفي عالمها الأدبي. وتقضي أيامها بين الكتب التي تمنحها السعادة الكاملة. وهكذا تبدو الحياة الزوجية والعائلة كفترة مؤقتة ابتعدت فيها البطلة عن طريقها الأساسي في الحياة. أما الآن فلن تترك عالمها أبدًا.



غلاف قصة «صونيشكا»

وتعترف أوليتسكايا أن كتبها الأولى صدرت في الخارج وليس في روسيا، حيث صدر كتابها الأول «الأقارب الفقراء» في باريس حيث كانت الأوضاع السياسية في روسيا حينها تحول دون إصدار كتبها في الداخل الروسي. وكان ذلك من مسببات شهرتها الواسعة، حيث تم إصدار كتبها في بلدان أوروبا كافة وترجمتها إلى لغات كثيرة.

ومن أهم الجوائز التي حصلت عليها الكاتبة جائزة بريز ميديتشي الفرنسية في عام ١٩٩٦م وجائزة البوكر الروسية عام ٢٠٠١م جائزة «كتاب العام» في ٢٠٠٤م وجائزة سيمون ديبوفوار الفرنسية ٢٠١١م وغيرها.

وهكذا يمكن القول إن أوليتسكايا كانت شاهدًا على العصر ومراقبًا دقيقًا للتحولات التي شهدها المجتمع الروسي في العقود الثلاثة الأخيرة.

21

ألكسندر سولجنتسين

رائد الأدب الوثائقي في روسيا

عرفُ الأديب الروسي الكبير ألكسندر سولجنتسين والحاصل على جائزة نوبل في الآداب في عام ١٩٧٠ بكونه شاعرًا، وكاتبًا اجتماعيًّا، ورجل سياسة، وألَّف العديد من الكتب، التى تتناول تاريخ روسيا، وطوال الحقبة السوفيتية كانت أعماله ترمز للحرية، والنضال ضد السلطة السوفيتية.

على الرغم من ذلك فقد شارك الكاتب في الحرب العالمية الثانية، ونال عددًا من الأوسمة. غير أنه - وبسبب إحدى الرسائل المريبة - تم الاشتباه به وزُجَّ به إلى السجن، وظلَّ صامتًا لفترة طويلة إلى أن قرر الحديث، وسرد ما رآه من أهوال في معتقلات ستالين، وكيف كان يزج بآلاف من البشر إلى هناك ليلقوا حتفهم.

نال سولجنتسين احترامًا واسعًا من النخبة المثقفة في روسيا. وحتى بعد اتهامه بالعداء للشيوعية، وترحيله خارج البلاد، ظل يحظى بسمعة كبيرة. وواصل الكاتب إبداعاته في أوروبا، ونال في تلك الفترة جائزة نوبل في الآداب. وقد اعترف في أحد كتبه، أنه لم يكن يتصور أن تطبع مجموعة مؤلَّفاته الكاملة يومًا ما في روسيا. كان سولجنستين عدوًّا للشيوعية، دائم الانتقاد لها، غير أنه أثناء إقامته في أوروبا، كثيرًا ما انتقد الديمقراطية أيضًا. لم يكن مُعجبًا بسياسة الغرب، وكان يرغب في العودة إلى وطنه متى سمحت له الظروف بذلك. وما إن قام جورباتشوف بتطبيق سياسة البيروسترويكا أو إعادة البناء، حتى تم السماح له بالعودة إلى الوطن، حيث مُنح جائزة الدولة.

وقد صدرت أُولى إبداعات سولجنتسين في عام ١٩٦٢ بعنوان: «يوم واحد من حياة إيفان دينيسوفيتش»، وجلبت له شهرة واسعة. ثم سرعان ما صدرت قصصه القصيرة «حادثة على محطة كوتشيتوفكا» و«زاخار كاليتا» و«حوش ماتريونا». إلى ذروة الاهتمام بإبداعات الكاتب في روسيا، فكانت في الفترة بين عامَي ١٩٨٨ - ١٩٩٤م. طبُعت كتبه في تلك الفترة بالملايين. غير أن الاهتمام به خفت كثيرًا في السنوات التى سبقت وفاته وما بعدها. وقد اعتبر سولجنتسين أن أهم عمل في حياته هو الرواية الملحمية «العجلة الحمراء».

ويرى سولجنتسين أن روايته تلك، استغرقت منه حياة كاملة، قضاها في دراسة فترة بدايات القرن العشرين، حاول فيها ألا يغفل أي واقعة أو تفصيلة تاريخية في تلك الفترة. وقد طُبعت الرواية بالإنجليزية في البداية، وكان ذلك في عام ١٩٧٢، في حين لم تصدر الطبعة الروسية إلا في عام ١٩٩٣م.

تحكي روايته «عنبر السرطان» عن الفترة التى قضاها الكاتب في العلاج من مرض السرطان في أحد مستشفيات طشقند في عام ١٩٥٤. أما الأبطال الرئيسيون في العمل، فهم مرضى عنبر السرطان، الذين تجمعوا من أطراف البلاد المختلفة، وينتمون إلى طبقات اجتماعية متباينة. ويدور الموضوع الرئيس للرواية عن كفاح الإنسان ضد الموت. ويتناول الكاتب فكرة أن الناس المصابين بمرض يهدد حياتهم لا يفقدون الأمل الأخير في الشفاء، وهم أكثر عزمًا وقدرة من الأصحاء. وقد تم نشر الرواية مباشرة في الغرب، فيما لم تنشر في روسيا إلا في عام ١٩٩٠.

أما قصته الشهيرة «يوم واحد من حياة إيفان دينيسوفيتش»، التى جلبت له شهرة عالمية، فقد أطلق عليها في البداية عنوان» ش ٨٥٤». ويحكي سولجنتسين في قصته تلك، عن أحداث يوم واحد من حياة معتقل سوفيتي، وهو الجندي إيفان دينيسوفيتش شوخوف. وللمرة الأولى يستطيع القارئ السوفيتي، التعرف على الوضع داخل معتقلات ستالين، من خلال عمل أدبي موضوعي. وبعد أن قرأت القصة صرحت الأديبة الروسية آنا أخماتوفا: أن كل مواطن سوفيتي يجب ألا يكتفي بقراءة هذه القصة، بل ويحفظها عن ظهر قلب. وقد تم ترجمة رائعة سولجنتسين هذه إلى أربعين لغة، كما تم تحويلها إلى فيلم في أوروبا.

أمَّا «أرخبيل الجولاج» - الرواية – السيرة الذاتية الشهيرة، فقد استغرقت ١٠ سنوات كاملة لكي ينتهي منها. وقد صدر الجزء الأول منها في عام ١٩٧٢ في باريس. وتتضمن الرواية مذكرات، وخطابات، وقصص المعتقلين في معسكرات ستالين، وشهادات أقاربه، فضلًا عن الخبرة والتجربة الشخصية للكاتب. ولم تنشر الرواية كاملة في روسيا إلا في عام ١٩٩٠. إلا أن هناك خلافًا بين النقاد حول هذه الرواية، كما هو الحال تجاه الكاتب نفسه في السنوات الأخيرة. وفي عام ٢٠٠٨ تم تحويل الرواية إلى فيلم يحمل عنوان: «التاريخ السري لأرخبيل الجولاج».

اتسمت إبداعات الكاتب دومًا بطرح القضايا الملحمية الشاملة، واستعراض الأحداث التاريخية بأعين شخصيات رواياته الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، وإلى جبهات سياسية متباينة.

كما اتسم أسلوبه باستخدام الإسقاطات إلى الإنجيل، وكثرة استخدام الأساليب الملحمية في السرد، وكذا استخدام الرمز. ونادرًا ما يعبر الكاتب عن رأيه الشخصي في أعماله، بل يطرح في الغالب صدامًا لوجهات نظر مختلفة بين أبطاله. ومن السمات المميزة لأعماله أيضًا استخدام الوثائق بشكل مكثَّف، كما أن أغلب أبطاله واقعيون أو أنهم يجسِّدون أشخاصًا حقيقيين أو من أصدقاء الكاتب، ومعارفه. فالحياة بالنسبة إليه رمزية، ومتعددة الأوجه أكثر منها خيال أدبي أو فني. ونجد مثلًا في روايته «العجلة الحمراء» استخدام الكاتب للوثائق بشكل مكثَّف، فضلًا عن شيوع السِّمات المميزة لأدب الحداثة، وهو الأمر الذي اعترف به الكاتب فيما بعد. أما فنيًّا، فقد تأثر كثيرًا بالفكر الفلسفي للأديب الكبير ليف تولستوي.

كما اهتم سولجنتسين كثيرًا باللغة الروسية وثرائها، وعًرف عنه استخدام الألفاظ النادرة التى سبق أن استخدمها الأدباء الروس القُدامى، وكذا تلك التى تستخدم في الحياة اليومية، وعمل على تنحية الألفاظ الأجنبية، والدخيلة على اللغة الروسية، وطرح ألفاظًا روسية أصيلة بدلًا منها.

أما عن حياة سولجنتسين، فقد وُلد في ١١ ديسمبر ١٩١٨م بمدينة كيسلوفودسك. وفي عام ١٩٣٦ التحق بمعهد الفيزياء والرياضيات بمدينة روستوف، وأنهى دراسته فيه في عام ١٩٤١. كما التحق أثناء دراسته بجامعة موسكو للفلسفة والأدب والتاريخ (دراسة عن بُعد).

وعلى الرغم من بنيانه الجسماني الضعيف، فقد حرص سولجنتسين على الالتحاق بالجيش، والمشاركة في الحرب دفاعًا عن وطنه. وفي عام ١٩٤٢، وبعد قضاء فترة التدريب في مدرسة المشاة أُرسل إلى الجبهة، حيث شارك في القتال، وحصل على عدة أوسمة، منها: وسام النجمة الحمراء. ولم يتوقف سولجنتسين طوال هذه الفترة عن الكتابة.

وفي إحدى رسائله إلى صديقه فيتكيفيتش، انتقد سولجنتسين سياسة ستالين و«التفسير المغلوط للنظرية اللينينية»؛ وكان ذلك سببًا في اعتقاله في عام ١٩٤٥، والحكم عليه بالسجن لمدة ثماني سنوات.

وفي عام ١٩٥٢، تم اكتشاف إصابته بمرض السرطان، وكانت تلك محنة وتجربة قاسية، وفي تلك الفترة استعاد سولجنتسين، الذي نشأ شيوعيًّا مُلحدًا إيمانَه بالله وبالدين. لم يكن العلاج كافيًا للتغلب على آلام المرض، والشفاء منه، فبدا له أن الدين والإيمان أقوى من الأيديولوجية؛ نظرًا لأنه يصارع الشر في داخل الإنسان، ويتغلب عليه، في حين تنشر الثورات الشرور والآلام. وقال

الكاتب قولته الشهيرة: «إن الحدَّ الفاصل بين الخير والشر، لا يمر ما بين دول ولا طبقات اجتماعية، ولا بين أحزاب، بل عبر قلب كل واحد منَّا».

وفي عام ١٩٥٣ تم نفيه إلى جمهورية كازاخستان السوفيتية استكمالًا للعقوبة، وعمل سولجنتسين مدرسًا، ثم انتقل للعلاج من مرض السرطان في مدينة طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفيتية حينها. وفي عام ١٩٥٦ نال عفوًا، وعاد مرة أخرى إلى روسيا.

وقد تناول الكاتب سنوات السجن الطويلة في مؤلَّفاته «لوبي الثورة» و«في الدائرة الأولى» و«يوم من حياة إيفان دينيسوفيتش» و«الدبابات تعرف الحقيقة» وغيرها.

وبعد عودته إلى روسيا اختار مدينة ريزان للإقامة، حيث عمل في مدرسة محلية، وواصل الكتابة. وفي عام ١٩٦٥ استولت السلطات السوفيتية على أرشيف الكاتب، وتم حظر نشر مؤلَّفاته. في عام ١٩٦٧ بعث الكاتب برسالة مفتوحة إلى اتحاد الكتَّاب السوفييت، كان من نتيجتها أن اعتبر سولجنتسين معاديًا للدولة، ومصدر خطر على استقرارها.

وفي عام ١٩٦٨ أنهى سولجنتسين العمل من كتابة روايته «أرخبيل جولاج»، وتم تهريب كتابين آخرين وهما «عنبر السرطان» و«في الدائرة الأولى» إلى الخارج، حيث صدرا في أوروبا.

وفي عام ١٩٦٩م تم طرد سولجنتسين من اتحاد الكتَّاب السوفييت. وبعد صدور روايته «أرخبيل الجولاج» في ألمانيا في عام ١٩٧٤، تم القبض عليه، ونفيه إلى ألمانيا.

وقام الكاتب خلال الفترة بين عامي ١٩٧٥ - ١٩٩٤ بزيارة ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا. وفي عام ١٩٨٩ صدرت «أرخبيل الجولاج» للمرة الأولى في روسيا.

وفي عام ١٩٩٤ عاد سولجنتسين إلى وطنه روسيا، وواصل الكتابة. وصدرت مجموعة مؤلَّفاته الكاملة في ٣٠ جزءًا في عام ٢٠٠٦. وتُوفي الكاتب في الثالث من أغسطس عام ٢٠٠٨.

عاش سولجنتسين حياة أدبية مديدة. وعلى مدى عقود طويلة قضاها في الكتابة والتأليف، كانت مواقفه دومًا تتسم بالحسم، وعدم المهادنة تجاه مختلف القضايا في تاريخ روسيا وحاضرها؛ ولذا فقد كان الكاتب يفقد عددًا من مناصريه كل عام، ويكتسب آخرين أيضًا.

وكانت له رؤيته الخاصة تجاه حالة الأدب الروسي المعاصر، حيث قال: «فترات التحول الجذري المتسارع لم تكن قط فترات محبذة للأدب. فإنتاج الأعمال الكبيرة يتم دائمًا وفي كل مكان في أوقات الاستقرار، سواء كان استقرارًا جيدًا أم رديئًا. وليس الأدب الروسي الحديث استثناء من ذلك. والقارئ المثقف اليوم أكثر اهتمامًا بالكتابات غير الخيالية. ومع ذلك، أعتقد أن العدالة والضمير لن يغيبا عن الأدب الروسي كمؤسسة، بل سيبقيان ليكونا في خدمة تنوير أرواحنا وتعميق فهمنا».

ورغم بقائه في الغرب لعقود طويلة، فإنه رفض الإيمان بعقيدة الغرب، كما فعل الكثيرون غيره من أدباء روسيا المنشقين، حتى إنه لم يتردد في مهاجمته بشدة في كثير من المواقف. ففي خطابه أمام طلاب وأساتذة جامعة هارفارد الأمريكية عام ١٩٧٨ وصف سولجنتسين الولايات المتحدة بالدولة التى تعاني خواءًا روحيًّا، وتعيش واقعًا ماديًّا فجًّا. كما صرَّح أن الأمريكيين يعانون من افتقاد الشجاعة، وبرر ذلك بقلَّة عدد الأشخاص المستعدين للموت في سبيل أمريكا، كما أدان تخاذل أمريكا حكومة وشعبًا في فيتنام.

وعلى الرغم من وفاته قبل عشر سنوات، فإن إبداعاته ما زالت تثري عقول الكثيرين، ولا يزال الجدل حوله دائرًا بين من يعتبره مناضلًا ووطنًّيا، وبين من يعتبرونه خائنًا للوطن.

ومن أقواله المأثورة: «لا أستطيع القول إن مؤلَّفاتي جميعها كان الهدف منها أن أكشف للغرب ما يدور لدينا في الشرق. لقد هدفت منها إلى استعادة الحقيقة حول ما يدور في بلادي، وكنت أضع نصب عيني بني وطني فقط. كان ذلك بمثابة الحل بالنسبة إليَّ. ينبغي أن يحدث تغيير. ذاك التغيير الذي يسمح لي بنشر كتابي «أرخبيل الجولاج» كاملًا، وعلى نطاق واسع».

22

جنكيز أيتماتوف

ثالث أكثر الأدباء مبيعًا في القرن العشرين

وفقًا لتقرير اليونسكو عن أكثر الأدباءِ مبيعًا في القرن العشرين، جاء الأديبُ القيرغيزي جنكيز أيتماتوف في المرتبة الثالثة بعد كلٍّ من شكسبير وتولستوي.

ويوافق شهر ديسمبر عام ٢٠١٨ مرور تسعينَ عامًا على ميلادِه في عام ١٩٢٨. ويُعتبر أيتماتوف أحد أهم وأعظم الأدباء السوفييت. ورغم أن معظمَ الموضوعاتِ التي تناولَها، كانت مُغرِقةً في المحليةِ والقوميةِ، فإنها لقيت انتشارًا واسعًا، وذاعَ صيتُها في أنحاء الاتحاد السوفيتي كافةً، وفي سائر دول العالم.

أفنى أيتماتوف سنواتٍ طويلةٍ من شبابه بَحثا عن موضوعاتِه، وأبطاله، وأسلوبه الخاصِّ به في السَّرد والقصِّ. وقد لُوحظَ في إبداعاتهِ المبكرةِ كونها دراميةً للغاية، تناول فيها موضوعاتٍ معقدةً، وقدم حلولًا مختلفة للمشكلات المعاصرة له.

وقد جلبتْ له قصتُه «جمِيلَة» شهرة واسعة عالميًّا؛ حيث تمت ترجمتُها إلى لغاتٍ كثيرة. كما حصل في عام ١٩٦٣ على جائزة الدولة على قصته «حكاياتُ الجبالِ والسُّهوب». وشهدتْ إبداعاتُه في فترة الستينيات حتى الثمانينيات من القرن العشرين، صدور العديد من الأعمال الرائعة له مثل «وجهًا لوجه» و«المعلِّم الأول» و«الأرضُ الأم» وغيرها.

ولعل أشهرَ أعمال جنكيز أيتماتوف رواية «ويطول يوم أكثر من قرن»، التي طبعت مرات عديدةً، وتُرجمت إلى لغاتٍ كثيرة. تدور أحداث الرواية عن الأمّ وعاطفتها القوية تجاهَ أبنائِها. تعاني البطلة من فراق ابنِها، وتسعدُ أيّما سعادةٍ عندما يقضي لحظاتٍ قليلةً بالقرب منها وتتلمسهُ لثوانٍ قليلة. الفكرةُ الأساسية في الرواية هي التضحية بالنفس، وألمُ الفراق مع الابن، الذي لا يطويه النسيانُ مهما طالَ الزمنُ. ويتناول الكاتب في روايته أحداثا واقعية تختلط بأخرى خيالية، تتمثلُ في الاتصال بإنسان من كوكب آخر... ويتولد لدَى

القارئ انطباعٌ أن تحقيق التفاهم مع سكان الكوكب الآخر هو أمر أيسر وأسهل من تحقيق التواصل والتفاهم مع بني البشر.

ويُعاود أيتماتوف الكتابةَ في الخيال العلمي في منتصف التسعينيات من خلال قصة «تافرو كاساندرا»، التي تدور أحداثها حول خلق أناس صناعيّين. أما باقي أعماله فكلها واقعية. وكانت الواقعية في الاتحاد السوفيتي اشتراكية المنحى، فيما كانت في أعماله شديدة التشاؤمية. فأبطاله واقعيون، يحيون ويعانون في واقع الأمر، ولا يصورهم مثلما يفعل سابقوه بكونهم بناءً للمجتمع الاشتراكي.

وعرف أيتماتوف بحبِّه للمرأة، فكثيرًا ما تغنَّى في أعمالِه بجمالِها، وكان على دراية واسعة بشخصيةِ المرأة؛ ولذا فقد وصفَ المرأة بصدقٍ، ووصفَ نماذجَ لشخصيات أنثوية، ففي قصته «جميلة» تبدو المرأة القوية، وفي قصته «حوريتي في منديل أحمر» تبدو البطلة أسيل رومانسية وفي «الأرض الأم» تبدو البطلة تولجاناي حكيمة، وقد فقدت في الحرب أبناءها، ولكنها حافظت - رغم ذلك - على جمالِ روحِها.

وفي كل رواية وقصة له، يرسمُ شخصية البطلة التي تضيء روح وقلب البطل الرئيس. كما كان للمرأة دور مهم في حياة الأديب أيتماتوف نفسه. فقد تعرَّف على زوجته الأولى كيريز شامشيبايفا أثناء فترة الدراسة بالمعهد الزراعي. كانت الفتاة تدرسُ في معهد الطب، وكانت هي أيضًا تهتمُّ بالأدب، وبعد أن أصبحت طبيبة معروفة، انتقلت للعمل في وزارة الصحة الكيرغيزية، وأنجبت لزوجها طفلين. وفي نهاية الخمسينيات، صادف أيتماتوف أهم حب في حياته وهي راقصة الباليه بيوبيوسارا بيشيناليفا، وبدأت القصة في لينينجراد، واستمرت العلاقة أربعة عشر عامًا. ولم يتمكنا من الزواج، حيث لم يكن باستطاعته كشيوعي الطلاق من زوجته للزواج من فنانة مشهورة، يتوق الكثيرُ من رجال الدولة للارتباط بها.

وقد عبَّر الكاتب عن هذه المعاناة في أعماله الأدبية، حيث كان يعاني من ضرورة الاختيار بين زوجته وحبيبته، وهو ما ورد على لسان بطله الرئيس، في «وداعا يا جولساري». وفي روايته «و يطول يوم أكثر من قرن»، يقع البطل في عشق أرملة صديقه. وتوفيت حبيبته بيوبيوسارا في عام ١٩٧٣ بعد صراع طويل مع مرض السرطان. وبعد مرور اثنتي عشرة عامًا على وفاتها، كتب أيتماتوف «اعترافات نهاية القرن»، واعترف فيه صراحة عن حبِّه هذا.

وكانت الزوجة الثانية لأيتماتوف هي ماريا اورماتوفنا. وأنجبت لزوجها طفلين، وكان قد سبق لها الزواج ولديها طفلها من زوجها الأول.

وقد تمت طباعة أعمال جنكيز أيتماتوف في أغلب دول العالم، وكانت إبداعاتُه مادة لآلاف الأبحاث والدراسات الأدبية والرسائل العلمية؛ فاهتم الباحثون بدراسة أسلوب الكاتب، وسمات أبطال أعماله، وتطور موهبته الإبداعية. ويمكن القول إن جنكيز أيتماتوف قد وحَّد بين مختلف شعوب العالم. ترجمَتْ أعمالُه إلى مائة وست وسبعين لغة، وطبعت في مائة وثماني وعشرين دولة، وبلغ عدد النسخ الموزعة من أعماله أكثر من مائة مليون نسخة؛ ولهذا فقد اعتبرته منظمة اليونسكو ثالث أكثر الكتاب مبيعًا في تاريخ الأدب العالمي بعد شكسبير وتولستوي.

ورغم مرور عشرة أعوام على رحيله، فإن أثره لايزال قويًّا على شعبه، وعلى الإنسان في العالم؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى قرب شخصيات أبطاله من قلب القارئ، وتفوح كتاباته النثرية بأفكار الإنسانية، والحب لكل ما هو حيّ، سواء أكان بشرًا أم حيوانًا أم نبات، وللكوكب والعالم بأسْره.

حصل أيتماتوف على جائزة لينين وثلاث جوائز دولة أخرى، وكذا جائزة نهرو الدولية. وفي عام ٢٠٠٧ حصل على أعلى وسام تركي، ورشح لجائزة نوبل في عام ٢٠٠٨ إلا أن المنية قد وافته.

وفيما يلي نتوقف عند أهم المحطات في سيرة الكاتب، حيث وُلد في الثاني عشر من ديسمبر ١٩٢٨، في عائلة شيوعية بقرية شيكير كارابورينسكي بجمهورية كيرغيزيا السوفيتية. وفي عام ١٩٣٥ انتقلت الأسرة إلى موسكو العاصمة، حيث كان الأب يعمل في وظيفة مرموقة بالحزب الشيوعي. وبعد عامين، وبسبب الاشتباه في معاداته للشيوعية، تم القبض على والدِه ونفيه إلى مدينة فرونزى عاصمة جمهورية كيرغيزيا، ومن ثمَّ إعدامه في عام ١٩٣٨. كما تم التضييق على والدِته.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، تم استدعاء جميع الرجال للحرب، ومنهم أيتماتوف الذي لم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره بعد. وبعد انتهاء الحرب واصل دراسته والتحق في عام ١٩٤٨ بالمعهد الزراعي العالي في كيرغيزيا.

وبدأ أيتماتوف رحلته الإبداعية في عام ١٩٥٢، حيث كتب قصة قصيرة تحمل عنوان «بائع الصحف دزويدو». وبعد انتهاء دراسته بالمعهد في عام ١٩٥٣، واصل الكتابة باللغتين الروسية والكيرغيزية، وتم طباعة أعماله في الصحف والمجلات المحلية في كيرغيزيا.

وفي عام ١٩٥٦ قرر أيتماتوف مواصلة دراسته، وسافر إلى موسكو، حيث التحق ببرامج دراسة عليا في الأدب والنقد. وفي أثناء ذلك ظل يكتب، حيث صدرت أولى قصصه «وجهًا لوجه» في عام ١٩٥٧ في مجلة «آلا – تو». وفي

العام نفسه صدرت قصته الرائعة «جميلة»، التي جلبت له شهرة واسعة، وقد ترجمت الرواية إلى الفرنسية، وصدرت الترجمة قبل النسخة الروسية.

وأنهى الكاتب دراساته الأدبية في عام ١٩٥٨، وكان قد أنهى كتابة قصتين بالإضافة إلى العديد من القصص القصيرة. وصدرت أولى روايات الكاتب في عام ١٩٨٠.

وفي منتصف الثمانينيات دشن الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف لسياسة جديدة تعتمد المكاشفة والمصارحة وإعادة بناء الدولة، وأصبح من الممكن أن يتناول الأدباء مشاكل البلاد. وتناول أيتماتوف في كتاباته ما اعترى المجتمع السوفيتي من ظواهر سلبية جديدة عليه، مثل إدمان الشباب للمخدرات، والفساد وعن الدين والإيمان، ورجال الدين، وغير ذلك.

وقد عانى جنكيز أيتماتوف من مرض السكر في سنوات عمره الأخيرة، إلا أن حياته تميزت بالنشاط ووفرة الإبداع. وفي عام ٢٠٠٨ توفي أيتماتوف عن عمر بلغ الثمانين عامًا، وكان قبلها بأيام متواجدًا بمدينة كازان لتصوير فيلم وثائقي عن روايته «ويطول يوم أكثر من قرن»، وأصيب بوعكة شديدة، وتم نقله إلى ألمانيا، وتوفي هناك، واحتشد جمعٌ كبير لدرجة وقوع العديد من الإصابات أثناء وداع الجثمان. ثم نقل جثمان أيتماتوف ليدفن في موطنه الأصلي في ضواحي مدينة بيشكيك الكيرغيزية، وقد اختار الكاتب هذا المكان بنفسه وهو الموقع نفسه الذي دفن فيه أبوه قبل عقود. وكان الموقع عبارة عن مقبرة جماعية دُفنت فيها مائة وثماني وثلاثين جثة، أُطلق عليهم النار، وكان منهم والده المتهم من قبل السلطات حينها بمعاداة الشيوعية.

وهكذا انتهت حياة كاتب، استطاع أن يفرض نفسه وبقوة على خريطة الأدب السوفيتي الضخمة، رغم انتمائه إلى بلد صغير، وتمكن بفضل عبقريته الفذة من مجابهة كبار العقول في عصره، ومحاججته لكبار الفلاسفة والمفكرين، كاتب امتزج في أعماله الروحي والنفسي والإنساني، والواقع بالأسطورة؛ ما تميز إبداعاته بسحْر فريد، شهدَ به كلُّ من حالفه الحظ بقراءة أعماله.

23

الأدباء الستينيون في روسيا
فاسيلي أكسيونوف نموذجًا

شهدت الستينيات من القرن الماضي ظهور جيل من شباب الكتّاب الروس شكلوا ظاهرة أدبية فريدة. وضم هذا الجيل كلًّا من: مارك مكسيموف وجيورجي فلاديموف وأناتولي بريستافكين وأناتولي جلاديلين وفاسيلي أكسيونوف في النثر وكل من: يفجيني يفتوشينكو وأندريه فوزنيسينسكي وروبرت روجديستفينسكي في الشعر.

وصور هؤلاء الأدباء في كتاباتهم نموذجًا جديدًا للبطل في الأدب وهو الشاب في مقتبل حياته والذي يسعي لمجابهة الواقع ورفضه في بعض الأحيان.

وقد وصف النقاد هذه المجموعة من الأدباء بالأدباء الستينيين وأدبهم «بالأدب الشاب». وقد مثلت كتاباتهم ثورة في الأدب الروسي حيث كان البطل شخصًا ثائرًا يحتج على الواقع المحيط وعلى القوانين السائدة وعلى النمط الرتيب في الحياة وعلى الذوق العام

والعادات. وتجسد ذلك في تصوير مظهر البطل، واهتماماته بالثقافات الأخرى، وولعه بالموسيقى الغربية، ونظرته التشاؤمية للقيم الفكرية والأخلاقيه السائدة بين الجيل الأكبر حتى وصل الأمر إلى إنكارهم لهذه القيم إجمالًا.

يعد الكاتب فاسيلي أكسيونوف من رواد هذا الجيل وربما هو الاسم الأبرز بين ممثلي هذا التيار. ذاع صيته شرقًا وغربًا وعاصر سنوات التحولات الكبرى في روسيا. ولد أكسيونوف بمدينة كازان عام ١٩٣٢م، وكان أبوه يعمل عمدة للمدينة وكان أخوه يعيش في مدينة لينجراد، واستشهد أثناء الحصار. وقد تعرض والداه للقمع من جانب السلطات وتولى عمه رعايته بعد أن قضى سنوات في ملجأ لأطفال «أعداء الشعب». وعلى الرغم من المعاناة والظلم التي تعرض لهما والداه إلا أن أكسيونوف لم يهاجم السلطات

أو يتخذ مواقف معارضة سياسيًّا، بل تجلت روح المقاومة فيه من خلال أسلوبه وسلوكه المتحرر.

وكان اختيار أكسيونوف لمهنة الطب عملًا بنصيحة والديه حتى ينجو من السجن والنفي؛ ولذا فقد التحق بكلية الطب جامعة كازان إلا أنه تم فصله من الجامعة بسبب الحكم على أبويه. وسافر إلى موسكو حيث نجح في إعادة التسجيل ثم انتقل إلى معهد الطب بجامعة لينينجراد. وكان من المفترض أن يعين طبيبًا على سطح باخرة إلا أنه حرم من الحصول على الوظيفة بسبب تهمة والديه أيضًا على الرغم من العفو عنهما وإعادة الاعتبار إليهما. وسافر الطبيب الشاب للعمل في الشمال الروسي.

وفي عام ١٩٥٨م نشرت أولى أعمال الكاتب في مجلة «الشباب» ثم تلتها في ١٩٦٠م روايته «الزملاء» والتي أصبح بفضلها كاتبًا معروفًا. ويعد هذا الكتاب أول عمل جاد للكاتب حيث استخدم فيه موتيف «الطريق» بشكل ظاهر، حيث يقرر بطل القصة الخريج الجامعي أن يسافر للعمل في قرية نائية فيما يسافر أصدقاؤه للعمل على ظهر سفينة في بحر البلطيق. وهكذا يصور الكاتب رحلة حج أبطاله بحثًا عن فكرة أو فلسفة ما جديدة في الحياة، أو مثال رومانسي، وهو بمثابة هروب من الواقع اليومي إلى مكان يمكن أن يعيش الإنسان فيه حياته الكاملة.

ونجد الفكرة نفسها تمثل محور قصته «تذكره إلى النجوم» ١٩٦١م حيث يسافر البطل مع رفاقه في رحلة لمدة غير معلومة. يفر الأبطال من واقعهم الاجتماعي، ويحاولون العثور على فضاء خيالي وحرية كاملة ولو مؤقتة.

وأثارت كتاباته في الستينيات («تذكرة إلى النجوم» و«البرتقال المغربي» و«حان الوقت يا صديقي. حان الوقت») ردود فعل رافضة من جانب السلطات. وتعرض الكاتب للتهميش والتضييق ورفضت دور النشر طباعة أعماله.

وفي قصته «النصر» ١٩٦٥م تدور الأحداث في كابينة قطار حيث يلتقي البطل بأحد الأشخاص في القطار ويحاولان قتل الوقت بلعب الشطرنج. ومن خلال رقعة الشطرنج يصور الكاتب لوحة لمصير الإنسانية، وهو رمز شاع تداوله بين الكتاب في تلك الفترة كما في فترات أخرى.و في عام ١٩٦٨م انتهى الكاتب من قصته الشهيرة «أكياس التغليف المكدسة» وتعكس بجلاء مبادئ التيار الأدبي الجديد. ومرة أخرى يبتعد الكاتب عن المنحى الواقعي التقليدي. وقد اتسمت إبداعات الكاتب منذ بداياته بعدم الالتزام بالسمات

التقليدية في الواقعية. حيث ينحو الكاتب إلى الاستفادة من أدوات اتجاه ما بعد الحداثة.

وفي عام ١٩٧٥م كتب روايته «حرقة» ومنعت الرواية من النشر حيث اتهم بأنه كاتب غير سوفيتي. وفي عام ١٩٧٩م كتب روايته «جزيرة القرم» ولقيت المصير نفسه.و ساهم الكاتب في نفس العام في إصدار مجلة أدبية معارضة لا تخضع للرقابة الأدبية وكانت تصدر في أمريكا وسميت «ميتروبول». وكان الكاتب قد ذاع صيته في روسيا والعالم وكان يحظى باحترام الكتَّاب الموالين للسلطات السوفيتية. إلا أن إصدار مجلة «ميتروبول» والانتقادات التي وجهت إليه بسببها وانسحابه من اتحاد الكتاب السوفيت احتجاجًا على فصل زميليه:فيكتور يروفييف ويفجيني بوبوف،كان سببًا في سفره في عام ١٩٨٠م إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وبمجرد وصوله علم أنه وزوجته قد حرما من الجنسية السوفيتية.

واستقر الكاتب في واشنطن حيث عمل بالتدريس بالجامعات الأمريكية. وفي أمريكا أصدر روايته «صفار البيض» في عام ١٩٨٩م والتي كتبها بالإنجليزية ثم قام بنفسه بترجمتها إلى الروسية. كما أصدر كتابًا بعنوان «بحثًا عن حبيبي الحزين» ١٩٨٧م تناول فيه انطباعاته عن الحياة في أمريكا. وفي ١٩٩٢م صدرت الثلاثية الشهيرة «الخرافة الموسكوفية». وتصور الرواية أكثر الأحداث المأساوية في التاريخ الروسي المعاصر خلال الفترة من بداية العشرينيات إلى بداية الخمسينيات من القرن الماضي وأهمها الحكم الشمولي ومعسكرات الاعتقال والحرب ضد الفاشية. وفي عام ١٩٨٩م زار الاتحاد السوفيتي، وفي العام التالي أعيدت إليه الجنسية ولكنه لم يعد إلى الوطن مباشرة بل انتقل إلى فرنسا في نهاية ١٩٩٠م وكان دائم السفر إلى موسكو لكنه لم يعد نهائيًّا إلى الوطن إلا عام ٢٠٠٧م. ومن مؤلفاته في المهجر أيضا رواية «الطبيعة الورقية» و«عشر سنوات من الدسائس» كما ألف عدة مسرحيات نذكر منها «آه يا أرتور شوبنهاور» وفي عام ٢٠٠٤م نال جائزة بوكر عن رواية «الفولتيريون والفولتيريات الجدد» ثم نال في العام التالي وسام الدولة للأدب والفنون في فرنسا.

يقسم النقاد مسيرة أكسيونوف الإبداعية إلى عدة مراحل أساسية. المرحلة الأولى تمثل الفترة بين عامي ١٩٥٩ - ١٩٦٨م وكانت تلك الفترة التي واكبت مرحلة «ذوبان الجليد» في الاتحاد السوفيتي وقام أكسيونوف بكتابة قصصه الشبابية الواقعية التي تعكس حياة السوفييت وجاءت كتاباته في معظمها يسيطر عليها لغة الوعظ والوصايا والقصص الغنائي المنسجم مع الأفكار الديمقراطية في تلك الفترة. ثم بدأت مرحلة أخرى في إبداعات الكاتب استمرت منذ ١٩٦٨ - ١٩٨٠م وشهدت تلك الفترة تركيز الكاتب على

استخدام السخرية في كتاباته، وتوجه إلى الاتجاه الطليعي في الأدب، وانتقد السياسات السوفيتية في اجتياح تشيكوسلوفاكيا وكذلك الحكم الشمولي، والذي تغول أكثر في نهاية الستينيات. وتبدأ المرحلة الثالثة في الطريق الإبداعي للكاتب في عام ١٩٨٠ وحتى قبيل انهيار الاتحاد السوفيتي وتحديدًا حتى عام ١٩٨٩م واستمر فيها الكاتب في انتقاده للحكم الشمولي ولكن لوحظ في تلك الفترة تأثر الكاتب بتواجده في المهجر؛ فظهرت الموضوعات والموتيفات الغربية وخاصة الأمريكية. وكانت المرحلة الأخيرة في إبداعاته والتي بدأت في عام ١٩٨٩م وحتى وفاته، حيث عاد الكاتب إلى روسيا في نهاية الثمانينيات وأعاد نشر كتبه التي كانت ممنوعة سابقًا، وصدرت له العديد من الأعمال التي تعكس رؤيته للواقع الروسي الجديد بعد انهيار السلطة السوفيتية.

وقد احتفل باليوبيل الماسي للكاتب في عام ٢٠٠٧م وتم في العام نفسه تنظيم مؤتمر دولي ومهرجان موسيقي باسم الكاتب وحضره أشهر كتاب وشعراء روسيا والعالم. وأصيب الكاتب في عام ٢٠٠٨م بسكتة دماغية ونقل إلى المستشفى قضى عامًا ونصف في إجراء جراحات حرجة تحت الرعاية المركزة حتى وافته المنية في السادس من يوليو ٢٠٠٩م.

ويعرف أكسيونوف بأنه أول من أدخل مفردات غربية إلى اللغة الروسية في الستينيات مثل «الجينز» و«الجاز» وغيرها. كما يحسب للكاتب أنه مثل جسرًا إبداعيًّا بين عصر «ذوبان الجليد» الذى وعد به خروشوف وبين حاضره. ولعل أشهر ما قيل عنه هو عبارة الكاتب الروسي يفجيني بوبوف «كما خرج الأدب الروسي الكلاسيكي من معطف جوجول، فإن الأدب المعاصر في روسيا قد خرج من سترة جينز أكسيونوف.»

الباب الخامس
موضوعات الشرق وأفريقيا
في الأدب الروسي

1

ما سر ولع الأدباء الروس بالشرق؟

بدأ الأدباء الروس في التأثر بالشرق منذ أمد بعيد. وقد بدأ هذا التأثر في موجات متباعدة بعض الشيء. وشهدت فترة نهاية القرن الثامن عشر تمهيد الطريق وتهيئة الأجواء لمثل هذا التأثير، حيث لم تكن الموتيفات الشرقية قد تغلغلت بوضوح في الثقافة والأدب الروسي، ولم يكن هناك اهتمام من الأدباء الروس بالإسلام والفلسفة الإسلامية.

غير أن تناول كل من فولتير ومونتيسك للإسلام وبيان مثالية العقيدة الإسلامية وترسخ هذه الفكرة في المنظومة الثقافية الأوروبية قد ترك أثره فيما بعد على الثقافة الروسية الأمر الذي فرض على الاتجاه الرومانسي الروسي في بداية القرن التاسع عشر أن يملأ هذا الفراغ ويتجه إلى هذا الجزء من العالم.

وفي منتصف القرن الثامن عشر نادى الأديب الروسي الكبير ميخائيل لومونوسوف بالتواصل مع الشرق وإرساء علاقات اقتصادية وثقافية وثيقة مع شعوب المشرق. وطرح لومونوسوف خططًا لتأسيس أكاديمية للدراسات الشرقية في روسيا وقسمًا علميًّا للغات الشرقية في جامعة بطرسبورج عاصمة روسيا في تلك الفترة.

وتكررت الدعوات التى تنادي بالتقارب مع الشرق العربي والإسلامي في كتابات الأدباء الروس من أمثال ن. نوفيكوف ون. كارمزين وأ. راديشيف وأ.جريبويدوف. وكان كارمزين ونوفيكوف أول من تناول الملاحم الشعرية العربية في كتاباتهم النقدية وأفردا لذلك صفحات في المجلات التى يرأسون تحريرها.

كما كان للشرق العربي مكانة مهمة في إبداعات الشاعر الروسي الكبير وأمير شعراء روسيا بلا منازع ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين. حيث أولى الشاعر اهتمامًا كبيرًا بثقافات شعوب الشرق. ومن المعروف أنه بدأ في الكتابة عن المشرق وهو بعد شاب صغير، كما ارتبط بعلاقات صداقة قوية مع كبار المستشرقين الروس من أمثال ن.بيتشورين. ولم يتوقف اهتمام الشاعر بالشرق العربي وحده بل بالشرق الأقصى أيضًا. وقد أعلن عن رغبته في السفر إلى الصين ذات مرة ولكن السلطات رفضت السماح له بالسفر. وعند

وفاته عثر في مكتبته على الكثير من الكتب التى تتناول فلسفة شعوب الشرق.

ويحتل موضوع الشرق مساحة كبيرة في إبداعاته ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قصيدته «من وحي القرآن» و«محاكاة العربية» و«نافورة الدموع» و«ليالي مصرية» وغيرها وهو ما يعكس معرفة الأديب الجيدة بموتيفات الأدب الشرقي القديم بشعره ونثره.

كما يحتل الشرق العربي مكانة مهمة في إبداعات الشاعر العظيم ميخائيل ليرمونتوف. حيث نلمح الكثير من الموتيفات الفلكلورية لشعوب القوقاز وموتيفات الشعر الشرقي. ونذكر منها على سبيل المثال قصيدة «ثلاث نخلات» و«قصيدة «عزرائيل» و«قصة شرقية» وغيرها. وفي قصيدة «الجدل» قدم ليرمونتوف صورة تعبيرية فنية مشتركة للشرق. وفي حوار شهير له مع أ.كرايفسكي يقول: «لقد تعلمت الكثير من شعوب الشرق في آسيا ولكم أود أن أتغلغل في وعيهم وفلسفتهم ورؤيتهم للعالم المحيط والذي لا زلنا لا نفهم إلا القليل منها. ولكن صدقني. المشرق منجم للتجليات والإلهام».

ومنذ أربعينيات القرن التاسع عشر أصبح موضوع الشرق من الموضوعات التى تحظى باهتمام دائم ومستمر ومتزايد على صفحات المجلات الروسية وإبداعات الأدباء. وقد ارتبط ذلك بفترة كانت فيها روسيا تبحث عن طريق تسلكه مستقبلًا وتحاول تحديد وجهتها الحضارية. وكان هذا هو التحدي الذي يقف أمامه المجتمع الروسي بعد الأزمة الطاحنة التى عاشتها روسيا بعد انهيار منظومة العلاقات الإقطاعية. وكان الأدباء يطرحون أفكارهم ورؤاهم عن طرق التطور في الشرق والغرب. واستمر النقاش حتى عندما احتدم الجدل بين مؤيدي التقارب السلافي السلافي ومؤيدي التقارب مع الغرب.

وفي فترة حراك الديمقراطيين الثوريين في منتصف القرن التاسع عشر استمر اهتمام الكتَّاب بالمشرق ونذكر منهم جيرتسين وبيلينسكي وشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف. كان هؤلاء ينادون بإحداث تحولات جذرية في روسيا وإلى استيعاب تجربة النضال الثوري في الغرب مع النظر دومًا إلى المشرق واستلهام الدروس منه بوصفه مهد الحضارات والثقافات الإنسانية. وتحدث هؤلاء عن أن الظروف التاريخية المعروفة كانت السبب في أن تبقى شعوب المشرق في أفريقيا وآسيا بعيدة عن التقدم العالمي. إلا أن هذا الوضع سيزول يومًا ما.

وقام ليف تولستوي بمواصلة هذا التقليد في الأدب الروسي بل وطوره وأثراه. وتميز عن سابقيه باهتمامه البالغ بالتراث الروحي للشرق وتسامحه مع دياناته. وقد احتل الشرق مكانة كبيرة في إبداعات الكاتب حيث قضى وقتًا طويلًا في التعرف على الثقافات الشرقية والتواصل مع ممثلي الشعوب الشرقية وكان له تواصل شبه يومي مع أناس من الشرق وربطته بالعديد منهم صداقات وإخوة.

كما درس تولوستوي الديانات الشرقية القديمة في الشرق وكان أول الأدباء الروس الذين تواصلوا مع كبار المفكرين في أفريقيا وآسيا، ويستحق بذلك أن يوصف «بالجسر الحي» للتواصل الثقافي بين الثقافة الروسية وثقافات شعوب الشرق.

ومن إبداعات الكاتب عن الشرق نذكر ترجماته لفلكلور شعوب آسيا ومقالاته عن قدامى المفكرين في المشرق ودعمه لإعادة إصدار أعمالهم في روسيا.

وتحدث كتّاب وشعراء روسيا في النصف الثاني من التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عن مصير المشرق وشعوبه وثقافاته. ونذكر منهم: دوستويفسكي ونيكراسوف وجليب اوسبينسكي وشيدرين وتورجينيف وجونشاروف وبعدهم أنطون تشيخوف وكورولنكو ومكسيم جوركي. وكلهم تقريبًا أعرب عن تعاطفه مع شعوب الشرق. ويمكن القول دون مبالغة إن الاهتمام بالشرق رافق الحياة الفكرية والاجتماعية والأدبية الروسية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن الماضي.

وعند الحديث عن الشرق في الأدب الروسي لا يمكن تجاهل دور الأديب الروسي وأول الحاصلين على جائزة نوبل من روسيا ايفان بونين. درس بونين القرآن قبل سفره إلى القسطنطينية في عام ١٩٠٣م وكان يعاني من أزمة نفسية شديدة. كما درس الإنجيل والمعتقدات الأخرى لدى شعوب الشرق. ومن مؤلفاته التى تأثر فيها بالإنجيل نذكر «يوم الغضب» و«الحلم». كما استلهم من القرآن الكريم أفكارًا للعديد من الأعمال منها «ليلة القدر» و«تمجيد» و«السر» و«الطائر» وغيرها.

وفي نهايات القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين عادت الثقافة الروسية إلى الاهتمام بالشرق بعد فترة من التجاهل أثناء الحقبة السوفيتية. وبدا موضوع الشرق مرتبطًا بمجموعة من القضايا الاجتماعية والسياسية.

ويبدو الشرق في إبداعات الكتّاب الروس المعاصرين حضارة خاصة تحظى بأهمية كبيرة من قبل الأدباء الروس. ويمكن القول بأن عدد عناصر

الثقافة الشرقية في الأدب الروسي المعاصر يتزايد يومًا بعد يوم. ولكن ربما القضية الأساسية تكمن في مدى قدرة الأدب الروسي في العقود المقبلة على تجنب نظرية الصدام الحتمي بين ثقافتي الشرق والغرب وأن يبقى هذا الأدب كما عهدناه دومًا أدبًا قادرًا على التفاعل مع الثقافات الأخرى وعلى النظر إلى نفسه بأعين الآخرين وهو السر فيما وصل إليه من رقي وتقدم بين آداب العالم.

2

مصر في عيون الرحَّالة الروس في القرن التاسع عشر

تمثل مصر قيمة كبيرة وتحتل مكانة مهمة في تاريخ الحضارة والأديان. وقد شهدت الفترة من مطلع القرن الـ١٩ إلى مطلع القرن العشرين رحلات مكثفة من قبل الرحالة الروس لاستكشاف جغرافيتها وتاريخها وعادات أهلها وتقاليدهم.

وكانت أول رحلة قام بها رحالة روسي في القرن التاسع عشر قد قام بها الرحالة أو. سينكوفسكي (عام ١٨٢١) وتلاه الرحالة أ. مورافييف (عام ١٨٣٠) وهناك ١٢ رحالة آخر سجلوا بكتاباتهم ذكرياتهم عن رحلاتهم إلى مصر التي استمرت حتى مطلع القرن العشرين عندما قام الرحالة الروسي الشهير ن. بوجينبول بزيارته الشهيرة في عام ١٩١٠م.

وقد اختلفت الأهداف والغايات التي دفعت هؤلاء إلى زيارة مصر فمنهم من قام بذلك بهدف التجارة أو الحج أو المعرفة والعلم. وكما اختلفت غاياتهم اختلفت أيضًا درجة معرفتهم وإلمامهم بالثقافة العربية الإسلامية وكذا درجة إلمامهم وإتقانهم اللغة العربية. وكان لذلك تأثيره الواضح على درجة استيعابهم لما يشاهدونه ويلاحظونه ويدونونه حتى إنه كان أحيانًا يثير لديهم مشاعر متناقضة.

غير أن أول وصف لمصر في الأدبيات الروسية يعود إلى عام ١٤٦١ - ١٤٦٢م وقد قام به أحد رجال الدين المسيحي ويدعى فارسونوفي والذي قام في ذلك العام برحلة حج إلى مصر زار خلالها جزيرة سيناء. وبطبيعة الحال عرف الروس بمصر من خلال الكتاب المقدس. حيث قام الأمير فلاديمير أمير مملكة روس القديمة بإيفاد سفيرة إلى مصر بعد اعتناق مملكته رسميًّا للديانة المسيحية. كما جاء ذكر مصر في الأدبيات الروسية في القرن الحادي عشر. ومع حلول القرن الرابع عشر كان هناك انتظام لعملية الحج إلى سيناء ويعتقد البعض أن رجل الدين اجريفيني هو أول حاج روسي إلى سيناء وكان ذلك السبعينيات من القرن الرابع عشر. وقد قام بزيارة القاهرة والإسكندرية. وكانت أول معلومة سياسية مهمة عن مصر في مخطوطة حاج تعود إلى عام

١٤١٩م جاء فيها أن أراضي القدس وغزة والإسكندرية ودمشق وغيرها كانت خاضعة لسلطان مصر. كما وردت أسماء حكام مصر ودمشق حينها. وكان الطريق الذي يسلكه الحجاج عادة إلى مصر يمر عبر كييف ومنها إلى بيلجورود ثم الإبحار إلى جزيرة كريت ورودس وقبرص إلى دمياط ثم الإبحار عبر النيل إلى القاهرة. وذكر الحاج الروسي أيضًا التمساح الذي رآه أثناء رحلته عبر النيل وأطلق عليه الوحش المائي. ووصف كيف كانت التماسيح تخرج إلى شاطئ النهر وتلتهم الفلاحين.

وفي حين اهتم حجاج القرون الأولى بالمسافات والأبعاد والطقوس الدينية في الأساس. بدأ الحجاج اعتبارًا من القرن السابع عشر بتدوين انطباعاتهم وآرائهم الشخصية حول العادات والتقاليد المحلية عند المصريين وكذا النظام السياسي للدولة المصرية. حيث قام الأب أرسيني سوخانوف بوصف الأهرامات المصرية وعادات المصريين وتقاليدهم ومهارتهم في تحضير الدواء وبفضله أصبحت مصر مصدرًا رئيسًا للدواء المصنوع من الأعشاب والنباتات إلى روسيا. واستمرت شهرة العلاجات المصرية تلك في روسيا إلى منتصف القرن التاسع عشر. وكانت وزارة الخارجية الروسية كثيرًا ما توفد بعثات إلى مصر للعثور على أدوية لأمراض مختلفة وإعداد تقارير علمية مفصلة عنها ومن ثم استيرادها.

كما قام الرحَّالة أفرام نورو في بداية القرن التاسع عشر برحلة مهمة إلى مصر. وقد جمع الرحَّالة بين الأهداف الدينية والعلمية في رحلته حيث لم يكن أي تناقض. وهو نفس ما حدث مع الرحَّالة أ. مورافييف. وأوسبينسكي وكثير من رحَّالة القرن التاسع عشر.

3

مصر في الأدب الروسي الحديث

اهتم الروس منذ قديم الزمان بأخبار مصر. وجاء ذكرها للمرة الأولى في الأدبيات الروسية مع اعتناق الروس للمسيحية قبل حوالي ألف عام تقريبًا. وكان التصور التقليدي عنها يعتمد بشكل أساسي على ما ورد في الإنجيل، حيث رآها الروس دولة تضطهد المؤمنين. غير أن الأشعار الشعبية الروسية القديمة تحدثت عن مصر بوصفها منبع الحكمة في العالم.

وقد استخدم المبدعون الروس نموذج مصر في ثقافتهم للتأكيد على أفكارهم الأساسية فيما يتعلق برؤيتهم للعالم المحيط في هذه الحقبة الزمنية أو تلك. حتى بعد اعتناق الروس للعقيدة المسيحية تم الاستعانة بالميثولوجيا المصرية للتأكيد على حقيقة ومصداقية الدين الجديد، وأنه يمثل طوق النجاة للناس الذين عاشوا قبله لقرون في ظلام اللادينية.

وفي الفترة التي سبقت حكم بطرس الأكبر (القرن الـ١٧) قام عدد كبير من الرحَّالة الروس بزيارة مصر، وقاموا بوصفها في كتب سميت بالأسفار أو الرحلات.

وشهد القرن الثامن عشر عودة مصر بقوة إلى الثقافة الروسية، ولكن هذه المرة عبر بوابة أوروبا. حيث لم تكن اللغة المصرية القديمة قد اكتشفت بعد. واستقى الكتَّاب الروس معلوماتهم من الأدبيات الرومانية والعربية واليونانية التي تحدثت عن الثقافة المصرية والوعي المصري.

وقد شهد القرن التاسع عشر اكتشافات كبيرة في علم المصريات والميثولوجيا المصرية التي أصبحت أكثر استقلالية عن الأفكار السياسية والدينية. وشهدت هذه الفترة اهتمامًا كبيرًا بالثقافة المصرية بعد اكتشاف اللغة المصرية القديمة، وظهر علم المصريات الروسي وتطور بسرعة. وأخذ القارئ الروسي يتعرف على نماذج وشخصيات الآلهة المصرية القديمة في أدبه. وشهدت هذه الفترة زيارات مكثفة للكتَّاب والأدباء الروس إلى مصر الحديثة والتي عاشت فترة تنويرية في بدايات القرن قبل الماضي. ومن أمثلة الأعمال التي تناولت موتيفات مصرية نذكر «أرابيسك» لنيقولاي جوجول و«ليالي مصرية» و«كليوباترا» لألكسندر بوشكين.

ومع نهاية القرن العشرين أخذ الأدباء الروس يولون اهتمامهم أكثر بالفكرة الدينية في الثقافة المصرية.

واتسم العصر الفضي في الأدب الروسي والذي يبدأ في تسعينيات القرن التاسع عشر إلى قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧م باستشعار الأدباء والمثقفين قرب حدوث الكارثة وتوقع سنوات من الفوضى والدمار وهو الأمر الذي ساعد على انتشار أجواء تشاؤمية وانتشار خرافات قرب نهاية الزمان وصاحب هذه الحالة من الترقب لتحولات مهمة الحاجة إلى تجديد التطور الروحاني للمجتمع، والذي كان غارقًا في أزمة الهجوم على العقيدة المسيحية وغياب دور الدين، وانعدام الأمل في إمكانية إنشاء نظام عالمي سليم. وكان من نتاج ذلك كله أن اضطلعت الطبقة المثقفة في روسيا بالبحث في أصول الحضارات والثقافات والديانات الأخرى فقادهم الطريق إلى الاستغراق في قراءة وفهم الميثولوجيا المصرية في ظل الواقع الجديد. هكذا نلاحظ في تلك الفترة اهتمامًا كبيرًا وتاريخيًّا من قبل الثقافة الروسية بمصر. غير أن بداية القرن العشرين شهدت ظاهرة أقرب إلى الحنين إلى كل ما هو غامض. حيث شرع أدباء العصر الفضي في الأدب الروسي في خلق عوالم فنية تمثل بالنسبة إليهم رمزًا للعالم المثالي والمتكامل (فكان تصوير الشاعر الروسي روزانوف لمصر وجوموليوف لأفريقيا ودوستويفسكي لأمريكا). صور الأدباء الروس في تلك الفترة مصر بوصفها منبعًا للحكمة. وقد مثلت مصر أهمية خاصة بالنسبة إلى كتاب العصر الفضي بفضل طبيعتها المتناقضة والتي تجمع منتهى الخيال ومنتهى الواقع. وجذبت الديانة المصرية القديمة والتي تضم مفاهيم عن البدايات الأولى وأصل المفاهيم الفلسفية كالموت والخلود والخير والشر والعدل وغيرها اهتمام الأدباء الروس والمفكرين في تلك الفترة. ففي الفترة التي شهدت انتشارًا لأفكار الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في أوروبا أصبح من الضروري البحث عن ممارسات دينية وروحانية أخرى بما فيها الميثولوجيا المصرية القديمة. ومن أمثلة ذلك نذكر قصة «دون جوان في مصر» للكاتب نيقولاي جوموليوف و«الدلتا» و«ضوء الأبراج» لايفان بونين وكتابات فيتشسلاف إيفانوف ودميتري يفيموف وغيرهم.

وقد عثر هؤلاء على بغيتهم في الديانة المصرية القديمة، حيث وجدوا فيها أفكارًا تنسجم ورؤيتهم الشخصية للعالم المحيط. فقدم الديانة المصرية التاريخي أكبر دليل على مصداقيتها. وكان الأدباء الروس يرون مصر بعيون تختلف عن تلك التي يراها بها العلماء حيث كان اهتمامهم مركزًا على أهمية مصر بالنسبة للحاضر والقرن العشرين الذي كان يمثل القرن الذهبي للإنسانية. ففي مصر والميثولوجيا المصرية وجدوا تصورات كاملة عن مفاهيم الأسرة والزواج والرجل والمرأة وجاءت هذه التصورات والأفكار متطابقة مع

رؤيتهم وقناعاتهم الشخصية. وانتقد الأدباء والمفكرون الروس وخاصة روزانوف وجوموليوف تناول مصر بوصفها ثقافة وحضارة للموت فحسب وحولوها في كتاباتهم إلى ثقافة حياة ومستقبل، وبذلك خلق الأدباء الروس ميثولوجيا جديدة وخاصة بهم عن مصر.

وأصبحت مصر في الربع الأول من القرن الماضي أيقونة الموضوعات التقليدية والشائعة في الأدب الروسي. والقائمة عامرة بأسماء الكتاب والشعراء الذين تناولوها في كتاباتهم. فهناك كما أسلفنا الشاعر الروسي الشهير فاسيلي روزانوف (١٨٥٦ - ١٩١٩م). ومن أشهر أعماله عن مصر» عن الجمال المصري القديم» و«في بلاط الوثنيين» و«موتيفات شرقية» و«مصر» وغيرها. ويصف روزانوف في أعماله الحضارة المصرية القديمة ونمط التفكير عن المصريين القدماء وكذا المعاصرين. وقد اعتبر روزانوف المصريين شعبًا عبقريًّا قي جميع مناحي الحياة سواء الدين أو الأخلاق أو الإبداع الفني. ويرجع الكاتب في أعماله الفضل لمصر القديمة في إرساء أسس التدين في العالم.

والكاتب من خلال إبداعه للنص الميثولوجي عن مصر فهو في الوقت نفسه يسعى إلى بناء نموذج للعلاقة بين الإنسان وربه. وقد تشكل هذا النموذج بشكل نهائي في موتيفاته الأسطورية المصرية. ويقدم روزانوف مصر القديمة بوصفها عالمًا مثاليًّا يقارن بينه وبين العالم الواقعي الذي عايشه الروس في فترة ما قبل الثورة البلشفية. غير أن الكاتب على ثقة من أن اللجوء والاستعانة بالحضارة المصرية والديانة المصرية القديمة يمكن أن يساعد العالم المعاصر على الاقتراب من المثالية.

وقد انتقد روزانوف بشدة واتهم بالردة عن الدين نتيجة مساعيه وبحثه المتواصل عن النموذج الأمثل للعلاقة بين الإنسان وربه. وقد ساعدته كتاباته عن مصر أن يكتشف نفسه من جديد ويقدم نفسه كإنسان يسعى للحفاظ على إيمانه المسيحي من خلال بحثه عن أسس جديدة للمعتقدات الدينية. فهو يعترف بديانته ولكنه في الوقت نفسه يشير إلى ضرورة إعادة تقييم رؤية الدين إلى مكانة الأسرة والزواج والأطفال في حياة الإنسان.

أما الأديب والشاعر الروسي العظيم ألكسندر بلوك (١٨٨٠ - ١٩٢١ م) فقد تناول في بعض ما كتب مصر القديمة بوصفها رمزًا لروسيا المعاصرة. وقد كانت آخر مؤلفاته مسرحية بعنوان «رمسيس. مشاهد من حياة مصر القديمة» وصدرت عام ١٩١٩م. وكانت تلك فترة عصيبة في تاريخ روسيا الحديثة، فقد شهدت نهاية الحقبة الإمبراطورية وبداية العصر السوفيتي الذي لم تكن ملامحه قد اتضحت بعد للكثيرين. وقد اتخذ بلوك من مصر القديمة نموذجًا

أسقط عليه واقع روسيا المعاصرة، وهنا يقوم أديبنا برسم لوحة رمزية لمرحلة انهيار الحضارة المصرية يستطيع القارئ بسهولة الربط بينها وبين ما كان يحدث قي روسيا من انهيار لإمبراطورية عريقة.

كاتب آخر كبير في روسيا تناول مصر كثيرًا في أعماله، وهو نيقولاي جومليوف (١٨٨٦ - ١٩٢١ م) والذي كانت مصر تمثل له عبر رحلته الإبداعية كلها مصدرًا للإلهام والوحي. واهتم هذا الأديب كثيرًا بعلم المصريات، حيث كانت تربطه علاقة بكبار العلماء والمستشرقين الروس وتعرف من خلالهم على الإنجازات التي توصل إليها هذا العلم. وقد زار مصر أكثر من مرة وأعجب كثيرًا بالقاهرة والإسكندرية. كما زار حديقة الأزبكية التي ذكرها في ديوان صدر له بعد عشر سنوات تحدث فيه عن فضل هذه الحديقة في إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد فترة من الإحباط. ومن أعماله التي تتحدث عن مصر أيضًا مسرحيته الشهيرة «دون جوان في مصر» وصدرت عام ١٩١١. كما ألف الكثير من الأشعار عن أفريقيا عمومًا ومصر على وجه الخصوص. وهناك قصيدة له تحمل اسم «مصر» يتحدث فيها عن الفلاح المصري ومثابرته ونشاطه وحبه للنيل وارتباطه به. وهكذا قدم هذه الشاعر نموذجًا شاعريًّا لمصر في أعماله، وتحدث عن مصر برومانسية أحيانًا وواقعية أحيانًا أخرى.

وترى الناقدة والكاتبة الروسية ل. بانوفا أن الأدباء الروس في النصف الأول من القرن العشرين يرون مصر من منظورهم الخاص وواقع خبراتهم سواء الحياتية أو الدينية كما ترى أن نموذج مصر في الأدب الروسي في القرن العشرين يبدو ذا وجهين أولهما ثقافي والآخر ديني.

ودفعت الأفكار عن الموت والخلود والتي انتشرت في بدايات القرن العشرين بالأدباء الروس إلى التوجه للديانة المصرية القديمة ومحاولة فهمها ومن ثم استخدامها كموتيفات في إبداعاتهم. وفي تلك الفترة نجد انصهارًا بين الفهم العلمي والخيالي لمصر وحضارتها وأصبح هناك طرح جديد يجمع بين الاثنين معًا. هذا المزيج العلمي الخيالي في تناول النموذج المصري كان العلامة والسمة المميزة لأدب القرن العشرين عن مصر.

وقد سعي بالمونت وبوريوسوف وميرجكوفسكي وروزانوف وسولوفييف إلى تصوير تاريخ روسيا بوصفة عملية واحدة ومتصلة وربما هذا هو السبب في بحثهم عن جذور ثقافتهم أن يلجئوا إلى التاريخ القديم بما في ذلك إلى الحضارة المصرية القديمة والتي بدت لهم تملك المعرفة الحقيقية حول أصل الأشياء. حيث يرى بريوسوف على سبيل المثال أن مصر تمثل أصلًا للحضارة الأوروبية كلها.

وفي حين يرى كل من فلاديمير سولوفييف ود.ميرجكوفسكي أن الحضارة المصرية هي أصل العقيدة المسيحية يرى روزانوف أن مصر تمثل نموذجًا مثاليًّا للمضمون الديني والروحاني. وهذه الثنائية تعكس رؤية هؤلاء الأدباء للعالم في تلك الفترة.

وهكذا يمكن القول إن نموذج مصر في الأدب الروسي في القرن العشرين يقع عند نقطة الالتقاء بين الواقعي والميثولوجي، بين المعرفة الحقيقية والخيال. ومن هنا نجد هذه الرؤية المزدوجة للعالم عند تناول الأدباء الروس لهذا النموذج.

4

روايتا «عزازيل» للأديبين المصري يوسف زيدان والروسي بوريس أكونين

رغم اختلاف الموضوعات التي تطرق لها الكاتبان يوسف زيـدان وبـوريـس أكـونـيـن في روايتـيـهما، وكذا أساليب معالجتها إلاأن هناك العديد من أوجه التشابه فيما بينهما سواء في شخصية البطل الرئيس أو كون الروايتين يعالجان مشاكل اجتماعية متشابهة فيما بين المجتمعين الروسي والمصري.

كما أنه من المهم أيضًا النظر إلى رؤية الكاتبين للقضايا المعاصرة ومنها التعصب الديني والتطرف. ومن الأشياء التي تجمع الكاتبين أيضًا الأسلوب الرائع في الكتابة وأهمية الموضوع وعنصر التشويق والنسق الهادئ في السرد. كما يتسم كل من زيدان وأكونين بتمكنهما الشديد من نواصي اللغة وثراء التعبير باستخدام الألفاظ وتميز أسلوبهما عن غيرهما من كتَّاب عصرهما.

ويتسم موضوع رواية «عزازيل» أكونين ببساطته حيث تتناول الرواية الأحداث التاريخية التى وقعت في القرن التاسع عشر داخل روسيا وأوروبا. تلك الأحداث التى جعلت البطل الرئيس فاندورين يعتقد أن ثمة مؤامرة تحاك بروسيا. وفي خلال الأحداث يتمكن البطل من اقتفاء أثر سيدة تدعى إستر لديها شبكة عالمية من دور الأيتام، ويعتقد البطل أنها تقود منظمة إرهابية عالمية تسمى «عزازيل» وتسعى من خلالها للسيطرة على العالم.

وفي روايته «عزازيل» يتناول الكاتب يوسف زيدان قضية الصراع بين الدين والفلسفة في مصر القديمة. ويتحدث الكاتب عن رحلة البطل هيبا القادم من الصعيد والذي قدر له أن يكون شاهدًا على العديد من الأحداث التاريخية الكبرى. وطوال الرواية هناك حوار دائر بين البطل وعزازيل الذي ينصحه بتدوين ما يراه.

ونلاحظ أن شخصية «عزازيل» في رواية زيدان تتجسد في شخص واحد يحمل نفس الاسم ويسيطر بشكل شبه تام على البطل هيبا، أما لدى أكونين

فالوضع مغاير حيث يتجسد في مجموعة من الأشرار. فنراه أحيانًا في شخص أعضاء الجمعية السرية «عزازيل» أو حارس الفندق أو شخصية أماليا. ومن كثرة هؤلاء اعتقد البطل أحيانًا أن العالم كله أصبح يريد له الشر.

وما يوحِّد بين الروايتين أيضًا احتجاج الأبطال على الظروف المحيطة والقاسية. غير أن الأبطال عند زيدان يواجهون هذه الظروف ليس استجابة لعزازيل بل لرجال الدين. أما بطل أكونين فاندورين فيتوجه للإدارة المحلية في موسكو بطلب احتجاج رسمي. وخلافا لهيبا الذي لا يعرف إلى أين وإلى من يتوجه بشكواه فإن بطل أكونين يعرف تحديدًا من المذنب.

يبدو عزازيل حاضرًا في كل صفحات رواية زيدان ويرتبط ذلك بعدم استقرار البطل نفسيًّا وعدم قدرته على الحسم. وأحيانًا يبدو وكأنه يخضع لسيطرته تمامًا. فنرى عزازيل يدعوه طوال الوقت لارتكاب الآثام والكشف عن رغباته ثم يدعوه لتدوين ذلك. ويبدو الأمر مشابها للعبة الورق التى يقوم فيها عزازيل أكونين بتدريب البطل عليها ويحاول أن يجذب للعب غيره من اللاعبين الموهوبين.

وهناك انطباع يتكون لدى قارئ رواية أكونين أن عزازيل ظهر نتيجة لعدم اكتمال منظومة المجتمع المعاصر وحقيقة أنه إذا كان المجتمع لا يريد ولا يستطيع تحقيق شيء ما فربما تستطيع منظمات سرية أو خفية القيام بذلك. ومن هنا كانت المنظمة السرية «عزازيل» في رواية أكونين دليلًا واضحًا على ذلك. فكما جاء على لسان البطلة إستر في نهاية الرواية: عزازيل هو رمز للتنوير غير أن الناس ضعفاء لا يدركون وقد حولوا بأنفسهم هذا العالم الجميل إلى جحيم. والله قد منحهم أوراقًا للعب بها وعزازيل لا يفعل شيئًا سوى أنه يعلمهم كيف يستخدمونها.

وكثيرًا ما يلجأ زيدان في روايته إلى طرح العديد من الأسئلة دفعة واحدة في الحوارات بين الأبطال، وكثيرًا ما تبقي هذه الأسئلة دون إجابات أو تكون إجاباتها مبهمة وغير كافية. ويبدو الكاتب وكأنه يطرح هذه الأسئلة على القارئ لا على الشخصيات. فالبطل هيبا يريد إجابات على هذه الأسئلة ويريد أن يبحث القارئ عنها بنفسه. ونفس الأسلوب في طرح الأسئلة نلحظه أيضًا في رواية أكونين والهدف نفسه أيضًا من طرحها.

ويولي الكاتبان في الروايتين اهتمامًا خاصًّا بموضوع التطرف الديني. فالتطرف أدى إلى مقتل العالمة هيباتيا ونفس الموضوع يطرح على لسان بطل رواية أكونين. وتجدر الإشارة إلى أنه في حين تلعب شخصية عزازيل دورًا غريبًا لدى زيدان، حيث تتسم هذه الشخصية في معظم الأعمال الأدبية

بكونها مسئولة عن كافة المآسي والشرور التي تحدث للبطل وغيره من الشخصيات، إلا أن زيدان يفسر وجود عزازيل في المجتمع بأنه نتيجة لحالة الاضطراب النفسي عند البطل. وكما لو كان المؤلف يريد أن يقول أن السلبية تجذب الشرور على صاحبها ورمزية عزازيل ترتبط لديه بعدم الفعل وبالاضطراب في سلوكيات البطل. وفضلًا عن دعوة الكاتب إلى أن يحتل كل إنسان مكانة وموقعه من العالم فهو في الوقت نفسه يدعو إلى التسامح الديني. فقد أشار بوضوح إلى أن الحقيقة الدينية واحدة ولها أساس واحد. وهو يعتقد أن الآلهة على اختلافها ليست في المعابد والتماثيل والمباني بل في قلوب الناس المؤمنين بها.

وفي النهاية تجدر الإشارة إلى أن روايتي «عزازيل» لدى زيدان وأكونين يمكن أن ينتميا إلى صنف روايات الحداثة والتى تهدف إلى محو الحدود بين أدب النخبة والأدب الجماهيري. وقد نجح الكاتبان في إضفاء الصبغة الفلسفية (أكونين) والتاريخية (زيدان). وإذا كان أكونين قد نجح في تقديم النص ليكون متاحًا ومفهومًا من قاعدة عريضة من القراء فقد نجح زيدان أيضًا في أن يجعل من نصه الغني بالموتيفات الفلسفية عملًا جماهيريًّا واسع الانتشار.

5

تاريخ ترجمة الأدب بين العربية والروسية

تعد الترجمة من أقدم أوجه النشاط الإنساني، حيث ظهرت بظهور الحاجة إلى وسيلة للتواصل بين الشعوب والأمم. وقد لعبت الترجمة ولا زالت دورًا مهمًّا في التقارب بين الحضارات. ولا يخفى على أحد دور الترجمة المهم في إحداث النهضة الأوروبية عندما نقل مترجمو أوروبا أمهات الكتب العربية وخاصة في العصرين الأموي والعباسي، وكذلك في عهد دولة الأندلس الإسلامية. وقد مرت عملية الترجمة من العربية إلى الروسية والعكس بعدة مراحل صعودًا وهبوطًا. وارتبط ذلك دائمًا بمدى اهتمام العلماء والباحثين والمترجمين وشغفهم بعلوم ومعارف وآداب الطرف الآخر.

وقد ساعدت نهضة العرب تلك على الارتقاء بفن الترجمة حيث كان لهم العديد من الإنجازات المشرقة سبقوا فيها أوروبا بخطوات. والأمر نفسه ينطبق على الإمبراطورية الروسية التي شهدت في مرحلة حكم بطرس الأكبر سلسلة من الإصلاحات وحققت تقدمًا كبيرًا في عديد المجالات. وأيقن القائمون على حكم روسيا في حينها أن بلادهم لا يمكن أن تتقدم في اتجاه ميادين الإبداع العلمي والأدبي إلا بالاهتمام بالترجمة.

وكان للكتَّاب الروس والعرب دور كبير في دفع حركة الترجمة من الروسية إلى العربية ومن العربية إلى الروسية، الأمر الذي أسفر عن وجود عدد كبير من الأعمال المترجمة من الروسية إلى العربية على وجه الخصوص.

وقد انطلقت عملية الترجمة بين العربية والروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ويعد كل من الشيخ محمد عياد الطنطاوي والمستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي صاحبي الفضل الأول والأكبر في تدشين هذه العملية. ولعلي لا أبالغ عندما أقول أن الشيخ محمد عياد الطنطاوي له النصيب الأكبر في هذا الفضل.

وُلد الشيخ محمد عياد الطنطاوي في مدينة طنطا بمحافظة الغربية وكان ذلك في عام ١٨١٠م. وكانت مصر في تلك الفترة تعيش فترة تنويرية لم تشهدها منذ زمن بعيد. وبات الاحتياج للترجمة شديدًا وكذلك تحرير الترجمة. تعرَّف الشيخ على العلماء الأوروبيين الشباب، وكان من بين تلاميذه المستشرقان الروسيان هما نيقولاي موخين ورودلف فرين اللذان يخدمان

في القنصلية الروسية العامة، ومن خلالهما تمت دعوته للتدريس في روسيا بإذن من القيصر، وكان ذلك في عام ١٨٤٠.

وقد عاش الطنطاوي نصف قرن فقط، ورغم ذلك كان إنتاجه ضخمًا. حيث تتلمذ على يديه كثير من كبار المستشرقين الروس والذين ذاع صيتهم فيما بعد. وقد ترأس الطنطاوي قسم الدراسات الآسيوية بوزارة الخارجية الروسية ومنح أعلى وسام في الإمبراطورية على جهوده في نشر اللغة العربية والترجمة.

ومن أهم المؤلفات التى تركها الشيخ للتراث الإنساني كتاب «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا» وكتاب «أحسن النخب في معرفة لسان العرب» الذي كتب باللغة الفرنسية، وهو كتاب أكسب الطنطاوي شهرة واسعة في كل أوروبا.

كما قام بترجمة كتاب «تاريخ روسيا المختصر» لأوسترالوف، وأعد قاموسًا عربيًّا فرنسيًّا طبُع في كازان عام ١٨٤٩م. وقام الشيخ الطنطاوي أيضًا بترجمة الباب الأول من كتاب «كلستان» لسعدي الشيرازي. وغيرها من المصنفات الخاصة في العقائد وقواعد اللغة والبلاغة وحتى الجبر والحساب والميراث، كما ترجم الأمثال العربية الشهيرة إلى اللغة الروسية.

في المقابل يعد اغناطيوس كراتشكوفسكي أحد أهم مؤسسي مدرسة الاستشراق الروسية، وُلد عام ١٨٨٣م وقد تولى عماده معهد الاستشراق في موسكو في الفترة من ١٩٣٨ - ١٩٤٥م. وقد ألف كراتشكوفسكي ما يزيد عن ٤٥٠ بحثًا أو كتابًا في مجال التعريب والدراسات الشرقية ولعل أهمها ترجمته لمعاني القران الكريم إلى اللغة الروسية. كما يعد رائدًا في بحوث ودراسات تاريخ الأدب العربي الحديث في روسيا وأوروبا. كما ترجم العديد من الأشعار العربية إلى الروسية ومنها قصائد المتنبي وأبى العلاء المعري، وكذا مخطوطات مكتبة الإسكندرية ومختارات من روائع الأدب العربي بالإضافة إلى إشرافه على تحرير الإصدار الروسي لكتاب «ألف ليلة وليلة».

وقد شهد القرن الماضي إنتاجًا ترجميًّا مهمًّا، حيث مرت حركة الترجمة من وإلى العربية عدة مراحل صعودًا وهبوطًا نتوقف عند المحطات المهمة فيها.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نشطت الجمعية الإمبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية الروسية ومدارسها التى كانت تضم بين جنباتها آلاف الطلاب العرب. وقد انصبت معظم الترجمات في تلك الفترة على التعريف بالأدب الروسي وتاريخ روسيا وحضارتها. ومن أبرز مترجمي تلك الفترة سليم قبعين وخليل بيدس ويعود لهما الفضل في ترجمة بعض مؤلفات

كبار الكتاب الروس نذكر منهم ليف تولستوي وماكسيم جوركي وبوشكين وجوجول وتشيخوف. وصدرت ترجماتهما في الفترة بين ١٩٠٠ - ١٩٠٩م.

وشهدت فترة الحرب العالمية الأولى جمودًا في حركة الترجمة نظرًا للظروف السياسية والإقليمية المحيطة ثم عادت ونشطت مرة أخرى انطلاقًا من مصر هذه المرة. حيث أخذ المترجمون المصريون ينقلون أعمال الأدب الروسي إلى اللغة العربية ليس فقط عن اللغة الروسية ولكن عن لغات أخرى وسيطة كالإنجليزية والفرنسية. حيث ترجمت تقريبًا كافة أعمال كبار الكتاب الروس ومنهم دوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف. وشهد المسرح المصري طفرة هائلة وازدهارًا بفضل الاستفادة من هذه الأعمال. وقد لعب العامل الأيديولوجي دورًا مهمًّا في ترجمة العديد من الأعمال التى تنوعت بين الاقتصادي والسياسي والاجتماعي أيضًا.

ثم كانت فترة الخمسينيات من القرن الماضي والتي شهدت ظهور ترجمات رائعة لأمهات الأدب الروسي، وعلى رأسها الأعمال الكاملة لدوستيفسكي وتولستوي. وقد قام بهذا العمل الكبير الأديب الشهير السوري الدكتور سامي الدروبي والذي يعد أشهر من ترجم الأدب الروسي رغم عدم درايته للغة الروسية حيث كان يترجم عن الفرنسية.

في عام ١٩٥٨ تأسس اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا الذي أصدر مجلة شهيرة اسمها «مجلة الآداب الأفروآسيوية» ثم أصبح اسمها فيما بعد «لوتس» ونشرت العديد من الترجمات الأدبية. وشهدت الترجمة من الروسية إلى العربية خلال الستينيات والسبعينيات، ففي عام ١٩٦٩ أسست جائزة لوتس في الترجمة وجائزة ابن سينا الدولية للترجمة.

وتضمنت مكتبة الأدب العالمي التي أصدرها الاتحاد السوفيتي السابق أكثر من ٢٠٠ مجلد تعريفي بالأدب العربي وترجمت نصوص أدبية لكتاب عرب منهم الطيب صالح ونجيب محفوظ وعبد السلام العجيلي وجبران خليل جبران ومحمود درويش وعبد الرحمن الخميسي ومعين بسيسو وعلى عقله عرسان ويوسف السباعي ويوسف إدريس.

ومن بين دور النشر الروسية التي لعبت دورًا مهمًّا في الترجمة نذكر دار نشر «رادوغا» و«التقدم». ومن المترجمين العرب الذين نشرت كتبهم من خلال دور النشر تلك أبو بكر يوسف من مصر ويوسف الحلاق وشوكت يوسف من سوريا وخيري الضامن وغائب طعمه فرمان من العراق، حيث ترجموا أعمال ماياكوفسكي وجوركي وشولوخوف واخماتوفا وباسترناك وراسبوتين. أما أولئك الذين عملوا في حقل الترجمة من العربية إلى الروسية فنذكر

المترجمة الروسية أولجا فلاسوفا وفاليريا كيربيتشينكا وأولجا فرالوفا وفلاديمير شاجال.

وبفضل المترجمين الروس والعرب تعرف القراء في روسيا على مؤلفات أبرز الأدباء العرب المعاصرين من مصر وسوريا والعراق والمغرب العربي. وتشير الأرقام إلى أن ما صدر من مؤلفات الكتَّاب العرب في العهد السوفيتي بلغ نحو ٦٠٠ عنوان باللغة الروسية.

وهكذا نلحظ أن عملية الترجمة بين الروسية والعربية قطعت أشواطًا مهمة خلال عمرها الذي يزيد عن قرن من الزمان.

لقد ترجم العرب خلال القرن العشرين معظم أعمال الكلاسيكيين الروس، وأعيدت ترجمة بعض تلك الأعمال، أما طباعتها فتمت مرات ومرات. فأعمال بوشكين وتولستوي ودوستويفسكي وتورغينيف وتشيخوف وليرمونتوف كلها ترجمت إلى العربية. ونستطيع القول إن القرن العشرين قد شهد أوسع دوائر التأثير والتواصل بين المثقفين والأدباء والمبدعين في كل من روسيا والعالم العربي ويرجع الفضل في ذلك إلى حركة الترجمة.

وفيما يتعلق بواقعنا العربي في الترجمة إلى الروسية فإنه يتسم بانعدام المنهجية وطغيان العمل الفردي. حيث ظل كل فرد يترجم في زاويته دون خطة مشتركة أو توجه عام إلا محاولات قليلة قامت بها مؤسسات علمية تعنى بتدريس اللغة الروسية، نذكر منها إسهامات أساتذة كلية الألسن بجامعة عين شمس وقسم اللغة الروسية بجامعة بغداد، وكذلك برنامج اللغة الروسية بجامعة الملك سعود.

وفي النهاية يجب القول إن ما تم إنجازه على طريق تحقيق حلم ترجمة كافة الأعمال الكبيرة في الثقافتين يعد قدرًا لا بأس به ويمكن البناء عليه. وفي ظني فإن صياغة منهجية وخطط كبيرة لترجمة الإصدارات المهمة أولًا بأول، واستقطاب كافة المترجمين بين اللغتين والاستفادة منهم بالشكل الأمثل، وتشجيعهم يمكن أن يؤتي ثمارًا جيدة.

6

صورة أفريقيا في الأدب الروسي

اهتمَّ الأدب الروسي بالحضارات المحيطة به منذ نشأته، وبعد تولي القيصر بطرس الأكبر الحكم في عام ١٦٨٢م، أولىَ اهتمامه بالانفتاح على الحضارات الأخرى، خاصة المجاورة لإمبراطورتيه، وكان من أوجه الاهتمام تشجيع العلماء والمفكرين والأدباء الروس على السفر إلى قارات العالم القديم، والتعرُّف على هذه الثقافات. ورغم بُعد المسافة التي تفصل الإمبراطورية الروسية عن القارة السمراء، وصعوبة الظروف التي كانت تعيشها أفريقيا في تلك الفترة؛ فإنها لم تبقَ بعيدة عن اهتمام الأدباء الروس.

ومن بين أهم المصادر التي اعتمد عليها الروس في تكوين صورة عن القارة الأفريقية، كان الأدب الروسي؛ حيث كان لأفريقيا تأثير جلِيٌّ منذ بدايات القرن التاسع عشر في كتابات الأدباء الروس، ولعلَّ أشهرهم الشاعر الكبير ألكسندر بوشكين، الذي تحتشد في كتابه: «عبد بطرس الأكبر» العناصر والإشارات الأفريقية، ويتناول فيها رؤية المواطن الروسي للقارة السمراء في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد ورث الأدباء الروس فيما بعد تقاليد بوشكين في تناول أفريقيا في كتاباتهم.

وقد تناول العديد من النقاد الروس هذا الموضوع في كتاباتهم ونحاول في هذا المقال القصيرة التوقف عند أهم ملاحظاتهم. ولعل أشهرهم ف.كوفشينوف الذي يعدد مواطن تأثر الكتاب الروس الكلاسيكيين (بوشكين، ليرمونتوف، جونشاروف وتشيخوف) بالموتيفات الأفريقية. ويرجع الفضل لبوشكين في لفت الاهتمام بهذا العالم الجديد على الشعب الروسي. حيث ساعدت كتاباته على بلورة صورة معينة عن القارة السوداء، تتسم بالغموض والأسطورية أحيانًا، وبالرومانسية في أحيان أخرى، كما تبدو أفريقيا في كتاباته وأشعاره، بلادًا تنعم بالحرية على النقيض من روسيا.

كما ورد اسم أفريقيا في أشعار ميخائيل ليرمونتوف، وعلى الرغم من اطلاع الشاعر على العديد من الدراسات والأبحاث عن القارة السمراء، فإنه ذكرها مرات قليلة في قصيدته: «السكن الجديد الأخير»، حيث يصوِّر فيها سهول ووديان مصر في خِضَم حديثه عن حملة نابليون بونابرت على أفريقيا،

ثم وردت مرة أخرى في قصيدة: «الجدال»، وتحدَّث فيها عن تدفق مياه النيل الصفراء بفعل كثرة الطمي فيها.

ثم ورد ذكر أفريقيا في كتابات الأديب إيفان جونشاروف، الذي كان له الفضل في تقريب صورة أفريقيا من وعي القارئ الروسي، ونزع عنها الغموض الذي اتسمت به في السابق، وسار على نفس النهج كتَّاب آخرون مثل إيفان بونين ونيقولاي جومليوف. ففي قصته القصيرة: «الدلتا» يصف بونين بالتفصيل زيارته الأولى إلى أفريقيا، حيث أُعجب بالغرفة التي كان يقطنها والطعام الذي تناوله وانطباعاته عن سفرته بالقطار في القاهرة، وغير ذلك. كما كتب جوموليوف في: «يوميات أفريقية» وصفًا تفصيليًّا لزيارته.

وفي مسرحيته الشهيرة: «الخال فانيا» (١٨٩٧م) وصف أنطون تشيخوف خريطة أفريقية المعلَّقة على حائط الغرفة، كما جاء ذكرها في نهاية المسرحية، بوصفها رمزًا للشيء البعيد العديم الأهمية، الذي لا يكترث به شخوص المسرحية.

وصوَّر الأدباءُ الروسُ أفريقيا بوصفها مكان الصدام بين قوى الشر وقوى الخير، ويبدو ذلك جليًّا في قصة: «ماكسيمكا» قنسطنطين ستانيوكوفيتش (١٨٩٦م)، ويتحدث فيها عن حالة التخلف الذي يعاني منها سكانها وعن التدني الأخلاقي، الذي يتسم به المستعمرون.

ووفقا لكوفشينوف تصور أفريقيا في الأدب الروسي في القرن العشرين بوصفها المكان الذي سيشهد صراعًا، ومعركة بين القوى الاستعمارية الرأسمالية من ناحية وبين الشيوعية والبروليتاريا والعدالة من ناحية أخرى. ونلحظ ذلك بجلاء في قصيدة بوريس كورنيلوف: «قارتي أفريقيا» (١٩٣٥م)، وقد صدر في عام ١٩٧٣م كتابٌ يحمل الاسم نفسه من تأليف يوري ناجيبين، يضم مجموعة من القصص القصيرة، كتبها المؤلِّف أثناء زياراته المتعددة إلى القارة السمراء، ويتعرَّف من خلالها القارئ على عالم الحيوان، والطبيعة، والفنون، وشكل الحياة الاجتماعية، والمشكلات اليومية لسكان أفريقيا، وخاصة بلدان مصر، وتونس، والمغرب، والسودان، والكونغو، وكينيا، ونيجيريا.

ويُعتبر نيقولاي جوموليوف أولَ الأدباء الذين تناولوا القارة السمراء بوصفها كوكبًا خياليًّا، تحيط به الألغاز والغموض، ويكاد يضاهي صورة الهند في وعي القارئ الروسي، وقد كتب جوموليوف الكثير من الأعمال عن أفريقيا، وصوَّرها، وكأنها الجنة المفقودة على الأرض، ونذكر منها كتابه: «يوميات أفريقية» ١٩١٣م، وتكرر نفس الموتيف (تصوير أفريقيا كجنة مفقودة) في

أعمال أدباء آخرين، نذكر منهم أركادي أفيرتشينكو: «مزحة فاعل خير» و«وفاة صياد أفريقي» ١٩١٤م.

ومن أشعار جوميليوف عن مصر:

من ذاق يومًا ماء النيل

ستهفو نفسه إلى القاهرة

ليبق السادة هنا من الإنجليز

لا همَّ لهم إلا شرب الخمر ولعب الكرة

فيما الخديوي هناك بعيدًا

في برجه العاجي

رأى جوموليوف في أفريقيا مصدرًا للإلهام الروحي؛ ولذا فقد سيطرت القارة السمراء على كتاباته التي قدَّم فيها أفريقيا بوصفها قارةً قويةً مليئةً بالألغاز، والغموض، والمخاطر، والقوة، والعظمة.

كما تعرَّف الأطفال في روسيا على أفريقيا، بفضل القصائد الشعرية الكثيرة، ومن أشهرها كتابات كورني تشوكوفسكي، التي استخدم فيها أسماء الحيوانات والمدن الأفريقية، وكذا الظواهر والخرافات، وبفضل أشعاره تعرَّف الأطفال الروس على هذه الأرض الغامضة الخيالية، وكوَّنوا تصورًا كاملًا عنها من خلال الشعر.

وفي القرن العشرين، ووفقا لكوفشينوف أضحت أفريقيا لدى الكثير من الكتَّاب الروس منارةً للأمل، وجنةً على الأرض، يجب السعي للوصول إليها، وظهر ذلك جليًّا في كتاب يفجيني زامياتين: «أفريقيا» ١٩١٦م، غير أن أفريقيا بقيت جنةً يصعب تحقيقها على أرض الواقع الروسي. بقيت أفريقيا شيئًا ساحرًا خياليّا.

وفي الوقت نفسه، وكما يرى الناقد بيول ف. في كتابه «رسائل من إفريقيا» كانت هناك كتابات تتحدث عنها بوصفها جحيمًا، ورمزًا للوحشية والتخلف. ويهدف هؤلاء إلى المقاربة بينها وبين روسيا، التي لم تكن - في وجهة نظرهم - أكثر تطورًا من أفريقيا، ومثال ذلك كتاب: «على المحطة» للأديب ليونيد أندرييف (١٩٠٣م) ورواية: «الظلمة المصرية» للأديب ميخائيل بولجاكوف(١٩٢٥م)، حيث سعى الكاتبان إلى طرح المأساة الروسية

باستخدام مفردات ومؤثرات أفريقية. ومثال آخر للاهتمام بأفريقيا، هو كتاب نيقولاي زابولوتسكي: «رسائل من أفريقيا» (١٩٢٨م)، الذي يصف فيه تفصيلًا واقعًا، وعادات الشعوب الأفريقية، واعتبر الكتاب مادة وافية للباحثين والأطفال في المدارس.

ويرى الباحث أ.دافيدسون أن اهتمام الأدب السوفيتي بأفريقيا كان بمثابة وسيلة للسيطرة على الأحزاب الشيوعية في القارة، حيث كان من المهم حشد التعاطف الشعبي تجاه شعوب القارة، وبدا ذلك جليًّا في مقررات المدارس وأدب الأطفال، الذي تناول البشاعات التي ترتكب في القارة السمراء من المستعمرين.

وهكذا تراوحت صورة أفريقيا في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بين القول بأنها جنة مفقودة على الأرض والقول بأنها رمز للوحشية والتخلف والفقر. الأمر المؤكد أن الاهتمام بأفريقيا في الأدب الروسي لم يكن مصادفة ويرجع ذلك لأسباب معرفية في المقام الأول (القرن التاسع عشر وما سبقه) وأيديولوجية في المقام الثاني (القرن العشرين). وشاع استخدام نموذج القارة السوداء كمكان يمكن أن يشهد كل الاسقاطات المحتملة عن الواقع والحياة اليومية الروسية كما بدت رمزا للمكان البعيد وللحلم الذي يجب السعي لتحقيقه سواء مهما كلف الأمر.

الباب السادس
تفاعلات أدبية

1

ملامح تأثُّر الأدب الروسي بالثقافة الفرنسية

لاشك أن تأثير الثقافة الفرنسية على أوروبا بأكملها كان طاغيًا في القرنين ١٨ - ١٩ ميلادي. حيث كانت اللغة الفرنسية هي لغة طبقة النبلاء في أوروبا، وكانت فرنسا تمثل قِبلةً لمشاهير الثقافة والفن والأدب. واحتلت اللغة الفرنسية مكانة مهمة في تاريخ وثقافة الشعب الروسي. وعلى الرغم من وقوع بعض الأخطاء التاريخية والأحداث المأساوية في العلاقة بين البلدين إلا أن الصداقة القائمة على وجود سمات

مشتركة وطبائع أخلاقية متشابهة بين الشعبين كالطيبة والكرم كان لها دور كبير في توطيد الأواصر بين الأمتين الكبيرتين الروسية والفرنسية. وبعد الإصلاحات التي قام بها القيصر بطرس الأكبر، اندمجت روسيا في الحياة الأوروبية، وشهد القرن الثامن عشر تسارعًا في التقارب بين الثقافة الروسية والأوروبية، وكذا عمليات تعاون اقتصادي وتجاري واسعة.

وقد اهتم الروس على وجه الخصوص بفرنسا، التى كانت في تلك الفترة تمثل المشرع لكل ما هو جديد ونافع وكل ما هو فرنسي سواء كان تاريخًا أو أدبًا أو فنًّا أو علمًا أو لغة.

وأتاح القياصرة الروس الفرصة للشباب للسفر للدراسة في الخارج ليس فقط في هولندا وإنجلترا بل في فرنسا. وأغلب هؤلاء قام بدراسة علوم البحار في مدينتي تولون وبريست والتي بدأ التوافد عليهما من قبل الطلاب الروس في عام ١٧٢٠. وفي منتصف ونهاية القرن الثامن عشر وصل عدد كبير من النبلاء الروس إلى باريس وليون ومونبوليه، ومنهم عدد من كبار الأدباء وأشهرهم تريدياكوفسكي وكارامزين وفونفيزين. وقد وصفت تلك الفترة بكونها فترة بناء وترسيخ العلاقات الثقافية بين روسيا وفرنسا.

كما أظهر الفرنسيون اهتمامًا بل وولعًا بروسيا، حيث أولع الفلاسفة فولتير وديدرو وغيرهما بروسيا، وأعربوا عن إعجابهم بمنجزات الإمبراطورة يكاترينا الثانية. كما قام معماريون وفنانون وفلاسفة فرنسيون بالسفر إلى روسيا وزيارة العاصمة سان بطرسبورج.

اهتم فولتير بروسيا وهناك رسائل وخطابات متبادلة بينه وبين الإمبراطورة الروسية يكاترينا الثانية، وكذا مع عدد من المثقفين الروس. وفي عام ١٧٤٦ تم اختياره عضوًا شرفيًّا في أكاديمية العلوم الروسية. ومن أعماله المعروفة «تاريخ الإمبراطورية الروسية تحت حكم بطرس الأكبر» حيث أشاد كثيرًا بالإصلاحات التي قام بها القيصر. وفي عامي ١٧٨٢ - ١٧٨٣ صدر كتاب ضخم من ٥ أجزاء في باريس يحمل عنوان «تاريخ روسيا» لمؤلفه ش.ليفيك. أعقبه كتاب في قواعد اللغة الروسية للمؤلف موردو. كما اهتم د. ديدرو كثيرًا بروسيا، وكان على قناعة تامة بأن هذا البلد ينتظره مستقبل مشرق. وقام ديدرو بمتابعة التقدم الذي طرأ على العلوم الروسية، وتعرَّف على أعمال كبار الفلاسفة والعلماء الروس أمثال ميخائيل لومونوسوف، كما درس اللغة الروسية لكي يتمكن من قراءة أعمال الأدباء الروس في أصلها. كما قام الفنانان ج. بيرليوز وك. ديبيوسي بتنظيم حفلات موسيقية في روسيا.

وفي الوقت نفسه اهتم أهل العلم والثقافة في روسيا بقراءة كتب الفلاسفة الفرنسيين من أمثال فولتير وديدرو ومونتيسكي، كما اهتموا كثيرًا بالإبداعات الأدبية الفرنسية، فعلى سبيل المثال حظيت أعمال بومارشي بنجاح وانتشار كبير في روسيا. كما شهدت تلك الفترة حركة ترجمة واسعة من الفرنسية إلى الروسية. حتى إن كل الأدباء الروس تقريبًا في القرن الثامن عشر قد اشتغلوا بترجمة أعمال أدبية فرنسية إلى الروسية، ونذكر منهم ميخائيل لومونوسوف وفلاديمير تريدياكوفسكي ود. فونفيزين وغيرهم. وفي بداية القرن الثامن عشر كان الكتاب الفرنسي يحتل المرتبة الثالثة في روسيا بعد الكتاب اللاتيني والألماني. فيما مثَّلت الترجمات من الفرنسية أكثر من نصف حجم الأعمال المترجمة في منتصف القرن الثامن عشر.

وبعد قيام الثورة الفرنسية تم استئناف العلاقات بين البلدين بعد فترة قطيعة، وأصبح الروس ضيوفًا مرحَّبًا بهم في المدن الفرنسية. قام الروس بتنظيم حفلات وأعياد في باريس. وكان عددهم كبيرًا لدرجة أنه تم افتتاح محال تجارية ومقاهٍ خاصة بهم. وكان أغلب المترددين على المسارح والمتاحف الفرنسية من الروس.

وفي الفترة بين عامي ١٧٨٩ - ١٨١٢ كانت هناك منطقة لإقامة الفرنسيين وتجمعهم في موسكو. وبعد عام ١٨١٢ قام الفرنسيون بتأسيس جمعيات لرجال الأعمال والتجار في مختلف المدن الروسية الكبرى.

كما عمل عدد كبير من الفرنسيين في المؤسسات التعليمية الروسية مثل المدارس الثانوية والجامعات والمدارس الخاصة. كما اشتغل عدد كبير في مجال البحث العلمي ومنهم الدكتور إ. فوجيوي الأستاذ بجامعة سان

بطرسبورج. وقد لعبت اللغة الفرنسية دورًا مهمًّا في الحياة الجامعية. وكان هناك عدد كبير من الفرنسيين يعملون أساتذة بجامعة موسكو، ومنهم الأساتذة لابون وراول وليفي وغيرهم. وكان هناك العديد من المقررات التي تدرس باللغة الفرنسية مباشرة، ومنها على سبيل المثال التاريخ والجغرافيا؛ فضلًا عن اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي.

وفي القرن التاسع عشر ارتفعت أعداد الروس القادمين إلى فرنسا بغرض الدراسة في السوربون وأكاديمية الفنون الجميلة وكوليج دي فرانس. وظهر جيل من شباب الرحَّالة الروس ذوو التوجهات الليبرالية.

وفي مطلع القرن التاسع عشر زار فرنسا قادة ثورة الديسمبريين في روسيا ومنهم م. لونين وف. كوخيلبيكير. وفي عام ١٨٢٨ صرح وزير التعليم الروسي س. اوفاروف بأن الأدب الفرنسي يمثل المصدر الأساسي والدافع الرئيسي لانتشار الأفكار الكاذبة للثوار الديسمبريين. (ثورة الديسمبريين - ١٨٢٥) ومنذ العقد الثالث من القرن التاسع عشر اختار مثقفو المهجر الروس فرنسا كمقر للإقامة الدائمة. حتى إن الأديب جيرتسين قام بإنشاء مكتبة للطلاب الثوريين في مدينة نيس الفرنسية، وقام الأديب تورجينيف بالأمر نفسه.

وقد أدى الاهتمام الكبير من قبل الروس بالثقافة الفرنسية إلى ميلاد ظاهرة الفرانكوفيل أو الولع والتقدير والشغف بكل ما هو فرنسي. وسادت هذه الظاهرة في روسيا في الفترة بين منتصف القرن الثامن عشر إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

وتعرف ظاهرة الفرانكوفيل بأنها التغلغل المكثف للغة والثقافة الفرنسية في مجتمع ما. وقد حدث ذلك بوضوح في روسيا، كما قام العلماء الروس ببذل جهود كبيرة في دراسة فرنسا. وشهدت تلك الفترة تغلغلًا كبيرًا للثقافة الفرنسية في شتى مناحي الحياة في المجتمع الروسي الجديد، الذي كان قيد التشكل. وانتشر التأثير الفرنسي في الفنون والموسيقى وفي اللغة الروسية. وقد سبق ظهور الفرانكوفيل في روسيا مرحلة سابقة تمهيدية، كما تبعتها مرحلة من الخفوت في التأثير الفرنسي على الثقافة الروسية. وعاشت البلدان الأوروبية كافة هذه الظاهرة بدرجة أو بأخرى غير أنها في روسيا كانت أكثر وضوحًا.

كانت معرفة اللغة الفرنسية أمرًا واجبًا وإلزاميًّا على كل إنسان مثقف في روسيا، وكان المجتمع يقيس بها درجة تعليم الفرد وثقافته. ويرجع السبب في ذلك ليس فقط إلى الدور الذي كانت تلعبه فرنسا في الحياة الثقافية

والاقتصادية والسياسية في أوروبا، بل وإلى الدرجة العالية من التطور الذي اتسمت به اللغة الفرنسية حينها.

كانت اللغة الفرنسية، هي لغة الدبلوماسية والصالونات، التي تضم النخب المثقفة والمتعلمين وكانت لغة البلاط الحاكم والنبلاء. كان الأثرياء والمثقفون الروس يتحدثون الفرنسية بطلاقة في القرنين ١٨ - ١٩. كما كان الشعراء يتراسلون فيما بينهم بالفرنسية وخاصة في الفترة التى عاش فيها الشاعر الكبير ألكسندر بوشكين وما قبلها، كما كانت اليوميات والمذكرات تكتب بالفرنسية. وقد تحدث الأدباء الروس عن الدور المهم للغة الفرنسية في الحياة الثقافية للمجتمع الروسي، وتؤكد المواد الأرشيفية درجة الإتقان والكمال والصحة والدقة والسهولة، التى كان الروس يكتبون ويتحدثون بالفرنسية بها. وكانت اللغة الفرنسية تدرس بالمنازل قبل أن يتم تقريرها كمادة دراسية بالمدارس، كما اعتبرت معرفة هذه اللغة مكونًا وشرطًا أساسيًّا في تعليم كل مواطن روسي.

وقد سعت طبقة الملاَّك والأغنياء في روسيا إلى تعلُّم الفرنسية، حتى إنها كانت تتقن الفرنسية أكثر من اللغة الأم الروسية. وكان هناك اعتقاد أن اللغة الفرنسية تمتلك وسائل بديع وجمالًا في التعبير تمنح المتحدث بها قدرة على التعبير بشكل راقٍ ومؤثر عن أي شيء، سواء كان مهمًّا أو في أدق التفاصيل الحياتية، كما أتقن الروس من طبقة الملاك والنبلاء طريقة الفرنسيين في التعامل وسلوكياتهم في المواقف المختلفة، كما التزموا بالصيحات الفرنسية في الأزياء وأبدوا اهتمامًا كبيرا بالأدب والفن الفرنسي. كل ذلك ساعد على شيوع اعتقاد بأن معرفة الفرنسية هي شرط أساسي لمنح الشخص صفة الإنسان المثقف والمتعلم والناجح.

كما استخدمت اللغة الفرنسية على نطاق واسع في المؤلَّفات الأدبية الروسية. فنصف أشعار تريدياكوفسكي كتبت باللغة الفرنسية، وهناك عدد من القصائد الشعرية التى كتبها بوشكين وليرمونتوف بالفرنسية. كما شاع استخدام اللغة الفرنسية داخل النص الروسي وفي كثير من الأعمال الكبرى ومنها «الحرب والسلام» و«انا كارينينا» وغيرها.

غير أنه كان هناك رد فعل سلبي لظاهرة الفرانكوفيل من جانب بعض المثقفين الروس الذين يتقنون الفرنسية، ولكنهم انتقدوا طغيان هذه الظاهرة في المجتمع. كان شيوع استخدام اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ضرورة اقتضتها حاجة المجتمع الروسي حينها، حيث لم تكن هناك لغة روسية تصلح للاستخدام في المجتمع المثقف أو في أفرع العلوم التي كانت أوروبية التوجُّه. كانت لغة حوار طبقة النبلاء والملاَّك في

روسيا في القرن التاسع عشر تحتوي على كمٍّ هائل من المفردات والتراكيب والتعابير والاقتباسات الفرنسية. وكان من الصعب على هؤلاء التحدث باللغة الروسية في كثير من الموضوعات؛ ولذا فقد غلب استخدام اللغة الفرنسية في نقاشاتهم.

حظيت اللغة الفرنسية باهتمام كبير، كما شاع استخدامها لدرجة أن ظهر تيار رأى في ذلك خطرًا على الهوية الروسية، وتأثير سلبي على اللغة الوطنية.

فقد هاجم الأديب الروسي أ. سوماركوف في أعماله المسرحية مختلف الظواهر السلبية في المجتمع الروسي، وعد من بينها إهمال الروس للغتهم الأم وولعهم باللغات الأجنبية. حتى إنه قام بكتابة قصيدة ساخرة يهجو فيها ولع الروس باللغة الفرنسية وأطلق عليها اسم «وإذ نفسد لغتنا بأيدينا».

كما هاجم الأديب الكبير جريبويدوف في روايته الشهيرة «ألم العقل» ولع الروس باللغات الغريبة عليهم وعدم احترامهم للغتهم. يقول جريبويدوف على لسان أحد أبطاله «كان التأثير القوي للثقافة الفرنسية يجعل من السهل على أي فرنسي لا يعرف أي كلمة بالروسية العيش في روسيا وكأنه في وطنه.»

وأشار ف. كونيتسكي إلى أن التلاميذ يقضون ثلثي وقتهم في تعلم تراكيب لغات أجنبية ناسين أنهم بذلك يفسدون ويدمرون لغتهم الأم. ويعود السبب في ذلك أن أغلب كتب تعليم اللغات الأجنبية كانت تستخدم لغة روسية مشوهة في الشروح والأمثلة.

وهكذا يمكن القول إن تأثير الثقافة الفرنسية على الروسية كان قويًّا، وأن استخدام اللغة الفرنسية كان على نطاق واسع في المجتمع الروسي، وخاصة بين الأثرياء والنخب المثقفة وشريحة المتعلمين. وقد دفع ذلك العديد من علماء التربية ورجال المجتمع إلى الدفاع عن ضرورة تدريس اللغة الروسية والأدب الروسي في المدارس.

واختتمت عملية استيعاب الثقافة الفرنسية من قبل الروس بالاهتمام بالأدب، حيث زار فرنسا كل من بيلينسكي وجوجول وتولستوي ودوستويفسكي وتورجينيف. ويعتبر اللقاء الذي تم بين إيفان تورجينيف وب. ميريمي في عام ١٨٥٧ حدثًا مهمًّا في تاريخ الحوار الفرنسي الروسي. كان ميريمي مولعًا بالأدب الروسي والثقافة الروسية، ولم يهتم فقط بالقضايا الأدبية بل والمشكلات التي تتعلق بتطور اللغة الروسية، وقد انخرط في النقاشات الدائرة عن اللغة الروسية، التي كانت على أشدها في روسيا، وأطلق ميريمي على اللغة الروسية لقب اللغة الأكثر ثراءً بين جميع اللغات الأوروبية.

ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت أعمال دوستويفسكي وتولستوي وأوستروفسكي ونيكراسوف وسالتيكوف شيدرين قد ترجمت بالكامل إلى اللغة الفرنسية.

وفي عام ١٨٩٨ تم في باريس تأسيس الجمعية الفرنسية الروسية، التى ضمت أدباء وعلماء مع رجال أعمال وصناعة. كما ظهر عدد من دور النشر المتخصصة في طباعة الكتب اللغة الروسية.

وفي الوقت نفسه، انتشرت اللغة الفرنسية في روسيا، وشاعت سمات الثقافة الفرنسية في المجتمع الروسي، وتم ذلك ليس فقط بفضل الكتب بل وبجهود الفرنسيين أنفسهم، حيث سافر عدد كبير من الفرنسيين إلى روسيا. وكان من هؤلاء رجال ثقافة مشاهير قدموا إلى روسيا وأقاموا بها، ومنهم ديدرو وديوما الأب والنحات فالكون الذي قام بإبداع تمثال بطرس الأكبر والمعماري مونفيران وفنان الباليه م.بيتيبا، الذي تعاون مع الموسيقار الروسي تشايكوفسكي. كما كان بينهم رجال مجتمع وأرستقراطيون وكتَّاب فروا من فرنسا ومن الثورة الفرنسية، ومنهم الكاتب والفيلسوف جوزيف دي ميستر وأخوه الفنان كسافي دي ميستر والأديبة مدام دي ستال والنبيل دي سيجيور والكاتب لويس فيليب دي سيجيور.

ويمكن القول بثقة إن الروس قد تمكنوا خلال القرنين ١٨ - ١٩ من إرساء حوار بين الثقافتين الروسية والفرنسية، وكان الحوار يتسم بالتوازن في القوة بين الطرفين. حيث كان للفكر الروسي صدى وتأثير في فرنسا، وأصاب الولع والشغف بكل ما هو روسي ليس فقط لدى الشعب الفرنسي البسيط بل والنخبة المثقفة أيضًا والمبدعين.

وفي نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين خفتت حدة ظاهرة الفرانكوفيل؛ إلا أن المؤسسات التعليمية أبقت على تدريس الفرنسية. واستمر الوضع حتى قيام الثورة الاشتراكية في عام ١٩١٧م، كانت اللغة الفرنسية حتى ذلك تحتل مكانة مهمة في النظام التعليمي، وتأتي بعد اللاتينية والألمانية في الترتيب.

في نهاية القرن التاسع عشر، كانت دراسة الأدب الفرنسي من المتطلبات الإلزامية لفهم الأعمال الأدبية الروسية بشكل جيد. وقد اختارت لجنة الارتقاء بتدريس اللغات المشكلة في عام ١٨٨٣ عدد من مؤلفات كبار الأدباء الفرنسيين، الذين كان لهم عظيم الأثر على الأدب الروسي. ونذكر منهم موليير وراسين وكورنيل وباولو وفولتير ولافونتين وديدرو وبومارشي.

ولعله من المهم أن نفرد مساحة للحديث عن ظاهرة نابليون بونابرت في الأدب الروسي نظرًا للتأثير الكبير والملاحظ في أعمال العديد من الأدباء والشعراء الروس بفعل تأثرهم بالأحداث التاريخية التى وقعت بين البلدين أو بفعل انبهارهم بشخصية هذا القائد الشهير الذي حوَّل مسار التاريخ العالمي، وكان لشخصيته تأثير كبير على الوعي الروحي لكثير من شعوب العالم. ولم يكن الأدب الروسي استثناءا من ذلك.

ويعود تاريخ ظهور شخصية نابليون في الأعمال الأدبية الروسية إلى عام ١٨١٢. فبفعل تأثرهم الشديد بأحداث الحرب الوطنية، قام كبار الشعراء الروس حينها (بوشكين وديرجافين وكريلوف وجوكوفسكي وغيرهم) بتصوير شخصية الإمبراطور الفرنسي بوصفه شخصًا وحشيًّا طاغية محبًّا للسلطة، ويرجع السبب في هذه الصورة أحادية الجانب تجاه شخصية نابليون إلى الروح الوطنية التي سيطرت على هؤلاء الأدباء خاصة في السنوات الأولى التي تلت الحرب، حيث كانت مشاعر الكراهية هي السائدة تجاه شخص اعتدى على الأراضي الروسية والشعب الروسي. كان نابليون في تلك الفترة العدو الأول لروسيا؛ لذا فقد انبرى الأدب الروسي مدافعًا عن الوطن، وأبدى استعدادًا كاملًا لتجاهل أي سمات شخصية، وقدرات يتمتع بها هذا القائد العظيم.

فقد قام الشاعر الكبير ديرجافين بكتابة عدد من القصائد عن نابليون، ولعل أهمها قصيدة «نشيد... نبذ الفرنسيين من الوطن» (١٨١٢). وفيها يصور القائد الفرنسي كحيه أو نبوخذ نصر ثاني يفوح منه دخان ورائحة نتنة. كما صوَّره أنه «مسيخ دجال». وأصبح الوصف الأخير متداولًا وأصيلًا، نظرًا لأنه نقيض وعدوٌّ للمسيح؛ لذا فإنه محكوم عليه بالقتل والفناء. ونلاحظ في قصائد الشاعر أنه قد التقط بصدق الدافع الأساسي لتصرفات نابليون ألا وهو الطموح الزائد.

كما قام الشاعر كريلوف في عام ١٨١٢ بتصوير نابليون كمحارب، ويتناول المفاوضات التي دارت بينه وبين القائد الروسي الشهير كوتوزوف، التي باءت بالفشل، كما يصور في قصائده أحداث الحرب بالتفصيل ورد فعل الشاعر على هجوم نابليون على موسكو وسعيه لاحتلالها، واتسمت كل قصائد كريلوف بانتقاد نابليون بشكل حاد، واتهام جيشه بالسطو والنهب.

كما قام الشاعر جوكوفسكي في قصيدته «رسالة إلى الإمبراطور الاسكندر» بهجاء نابليون بشدة. ووصف الإمبراطور الفرنسي بكونه نبتًا شيطانيًّا يبعث الرعب والفوضى والحرب. وفي قصائده عن حرب ١٨١٢ يتحدث الشاعر عن عجرفة نابليون وتعاليه غير المستحق ورغبته أن يهيمن على العالم.

ولا تختلف رؤية ألكسندر بوشكين لنابليون عن تناول سابقيه لهذه الشخصية. ففي قصيدة بعنوان «نابليون على شاطئ نهر الإلبا» (١٨١٥) رسم بوشكين شخصية الإمبراطور الطاغية المتعطش للسلطة، الذي تسيطر عليه أحلام المجد والقوة.

وفي نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، والسنوات اللاحقة شهدت العلاقات بين الأباطرة الروس ونابليون بونابرت كثيرًا من التناقضات؛ الأمر الذي أدى إلى تباين الآراء حول شخصيته، حيث لم تعد شخصيته سلبية على الدوام. يشير الباحث جرونسكي إلى أن كتَّاب تلك الفترة في روسيا استوعبوا حقيقة أن الإنسان الواحد يمكن أن تكون لديه مناقب مثلما لديه مثالب وعيوب. وشهدت العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر ظهور أعمال أدبية وكتابات تصور نابليون كشخصية تاريخية عظيمة بعيدًا عن تناول الأحداث، والصدام مع روسيا.

ولعل المثال الواضح على ذلك القصيدة الشهيرة للشاعر بوشكين، التي تحمل عنوان «نابليون» وقد كتبها الشاعر بمناسبة وفاة الإمبراطور الفرنسي. وتسيطر على أجواء القصيدة أجواء ومشاعر المغفرة لنابليون، ونسيان كل ما اقترفه من جرم، وتقديره كشخص عظيم وأن سياساته التوسعية في العالم أدت رغمًا عنه إلى منح روسيا مجدًا عظيمًا وشعبها تقديرًا واحترامًا بين غيره من الشعوب. كما يشير بوشكين في قصيدته إلى أن نابليون قد أشار إلى الشعب الروسي بما يجب عليه القيام به ألا وهو الحفاظ وإنقاذ الحضارة الأوروبية من الانهيار.

كما أن عبقرية وعظمة نابليون بونابرت واضحة جلية في إبداعات الشاعر ليرمونتوف (العملاقان) (نابليون الإمبراطور الفرنسي). بقى ليرمونتوف طوال حياته مخلصًا لشخصية بونابرت ويكنُّ له تقديرًا واحترامًا كبيرًا. وفي قصيدته (القديسة يلينا) صور بونابرت منزهًا من كافة العيوب والنواقص. فضلًا عن ذلك صور ليرمونتوف القائد الفرنسي ضحية للخيانة والغدر.

وفي نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بدأ كتَّاب النثر الروس أيضًا في الكتابة عن نابليون، حيث تناول كل من زاجوسكين وبولجارين وبروتوبوبوف شخصية نابليون في رواياتهم وانطلقوا من فكرة وحقيقة مسلَّم بها ألا وهي عظمة الإمبراطور الفرنسي التي لا خلاف عليها.

وهكذا يمكن القول إن المستوى العالي لتطور الثقافة والعلوم والتحولات الاجتماعية، التي شهدتها فرنسا والروابط الثقافية الوثيقة بين روسيا وفرنسا والاهتمام الكبير من قِبل روسيا بفرنسا تمثل عوامل وأسبابًا قوية ساعدت

على تحول معرفة اللغة الفرنسية إلى أحد أهم أسباب تضاعف وتنامي القدرات الثقافية والفكرية في روسيا، ودعم تطورها الثقافي.

ولم يخفت الاهتمام بفرنسا وبالثقافة الفرنسية حتى اليوم في روسيا، حيث تلعب اللغة الفرنسية دورًا متناميًا في تطور علم اللغة الثقافي المعاصر في أوروبا ما بعد توحيدها، وينظر إليها الروس بوصفها اللغة الثانية في العالم، واللغة التي لها فضل كبير في تطور الحضارة الأوروبية، والتى تمثل قيمة كبرى لدى الكثير من شعوب أوروبا.

2

تاريخ الأدب الكازاخي: من الشفاهة إلى الكتابة

كازاخستان – دولة كبيرة، تتميز بتنوعها الثقافي والإثني، وبدرجة عالية من التسامح الديني والقومي. تقع في منطقة آسيا المركزية، ويمتد تاريخها لعشرات القرون، وترتبط مع الحضارة العربية بإرث كبير من التأثير والتأثر والتفاعل الحضاري. كما انفتحت في الوقت نفسه على الحضارة الأوروبية، وفي مقدمتها الروسية، وقدَّمت صورة رائعة للإسلام المستنير.

وكان للأدب الكازاخي نصيب من هذا الثراء، حيث يبدو أدبًا غنيًّا، استفاد من ثراء التربة الكازاخية الشاسعة (كازاخستان –تاسع دولة من حيث المساحة في العالم)، وكذا من التَّماس مع حضارات الشرق والغرب، وتواجد ممثلي مختلف الثقافات على أراضيه.

يرجع تاريخ أول الآثار الأدبية الكازاخية إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ونعني هنا داستانة (قصة) «نهر باتير». وتعود جذور الأدب الكازاخي إلى عصور قديمة، وقد تميز بكونه لم يتوقف عن التطور قط. وقد ساد الخطاب الشفهي والأدب المنقول شفهيًّا لقرون طويلة في الأدب الكازاخي؛ خاصةً في أدب شعوب آسيا الوسطى والمركزية عامة. ومع مرور الزمن وتغير العصور، حافظ الأدب على ميزته وأفضليته، حيث كان –دومًا - السِّمة المميزة، التي يعتز بها الكازاخ، سواء من البدو أو المحاربين. وربما يرجع ذلك إلى احترام الشعب الكازاخي وتقديسه منذ القِدم للروحانيات، وسعيه لفهم معنى الحياة وفلسفتها، وما هو وراء العالم المادي.

ويزخر الفلكلور الكازاخي بالعديد من الأساطير الدينية والحكايات والأمثال الشعبية والأقوال والأشعار البطولية والملحمية. ونذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - ملحمة «البطل الباميس» و«العملاق كوبيل أندي». وبفضل ثراء الأدب الشعبي الكازاخي، وجد الأدب المكتوب كنـزًا زاخرًا بالموضوعات والموتيفات التي قام على تطويرها لاحقًا.

وعلى مدى سبعة قرون (القرون ١ - ٧ ميلادي) أبدع الشعراء الكازاخ من المحاربين الرّحل قصائد لإلهام زملائهم على القيام بالبطولات والمآثر، وعلى

التحلي بالشجاعة والإقدام. وكتب هؤلاء الشعراء الكثير من القصائد، التي تغنَّت بالعدالة، والشجاعة، وحب الإنسان لأخيه، واحترام وتقديس الحياة.

ويُعد الشاعر الأسطوري دده قورقوت، الذي عاش على الأرجح في القرنين السادس والسابع من أبرز شعراء الأدب الكازاخي القديم. ويحتوي كتابه الذي يحمل اسمه على مجموعة من الحكايات الأسطورية لشعوب الأوغور. وقد ظهر القسم الأكبر من هذا الكتاب، الذي يضم بين دفتيْه اثنتي عشرة أسطورة، لأول مرة بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين. وهناك أيضًا قازتوغان جيراو، الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان رائدًا للفلسفة الوجودية. لم يكن قازتوغان شاعرًا فحسب، بل كان أيضًا محاربًا، لا يعرف الخوف. وهناك أيضًا أسان كايغي، الفيلسوف والشاعر، الذي عاش في القرن الخامس عشر، ومؤلف الكثير من الوصايا والأغاني، التي تحمل أفكارًا فلسفية عميقة.

وشهدت الفترة بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين، بداية مولد وظهور الأدب المكتوب جنبًا إلى جنب مع الأدب الشفهي.

هؤلاء من أحبَّ السُّهوبَ، وعاش فيها كل حياته، وتغنىَّ بها. وفي المقابل كان هناك من ترك السهوب إلى الحضر، حيث المدن والشعوب المستقرة. ويتسم الكازاخ بانفتاحهم على الثقافات الأخرى، فقد عكفوا على دراسة علوم الشعوب المجاورة، وقبلوا ثقافاتهم؛ ولذا نجد الكثير من الكتابات الكازاخية باللغات العربية والفارسية. ونذكر هنا - على سبيل المثال - العالم الشهير الفارابي المنحدر من شعب كيبتشاك، الذي أثبت بالدليل أن البداوة ليست ثقافة منغلقة بل منفتحة على العالم، وأن سكان السهوب متسامحون مع الثقافات الأخرى. ويوصف الفارابي بأنه المعلم الثاني للشرق، وهو ينحدر من مدينة فاراب بكازاخستان، وعاش في القرن العاشر الميلادي، وهو الفيلسوف، وعالم الرياضيات، وواضع النظريات في الموسيقى، وأحد أهم ممثلي حضارة القرون الوسطى في الشرق.

ويُعد الشاعر جيمبيت آخر رواة البطولات الشفهية الكازاخ، فيما يعد نسان باي جيراو آخر شعراء الرثاء الشفهي.

ونظرًا لخصوصية بنية الحكم في مملكة الكازاخ، كانت أهم الموضوعات التي تناولتها إبداعات الشعراء في الفترة بين القرنين ١٥ - ١٨ هي ضرورة توحيد القبائل والتماسك بين مكونات مملكة الكازاخ، ودعم قوة المملكة العسكرية. ومن أشهر ممثلي تلك الفترة أصان قايغي (القرن الخامس عشر

والشاعر صيبير (القرن ١٥) والشاعر جيمبيت (القرن ١٧) والشاعر ماراسكا (القرن ١٧) والشاعر أكتام بردي (القرن ١٨) وغيرهم

كما تطور في تلك الفترة الأدب المكتوب، الذي أبدعه في الأساس شعراء وأدباء البلاط، وكانت كل موضوعاته تاريخية. ومن بين أهم الكتب التي بقيت من تلك الفترة كتاب «بابور نامه» لمؤلِّفه زاخر الدين بابور، وكتابا «جامع التواريخ» و«شجرة الترك».

وكان صدور المرسوم الإمبراطوري الروسي بإلغاء الخانات (الممالك) الكازاخستانية في عام ١٨٢٢ سببًا في حدوث تغييرات واسعة النطاق في الحياة الدينية لدى الكازاخ، حيث أدَّى ذلك إلى تراجع الأدب البطولي، الذي استمر لقرون هو السيد في السهوب الكازاخستانية، بما في ذلك الحكايات والملاحم والأساطير. لم يعد أدب الأساطير يتمتع بنفس المكانة كما كان في السابق، وعاشت السهوب الكازاخية فترة فراغ إبداعي، استمرت لنصف قرن قبل ظهور الشاعر العظيم آباي. كانت تلك العقود الخمس بمثابة فترة وداعٍ بين الحضارة الكازاخستانية وإرثها البطولي الشجاع وترقب ظهور جيل جديد من الكازاخ. كتب هؤلاء الأغاني البطولية أيضًا، ولكنها كانت أقل بطولة وشجاعة، وكان أغلبها يتحدث عن الحنين إلى الماضي والحزن على فقدان المجد. عكست الأشعار الحزينة والمحبطة تلك الحالة المزاجية في حقبة التغييرات الحادة، التي عاشتها كازاخستان، حيث فقدان القيم القديمة، في حين لم تكن القيم الجديدة قد تشكلت تمامًا.

أما تقاليد الأدب المكتوب، فتعود أصولها إلى الشاعر الكازاخي العظيم آباي إبراهيم قونانباي، الذي يعد أول شاعر كازاخي يبدع شعرًا مكتوبًا وليس(شفهيًّا) لفظيًّا. ويعده الكثيرون مؤسسًا للأدب الكازاخي والكتابة الكازاخية. ويعتبر آباي إبراهيم قونانباي من أهم شخصيات تلك الفترة بلا منازع. وهو شاعر، وموسيقي، ومفكِّر، ورائد في التنوير، وأول كاتب كلاسيكي كازاخي. كما قام بالعديد من الإصلاحات في مجال الثقافة، وعمل على التقريب بينها وبين الثقافتين الروسية والأوروبية؛ انطلاقًا من النظرة المستنيرة للدين الإسلامي، ومن أشهر أعماله «كتاب الأقوال»، الذي يتناول فيه مختلف القضايا التاريخية، والأخلاقية، والتربوية، والقانونية، لدى الكازاخ.

ويمثل القرن التاسع عشر في تاريخ الأدب الكازاخي، فترة رسوخ لعدد من التقاليد الأدبية والاكتشافات الإبداعية، التي ترتبط بتاريخ الشعب الكازاخي وعشقه للحرية. شهدت السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ترسيخًا لسلطة القيصر والحكم المطلق، حيث تم إلغاء نظام الملكية في كازاخستان، ودعم السلطة المركزية عوضًا عن ذلك. وكان لذلك أثره القوى على تطور

الإبداعات الشفهية الشعرية التقليدية، حيث ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على إحداث التقارب بين الأدب ومصالح الجماهير والشعب الكازاخي. وتحولت اهتمامات الشعراء إلى تناول الموضوعات التي تهم البسطاء، والحديث عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية. كما عبَّر الشعراء عن قلقهم ورفضهم لتنامي سيطرة المستعمر أو المحتل، وظهور حركة التحرر الوطني، وظهرت الملاحم الشعرية البطولية، التي تنادي بالنضال ضد المستعمر.

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتشارًا واسعًا للأدب الكازاخي، الذي نال اعترافًا وتقديرًا كبيرين. ويرجع الفضل في ذلك إلى اهتمام هذا الأدب بالتعبير عن الواقع. اكتشف هذا الأدب إمكانات وآفاقًا جديدة للإبداع، بفضل العظماء دولت ومحبات وشورتان باي، ومن بعدهم أمير شعراء كازاخستان، ومؤسس الأدب الكازاخي الحديث، آباي قونانباي. كما أثرت الأغاني الكازاخية الشعر التركي القديم بالموضوعات والأجناس، حيث يرجع لها الفضل في تطور الموتيفات البطولية والتعبير عن الواقع. عكست هذه الأغاني الأحداث التاريخية، التي صاحبت نشأة مملكة الكازاخ وظهور الشعب الكازاخي. وكان لإبداعات الشاعرين الكبيرين قازتوغان وشالكيز دور كبير في إثراء الشعر الكازاخي.

كما يمثل القرن التاسع عشر بالنسبة للكازاخ فترة استيقاظ للوعي الوطني، حيث انعكست هذه التحولات السياسية والاجتماعية بجلاء في الأدب؛ ولذا تمثل إبداعات تلك الفترة معينًا لا ينفد للتراث الإبداعي الكازاخي، الذي يتحدث عن أخلاق الشعب، وكرمه، وسعيه الدءوب للتحرر.

وشهدت تلك الفترة تطور الأجناس الأدبية التقليدية، كالملحمة التاريخية، والشعر الغنائي الفلسفي، والأغاني الطقسية اليومية، كما شهدت تلك الفترة التقارب الإبداعي والتفاعل الأدبي بقوة مع الشرق العربي، وكذا التواصل عن كثب مع الأدباء الروس. كما نشطت حركة الترجمة عن العربية والروسية.

وشهدت بدايات القرن العشرين المزيد من التنوع في الأدب الكازاخي، من حيث الأجناس والموضوعات المطروحة، غير أنه ونظرًا للظروف التاريخية شهدت تلك الفترة أيضًا تشكُّل اللغة الكازاخية الفصحى المعاصرة، حيث ظهرت أشكال أسلوبية جديدة، وأتقن الأدباء الكازاخ الأجناس الأدبية الجديدة.

ومن أبرز الأدباء في تلك الفترة أحمد بايتورسينوف، الذي قد قام بترجمة أغاني الشاعر الروسي كريلوف وله العديد من الدواوين والمقالات عن اللغة الكازاخية، ينادي فيها بنقاء اللغة وتحريرها من الألفاظ الدخيلة عليها من

اللغتين الروسية والتترية. ويمكن اعتبار بايتورسينوف مؤسسًا لعلم اللغة الكازاخية.

وهناك أيضًا الأديب مير يعقوب دولت أولي، الذي يرجع له الفضل في تأليف أول رواية كازاخية «جمال التعيسة» (١٩١٠)، كما قام بتأليف العديد من الدواوين الشعرية باللغة الكازاخية. فضلًا عن ذلك قام بترجمة العديد من إبداعات الشعراء شيلير وبوشكين وليرمونتوف وكريلوف، وغيرهم. كما قام بالعديد من الإصلاحات في اللغة الكازاخية الفصحى المعاصرة، واستخدم ألفاظ وتراكيب جديدة في مؤلفاته.

وهناك أيضًا يوسف بك إيماوت أولي والكاتب الصحفي محمد جان صاراليولي وسباندیارا کوبييفا وغيرهم.

كما شهدت بدايات القرن العشرين تطور الأدب الفلسفي الأخلاقي، ولعل أهم ممثلي هذا النوع من الأدب سيفولين ساكين ومشهور يوسف ومحمد سليم كاشيموف وشاكاريم كوتسايبرديولي وغيرهم.

وشهدت العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين نشأة وتطور وازدهار الدراما الكازاخية، وارتبط ذلك بازدهار فن المسرح في كازاخستان، الذي شهد عرض العديد من المسرحيات الكازاخية المأخوذة عن الأعمال الأدبية، وبطبيعة الحال، ونظرًا لوقوع كازاخستان تحت الحكم السوفيتي، فقد سيطرت الواقعية الاشتراكية على الإبداعات الأدبية كتوجهٍ عام للدولة المركزية في حينها، وشهدت الأربعينيات والخمسينيات عودة الأدباء الكازاخ بقوة إلى النثر، خاصة الرواية. ومن أشهرها «العلم اللغز» و«سير - داريا» و«الجندي الكازاخي» و«المليونير» وأشهر كتَّاب تلك الفترة ج. مصطفين وج. موصريبوف وس. موكانوف. وغيرهم،كما واصلت الدراما الكازاخية توهجها، ووصلت إلى القمة، واكتشفت إمكانات جديدة،حيث نشط الكتَّاب في تأليف المسرحيات في الموضوعات التاريخية وسير العظماء وكذا الموضوعات الملحمية والأسطورية. أصبحت تلك الأعمال من كلاسيكيات الدراما الكازاخية، نظرًا لجودتها. وكان لذلك أثره الكبير أيضًا في ازدهار فن المسرح في كازاخستان في منتصف القرن الماضي.كما شهدت تلك الفترة ازدهار النقد الأدبي في كازاخستان، وشهدت فترة ما بين الستينيات إلى الثمانينيات ازدهار أجناس نثرية أخرى، كالقصة والقصة القصيرة فضلًا عن الرواية. ومن أشهر أدباء تلك الفترة ت.عليم قولوف وأ. بوكييف وت.نور محمبيتوف وغيرهم. اتسمت كتابات تلك الفترة بالتحرر من القيود التي فُرضت في حقبة ستالين، ولو بشكل نسبي.

وفي عام ١٩٩١، حصلت كازاخستان على استقلالها من الاتحاد السوفيتي. وطرأ تحول أيديولوجي كبير على مضمون الإبداعات الأدبية الكازاخية في العقد الأخير من القرن الماضي، وبدايات القرن الحالي. وبلغ إنتاج الكتَّاب الكازاخ من الضخامة بحيث أصبح يمثل مرحلة مستقلة، وحقبة كاملة في تاريخ تطور الأدب الكازاخي. ولم يكن من الممكن للتحولات الاجتماعية والدينية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع الكازاخي ألا تنعكس في كتابات المبدعين شعرًا ونثرًا. وواصل الأدباء الكازاخ إبداعاتهم في أجناس الحكاية والقصة والقصيدة، وسادت روح حرية الإبداع والزهو بالاستقلال في الأدب الكازاخي الحديث، واختفى مذهب الواقعية الاشتراكية، وتوقف الكتَّاب عن تصوير الصراع الطبقي بين مختلف شرائح المجتمع، كما توقفوا عن المبالغة في الاستعانة بالأساطير والمُثُل الطوبوية البعيدة عن الواقع، وسعوا إلى التعمق في استخدام النهج التاريخي والقراءة الموضوعية لظواهر الحياة، مع تسليط الضوء على صالح الوطن والمجتمع، والدعوة إلى التسامح والتعددية الثقافية واحترام الآخر. ومن أشهر كتَّاب كازاخستان حاليًّا أ.نوربيصوف وز.جابدولوفا وس. مرتضى وك. سيجيزباييف، وغيرهم.

وهكذا يتبين لنا كيف تطور الأدب الكازاخي من الشفاهة إلى الكتابة، وكيف تأثر وأثر على الآداب المحيطة، وكيف كان للأحدث التاريخية والتحولات السياسية والاجتماعية أثرها القوي في توجيه دفته وأولوياته. وما من شك في أن هذا الأدب ظل دوما معبرا عن آمال وطموحات وآلام الشعب الكازاخي، كما بقيت القيم الروحية والفلسفية المعين الأساسي الذي لا ينفذ والذي ظل هذا الأدب ينهل منه حتى يومنا هذا. وفي مقال آخر قادم، إن شاء الله نتحدث تفصيلًا عن الأدب الكازاخي المعاصر.

3

أدب الرحلة في طاجكستان
ناصر خسرو، الأديب العاشق لمصر
وصاحب كتاب «سفر نامه»

تُعتبر شخصية الأديب والعالم الرحَّالة الطاجيكي ناصر خسرو، من الشخصيات المهمة في تاريخ شعوب آسيا الوسطى عامة، والشعب الطاجيكي على وجه الخصوص.

وتمثل إبداعاته النثرية والشعرية مادة خصبة للباحثين والنقّاد، رغم مرور عشرة قرون على وفاته. وخلُص الكثيرون منهم إلى كونه أفضل من صاغ شعرًا ونثرًا بالفارسية في التاريخ. ويعتبر ضريحه مزارًا تاريخيًّا مهمًّا بالنسبة للشعب الطاجيكي. كما يمثل كتابه «سفر نامه» الذي يحكي تفاصيل رحلته إلى الحج أهمية خاصة، حيث يقدم لنا نموذجًا لما يجب أن تكون عليه مذكرات الرحلة. وحظي هذا الفن الأدبي بشهرة واسعة لدى أدباء آسيا الوسطى. كما يكتسب الكتاب أهمية أيضًا؛ نظرًا لما احتواه من وصف مفصَّل للمدن، والمجتمعات، والعادات.

ولعل الدليل على مكانة ناصر خسرو في خارج بلاده، أن الباحثين الغربيين من فرنسا وإنجلترا وألمانيا قد قاموا بتتبع أثره في رحلته التاريخية إلى الشرق، وقاموا بزيارة الأماكن التي زارها لتقييم مضمون كتابه.

وُلد ناصر خسرو (أبو معين حميد الدين ناصر بن حارث القبدياني المروزي) في مدينة قبديان في محافظة خراسان في عام ١٠٠٤م، لعائلة من موظفي الدولة وملاَّك الأراضي الأثرياء. ولم تصلنا معلومات كافية عن فترة طفولته، سواء في الكتابات التي تناولت سيرته أو في كتابه «سفر نامه».

وتُعد تلك المنطقة منشأ الشاعر من البقاع، التي شهدت تمازجًا بين مختلف الشعوب والأعراق والأديان، وخاصة مقاطعة بلخ التابعة لولاية خراسان الكبرى، التي كانت تمتد من شمال غرب أفغانستان حتى نهر جيحون في طاجكستان. وكانت العاصمة المحلية نيسابور، ومدينة مرو نقطتي توقف

مهمتين على طول طريق الحرير، وفي زمن ناصر، كانت تعيش جاليات كبيرة من اليهود والمسيحيين والبوذيين جنبًا إلى جنب مع المسلمين من كلتا العقيدتين السنية والشيعية: الأمر الذي ساعد على إنتاج فكري وديني وفني مثمر وثري.

وفي شبابه عمل في بلاط الغزنويين في الإدارة المالية، ثم في أثناء حكم السلاجقة. وقد ذكر ذلك بنفسه في «سفر نامة». وكان واسع المعرفة في مختلف العلوم في تلك الفترة. وبفضل سفراته الكثيرة التي كلف بها في عمله؛ اكتسب الكثير من الخبرات والمعارف، حتى أصبحت الوظيفة مملة ولا تشبع نهمه في المعرفة.

عاش ناصر خسرو في تلك الفترة المزدهرة ثقافيًّا، وكان لهذا أثر بالغ في تكوينه. ويكفي أن نذكر أنه كان في السادسة من عمره، عندما صدر كتاب الفردوسي الشهير «الشاهنامه» أو «كتاب الملوك».

ومنذ فترة مبكرة من حياته، طرح الشاعر على نفسه العديد من الأسئلة الفلسفية المهمة عن حقيقة الحياة، والكون، والسبيل إلى تحقيق السعادة الإنسانية. وحاول أن يجد إجابات وافية عنها لدى الشيوخ والعلماء، وفي كل المدارس الفكرية. وكان نهمًا في القراءة باحثًا عن الحقيقة، التي وجدها أخيرًا في الإيمان.

وفي الأربعين من عمرة مر بانقلاب روحي، وتحولت حياته بشكل راديكالي، وانطلق في رحلته الشهرة التي لم تكن رحلة دينية فقط بل تجربة لاستكشاف أسرار عالم الشرق. ترك ناصر خسرو مدينته، وتخلى عن وظيفته، وهجر عائلته، وسافر مع أخيه في رحلة طويلة إلى مكة. استمرت الرحلة سبع سنوات، زار فيها ناصر خسرو الكعبة أربع مرات. وفي طريقه نحو الحجاز مر ببلاد كثيرة، حيث عبر أراضي أرمينيا وشمال إيران وأذربيجان وسوريا والقدس، وقضى عدة سنوات في مصر، التي كانت تحت الحكم الفاطمي في تلك الفترة. تعرَّف الشاعر على المذهب الإسماعيلي عن قرب، حيث التقى بالعديد من كبار علماء هذا المذهب حينها، ومنهم المؤيد الشيرازي، الذي أصبح لاحقًا كبير علماء الخلافة الفاطمية.

وفي مذكراته رصد الشاعر والمفكر ناصر خسرو العادات والتقاليد في البلدان التي زارها أو مرَّ بها، حيث تناول النظم الإدارية لكل بلد، والإنجازات والتراث الثقافي، ووصف مخططات المدن الكبرى، والمباني الرئيسية في واجهة ومداخل المدن. وقد تحدث تفصيلًا في مذكراته الشهيرة «سفر نامه» عن انطباعاته ورحلته إلى بلدان الشرق الأوسط. وقد نشر الكتاب في عام

١٨٨١ لأول مرة، وتمت ترجمته إلى عدة لغات. ويحتوي الكتاب على وصف تفصيلي للمدن، والجماعات العرقية، والدينية، وعاداتهم، وتقاليدهم، وثقافاتهم، حيث أكَّد الرحاَّلة على حقيقة أهمية القاهرة كمركز ثقافي وحضاري ضخم في العالم، ومكانتها بالنسبة لمسلمي العالم.

ولكونه عالمًا، فقد اهتم على نحو خاص بإنجازات هذه الشعوب في العلوم المختلفة، كالتاريخ والسياسة، والآثار، والمعتقدات الدينية، وفنون القتال، وسجَّل كل ذلك.

وخلال هذه الرحلة زار مكة عدة مرات، وعاد إلى مدينة بلخ في طاجكستان شخصًا آخر بعد أن عثر على إجابات لمختلف الأسئلة التي كانت تقلقه.

ونلمح في كتابه إعجابًا شديدًا بمصر، التي كانت تُعد في مصافّ الدول المتقدمة في العالم في تلك الفترة، وذكر أن التجار لا يغلقون أبواب متاجرهم ليلًا، وأن هناك نظامًا دقيقًا ومتطورًا في جباية الضرائب، وبشكل تصاعدي. كما وصف النظام الإداري في المجتمع المصري، ووصف القاهرة وأسوارها، وأقنية الري والشوارع والحارات، وذكر أهم عشر حارات فيها، وشروط الضرائب، وأنظمة التوظيف وتأجير المحلات التجارية، حيث ذكر أنها كانت مملوكة بالكامل للخليفة، وكان التجَّار يقومون بسداد إيجار شهري، وكذا معظم المنازل، التي بلغ عددها بالقاهرة وحدها عشرة آلاف منـزل. كما وصف أسواق الفاكهة بالقاهرة، وقارن بينها وبين أسواق مكة وخراسان.

وتمثل حكاياته عن مصر مادة ثرية شيقة، حيث أعرب عن انبهاره بالقاهرة والحياة فيها، وذكر أنها تكاد تخلو من أي عيب، ولا تعاني من أية مشكلات. وتمنى لو أصبحت المدن في بلاده هكذا. ووصف الخليفة بكونه حاكمًا عادلًا، لا يُظلم عنده أحد. ولم يكن يجبر أحدًا على دفع الضرائب أو الخراج. ووصف كيف كان المصريون يبادرون بأنفسهم بالتبرع بأموالهم في فترات نقصان مياه النيل. ووصف كيف كان القضاة يتقاضوْن أعلى الرواتب لحمايتهم من الوقوع في براثن الرشى، وبما يحفظ هيبتهم وكرامتهم. ووصف ناصر أول مدينة وطأتها قدماه، وهي تنيس بالقرب من دمياط، وكيف يعيش سكانها في ثراء حتى أنه لا يجبى فيها ضرائب، ووصف إخلاص المصريين وأمانتهم وطيبتهم. كما تحدث عن طبقة التجار والمحال المصرية التي تتوفر فيها كل السلع والبضائع التي ترد على متن السفن من أرجاء الدنيا، وعن الأمان التام الذي يشعر به، حيث لا جرائم؛ حتى أن أصحاب محال المجوهرات والصيارفة لا يغلقون أبواب محالهّم، بل يكتفون بإسدال الستائر فحسب.

كما تحدَّث عن النيل، وقارن بينه وبين نهر جيحون، وذكر أن النيل أعظم وأكثر طولًا، ووصف منابعه، وحملة الخليفة لاكتشافها. كما وصف المباني المرتفعة، التي يبلغ عدد طوابقها ١٤ طابقًا، وذكر أنه بالقاهرة وحدها ١٤ - ١٥ مسجدًا جامعًا ضخمًا، وأكبرها مسجد عمرو بن العاص الذي يتسع لأكثر من خمسة آلاف شخص.

ونظرًا لعلمه الغزير، اختاره الفاطميون حجة دينية على إقليم خراسان، أي كبير شيوخ الدعوة هناك. وهو الأمر الذي آثار غضب الأغلبية من السُّنة عليه، ووصل الغضب إلى بلدته بلخ، فأدرك أن عليه الفرار، وسافر إلى الشرق في مكان يطلق عليه يغمان في إقليم بدخشان الجبلي.

وفي منفاه النائي، كتب ناصر العديد من الأعمال الفلسفية، وتراثه الباقي حتى يومنا هذا. وفي قصائده أطلق العنان لشعوره بالغُربة والحنين إلى الوطن، والأمل والثقة في انتصار الخير على الشر.

ومن غير المعلوم كم عاش بعد ذلك، إلا أنه في إحدى قصائده، ذكر أنه بلغ السبعين من العمر. وأغلب الظن أنه تُوفي في عام ١٠٨٨ - ١٠٨٩م. ويقع ضريحه على تل بالقرب من قرية جيرم في ضاحية فايز أباد.

أما عن أبرز إسهاماته، فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، أولها: مذكراته كرحَّالة أو كتاب «سفر نامه»، كما كانت تعرف حينها. أما الثاني: فيتمثل في ديوان أشعاره، وثالثها: الأعمال النثرية الفلسفية.

أما كتابه «سفر نامه» فمن غير المعلوم حتى الآن السنة التي كتب فيها. وربما كان ذلك بعد عودته من إحدى رحلاته. ويُعد الكتاب مصدرًا مهمًّا جدًّا للتعرف على الشرق الإسلامي في تلك الفترة، ويتسم الأسلوب بالبساطة والمصداقية.

أما مؤلفاته الفلسفية والشعرية، فقد كتبها في العشرين عامًا الأخيرة من حياته وفي منفاه الإجباري في يومغان. ويتسم شعره بكثرة الموتيفات القرآنية، فيها يدعو في أشعاره إلى البحث عن الحقيقة وإصلاح النفس والشعور بمعاناة الآخرين. وقد ألَّف ديوان شعر، يضم إضافة إلى القصائد الغنائية قصائد أصغر ورباعيات. وقد تُرجم عدد كبير من القصائد إلى لغات عدة، أهمها الإنجليزية والعربية. وفي عام ١٩٢٥ صدر كتاب شعري مهم له بعنوان «روشان نامه» (كتاب التنوير)، ويختلف عن العمل النثري الذي يحمل الاسم نفسه. أما القصيدة الطويلة الثانية فتحمل عنوان «سعادة نامه» (كتاب السعادة). ويبلغ إجمالي عدد الأبيات الشعرية التي أبدعها ناصر خسرو ما يقارب ١٥ ألف بيتا.

وقد لعب ناصر خسرو دورًا كبيرًا في تطوير فن القصيدة الشعرية، فقبل ناصر خسرو كانت الموضوعات التي تطرحها القصيدة تنحصر في الموتيفات السياسية، والفلسفية، والأخلاقية، والاجتماعية. فجاء خسرو وأضاف الموضوعات الرومانسية ومضامين الحب.

وهناك العشرات من الأعمال الأخرى التي جيء على ذكرها في كتابات المؤرخين، ونذكر منها على سبيل المثال كتاب «بستان العقل»، الذي ذكره ناصر خسرو نفسه في كتابيه «زاد المسافرين» و«جامع الحكمتين». ولعل الأخير من أهم كتبه الفلسفية، التي يجمع فيها بين الحكمتين الفلسفة والدين، وتحديدًا الفلسفة اليونانية والإسلام، ويسعى الكاتب للتأكيد على أن الاتجاهين لا يتعارضان مع بعضهما بعضًا؛ باعتبارهما وسيلة للوصول إلى الحقيقة الإلهية، بل إنهما يتطابقان جوهريًّا، ويؤديان إلى الوصول لنفس الحقيقة.

ويُعد كتابه «زاد المسافرين» آخر كتبه المحققة، ويتناول فيه ناصر خسرو الكثير من الموضوعات الطبيعية والميتافيزيقية، كالأجسام، والزمان، والمكان، والخلق، والعلة، والأثر، والثواب، والعقاب. ويبحث في النفس وأفعالها، وكيفية اتحادها مع الجسد، وكيفية ظهور الإنسان، وكيفية فنائه، وماهية السعادة والجنة، ويؤكد أن المعرفة والحكمة هما أهم ما يتزود بهما المسافر في رحلته الدنيوية.

وبتحليل إنتاج ناصر خسرو الفلسفي والشعري، وأهمية كتابه عن رحلته إلى الشرق، يتضح لنا الإرث الفكري العظيم الذي تركه هذا الرجل، الذي أهَّله لنيْل لقب حكيم والحجة في المعرفة في زمانه. وكثير من سكان آسيا الوسطى يدعون أنهم ينحدرون منه، كما تتصارع عدة دول بالقول إنه ينتمي إليها دون غيرها. ولا يزال الكثير من أعماله تحتاج إلى تحقيق وبحث ودراسة، هو وغيره من علماء ورحَّالة آسيا الوسطى الذين لعبوا دورًا مهمًّا في نقل الحضارة العربية إلى هذه البقاع، وأثْروا بعلمهم التراث والحضارة الإنسانية.

4

تاريخ الأدب الأوكراني الحديث

تعود جذور الأدب الأوكراني إلى القرن الثامن عشر مع صدور أول كتاب لأديب أوكراني وهو الضابط إيفان كوتلياروفسكي. وكان الكتاب عبارة عن رواية - محاكاة ساخرة وحمل عنوان «إينيديا». وقد استخدم فيها الكاتب فكرة ومضمون الكتاب الذي يحمل نفس الاسم لشاعر الروماني فيرجيل. ويعد هذا الكتاب الأول باللغة الأوكرانية الحديثة. وقد لقي الكتاب نجاحًا وانتشارًا واسعًا؛ ولذا سارع العديد من الأدباء الأوكران لمحاكاة التجربة.

وفي نهاية القرن الثامن عشر تم افتتاح أول جامعة أوكرانية بمدينة خاركوف. وبعد عدة سنوات تخرج فيها عدد كبير من الخريجين الذين يتقنون اللغة الأوكرانية الفصحى. وشهد القرن التاسع عشر ظهور الصحف المكتوبة باللغة الأوكرانية وخروج اللغة الأوكرانية من الريف إلى المدن وأصبحت اللغة الثانية رسميًّا بعد الروسية والتي كان سكان المدن يفضلون التحدث بها.

وشهد الأدب الأوكراني في بدايات القرن العشرين سعيًا مزدوجًا إلى الاحتفاظ بتقاليد الأدب الكلاسيكي في القرن التاسع عشر والبحث في الوقت نفسه عن أشكال جديدة والاستفادة من إنجازات الآداب الغربية الأخرى. حيث شهد هذا الأدب في تلك الفترة شيوع تيارات تقليدية كالرومانسية والواقعية الجديدة وتطور تيارات الرمزية والمستقبلية. وبرز عدد من الكتَّاب الأوكران يميلون إلى استخدام الأسلوب الأوربي الحديث في تصوير حياة الشعب الأوكراني. وقد ارتبط تيار المستقبلية في أوكرانيا باسم الأديب م. سيمينكو الذي اعتبر أحد أهم منظري ومؤسسي هذا التيار في أوكرانيا.

كما ذاع في تلك الفترة صيت الأدباء الأوكران الذين تعرضوا لاحقًا أثناء الحقبة السوفيتية للتشويه والحظر، ونذكر منهم الأديب فينيتشينكو والشاعر إيتانت وشيفشينكو وغيرهم. واتسمت أعمال هؤلاء بتصوير الواقع الاجتماعي لمختلف طبقات المجتمع الأوكراني سواء في القرية أو المدينة والتعرض لمختلف المشكلات بجرأة وبراعة في التصوير.

وفي السنوات الأولى للحكم الشيوعي السوفيتي وسيطرة البلاشفة على السلطة في أوكرانيا أدت موجات الهجرة الاضطرارية للمبدعين الأوكران إلى الخارج إلى تشكل مشاعر سلبية تجاه السلطة السوفيتية في الوسط الثقافي

الأوكراني. حيث ضمت هذه الموجة أسماء كبيرة مثل فينيتشينكو وشيركاسينكا وشابوفالا ودونتسوفا وغيرهم. وقد تم اتهام هؤلاء بأنهم معادين للثورة وتم تجاهل إبداعاتهم في الداخل. وفي الوقت نفسه كانت الطبقة المثقفة القديمة على خلاف في وجهات النظر مع السلطة الجديدة التي قررت القضاء عليها وتأسيس طبقة جديدة من المثقفين المنتمين إلى طبقة العمال والفلاحين.

أصبحت الثقافة في العقد الثاني والثالث من القرن العشرين في أوكرانيا جزءًا من سياسة الحزب الحاكم ويتوجب عليها أن تقوم بما يطلب منها وأن تصبح تحت إشراف ورقابة صارمة من الحزب والسلطة.

أما التيار المستقبلي في الأدب الأوكراني فقد استمر لسنوات ما بعد الثورة، وتم تأسيس جمعيات أدبية لهذا التيار في مختلف المدن الأوكرانية. وهاجم الأدباء المستقبليون أنصار الأدب الكلاسيكي ودعو إلى التجريب والتحديث وتقليد الغرب في الأدب والفنون. وقد انضم إليهم الكثير من الأدباء الرمزيين في أوكرانيا ومنهم سليسارينكو وياروشينكو وتيريشينكو.

وشهد النصف الأول من العشرينيات صراع بين الثقافتين الروسية والأوكرانية. في الوقت نفسه كانت هناك مساع مختلفة من جانب الأدباء الأوكران للبحث عن سبل للتعبير الفني الفكري نتج عنه تأسيس عدد من الجمعيات الأدبية. ولعل أهمها اتحاد الكتاب الفلاحين «بلوج» والذي ضم الأدباء الأوكران من أمثال جولوفكا وكوبيلينكو وبانشا وغيرهم. وسعى هؤلاء إلى توجيه الأدب إلى تنظيم وعي الفلاحين والطبقة المثقفة في الريف الأوكراني في روح الثورة البرولوتارية.

وقد أيدت جمعية الكتَّاب البرولوتاريين «جارت» ودعمت الحزب الشيوعي، وتحدث أعضاؤها عن ضرورة تشكيل ثقافة شيوعية أممية شاملة تصلح للإنسانية كلها وتخلو من أي طبقية. وقد انهارت الجمعية في عام ١٩٢٥م بوفاة مؤسسها الأديب بلاكيتني.

وفي عام ١٩٢٧م تم تأسيس اتحاد الكتاب البرولوتاريين في عموم أوكرانيا. كما لعب اتحاد كتاب غرب أوكرانيا دورًا مهمًّا في تطور الثقافة الفنية الأوكرانية.

وفي عام ١٩٢٩م سيطر ستالين على زعامة الحزب بشكل مطلق، وكان لذلك تأثير مدمر ونتائج كارثية على الثقافة عمومًا. ووضعت الثقافة شأنها شأن مختلف جوانب الحياة الأخرى تحت رقابة صارمة إدارية وفكرية مشددة. ولم تعد هناك خصوصية أوكرانية في الفن والأدب. وفي بداية الثلاثينيات تم

تأسيس اتحاد الكتاب والفنانين والموسيقيين الأوكران. وكان الهدف من ذلك تخفيف القيود على عملية تطوير الثقافة الأوكرانية. وشهدت تلك الفترة وضع نهاية لأي محاولات إبداعية للبحث عن سبل جديدة في التعبير الفني والأدبي وتم فرض رقابة صارمة على النشر الأدبي ومنع التواصل بين الأدباء في أوكرانيا ونظرائهم في بلدان العالم بما فيهم الأدباء الأوكران الذين هاجروا إلى الخارج.

وفي عام ١٩٣٢م ظهر مصطلح «الواقعية الاشتراكية» والذي وصف من قبل السلطات أنه المنهج الصحيح في الأدب والفن عمومًا، وهو ما قلص من إمكانات وفرص الإبداع. واتسمت الأعمال الأدبية المؤدلجة في تلك الفترة بغلبة موتيفات تمجيد الإنجازات العظيمة للدولة وتزيين الواقع وتزييف التاريخ. لم يعد هناك مجال للتجريب رغم أنه كان التيار الأقوى في الآداب العالمية في تلك الفترة.

وشهدت الفترة بين عامي ١٩٣٨ - ١٩٥٤م التنكيل والقمع بحق ٢٣٨ أديبًا أوكرانيًّا على الرغم من مناصرة العديد منهم للسلطات السوفيتية واشتراكهم في الحروب. وتشير كتب تاريخ الأدب إلى مقتل ١٧ أديبًا رميًا بالرصاص في حين أقدم ٨ آخرون على الانتحار وفقد ١٦ وتوفي ٧ في السجون. وقد تعرض الأديب الأوكراني الكبير ريلسكي للاعتقال. كما اعتقل الأديب أوستاب فيشنيا وسجن لمدة عشر سنوات بعد اتهامه بالمشاركة في مجموعة عسكرية مسلحة. وتم إعدام الأدباء كوسينكا وزيروف وسيمينكو. وأنهى الكاتب خفيليفوي حياته منتحرًا.

وكانت سنوات الحرب العالمية الثانية عصيبة وقاسية على الأدباء الأوكران. وألزم الأدباء بالكتابة في موضوع واحد لخدمة القوات على الجبهة. كانت كل المؤلفات تدور حول الوطن والدفاع عنه والتضحية من أجله. انتشرت القصائد الوطنية، وتم تكليف الأدباء بكتابة المقالات في الصحف التي تدعو الناس إلى القتال من أجل الدفاع عن الاتحاد السوفيتي.

وشارك عدد كبير من الأدباء الأوكران في الحرب على الجبهة. وشارك هؤلاء في كتابة المقالات في الصحف التي كانت تصدر على جبهات القتال. ومن أشهر المؤلفات التي صدرت في تلك الفترة «أوكرانيا على خط النار» للأديب دوفجينكو و«رحلة إلى سنوات الشباب» للكاتب ريلسكي و«وطني أوكرانيا».

وشهدت الخمسينيات والستينيات تطورًا كبيرًا في الأدب الأوكراني. حيث اتسم النثر الأوكراني بالبعد عن الوصف والتركيز على المشاعر والعلاقة بين

الأخلاقي والروحي والاهتمام بالتحليل ومناقشة القضايا. وبرز ذلك في إبداعات أوليس جونشار وزاجريبالني وزباناتسكي وكوزاتشينك. ويعتقد الكثيرون من مؤرخي الأدب الأوكراني أن الستينيات والسبعينيات كانت فترة مثمرة في الأدب حيث شهدت تعمقًا في الأصول الإنسانية واهتمامًا بالتحليل والتركيب وابتكارًا لأساليب وأشكال جديدة وترسيخها. وبرز في تلك الفترة كتاب مثل دراتش وكوستينكو وسيمونينكو. كما تأسست في تلك الفترة مدرسة الترجمة الأوكرانية والتي أصبح لها سمعة وصيت دولي كبير.

غير أن الأدب الأوكراني عاني في تلك الفترة أيضًا من الرقابة على الإبداع وتعرض العديد من الأدباء للنقد اللاذع في الصحافة الرسمية. ولم يكن القارئ في أوكرانيا على اطلاع بإبداعات الكتَّاب الأوكران في المهجر حيث تم عزله تمامًا. وقد ذاع صيت العديد من الكتَّاب الأوكران في المنفى ومنهم إي. باجريانكو الذي هاجر إلى ألمانيا وأسس هناك الحزب الديمقراطي الثوري الذي ناضل من أجل تحرير أوكرانيا من الاتحاد السوفيتي. ومن أهم رواياته «حديقة جافسيمانسكي» و«رجل يركض فوق هوة سحيقة».

وفي السبعينيات أيضًا ظهرت عدت شخصيات أدبية أوكرانية مؤثرة. ولعب هؤلاء دورًا كبيرًا في الحفاظ على تقاليد أدب الستينيات، ونذكر منهم كالينتس وتشوباي وبافولياك وغيرهم.

إ وظهرت في تلك الفترة حركة معارضة بين الطبقة المثقفة وضعت من بين أهدافها النضال من أجل الحفاظ على حرية الإبداع والرأي. وذاع صيت الأديب والشاعر ستوس الذي انتقد بشكل حاد الواقع الأوكراني بلغة أوكرانية بديعة. وفي عام ١٩٧٢م م تم اعتقاله للدعاية ضد الاتحاد السوفيتي حيث قضي ٥ سنوات في السجن. وفي عام ١٩٨٠م حكم عليه مرة أخرى بالسجن ١٥ عامًا. ويمثل هذا الشاعر رمزًا للأدباء الأوكران المعارضين للحكم السوفيتي في السبعينيات والثمانينيات. كانت كتاباته التي صورت حقيقة حياة الفلاحين في المزارع الجماعية والاحتجاج على القمع ضد الأدباء كافية للقضاء عليه، حيث فقد حياته في المعتقل الواقع في منطقة الأورال في عام ١٩٨٥م، ولم يعش حتى يرى التحولات الكبيرة التي عاشها الاتحاد السوفيتي بعد ٥ سنوات من وفاته.

وكانت منطقة جالتسيا هي المركز الأدبي في أوكرانيا في الثمانينيات حيث لم تتعرض هذه المنطقة إلى تأثير الروسنة كغيرها من مناطق أوكرانيا أثناء الحقبة السوفيتية.

وفي عام ١٩٩٠م تم إعادة الاعتبار للشاعر الكبير ومنح اسمه أعلى جائزة أدبية في أوكرانيا وهي جائزة الدولة التي تحمل اسم الشاعر تاراس شيفشينكو.

وقد شهدت الثمانينيات من القرن العشرين تطورًا كبيرًا في الأدب الأوكراني الذي يمثل فسيفساء تضم مختف المدارس والتيارات الأدبية.

كان عام ١٩٩٧م شاهدًا على ميلاد أدب جديد في أوكرانيا مع إعلان انسحاب عدد من أعضاء اتحاد الكتاب الأوكراني، حيث قام هؤلاء بتأسيس جمعية أدبية جديدة تحمل اسم «رابطة الأدباء الأوكران». ووضعت الرابطة ضمن أهدافها تجاوز الأزمة الإيديولوجية الهيكلية في الوسط الأدبي الأوكراني والتي نتجت بسبب عجز قادة اتحاد الكتاب الأوكراني عن إعادة إصلاح هذه المنظمة حتى تتجاوب ومتطلبات العصر.

ويتسم الأدب الأوكراني الحديث بالتنوع في استخدام الأساليب والموضوعات والاتجاه غربًا نحو أوروبا في التناول. ومن بين أهم الكتَّاب على الساحة الأدبية الأوكرانية اليوم يوري أندروخوفيتش ويوري فينيتشوك ويفجينيا كونونينكو وأوليج ليشيجا وإيفان مالكوفيتش.

وبدراسة تطور الأدب الأوكراني خلال القرن العشرين نجد أن هناك تشابهًا كبيرًا بين مراحل تطور الأدب الروسي والأوكراني نظرًا لتشابه الظروف السياسية والاجتماعية التي تعرض لها الشعبان. غير أن الأدب الأوكراني تميز بوجود مجموعات من الأدباء تسعى طوال الوقت للتخلص من التأثير الروسي والاقتراب من التيارات الغربية الأدبية السائدة.

* * *

قائمة المراجع

١-تاريخ الأدب الروسي،10 أجزاء، موسكو- برلين،٢٠١٤

٢- أخريمينكو ب.، تاريخ الأدب الاوكراني، موسكو، ١٩٧٠

٣- أبيليوك ي.، تاريخ الأدب الروسي في القرن العشرين، موسكو، ٢٠٠٩

٤- ألكسييفا ل.، تاريخ الأدب الروسي في القرن العشرين، موسكو، ٢٠٠٥

٥- يفديكيموفا أو.، تاريخ الادب الروسي في القرن التاسع عشر، موسكو، ٢٠١٤

٦- زايتسيف ف.، تاريخ الادب الروسي في النصف الثاني من القرن العشرين، موسكو، ٢٠٠٨

٧- ليبيديفا أو.، تاريخ الأدب الروسي في القرن الثامن عشر، موسكو ،٢٠١٦

٨- بيبين أ.ن. تاريخ الادب الروسي، ٤ أجزاء ، موسكو، ٢٠١٤

٩- سبيرانسكي م. تاريخ الادب الروسي القديم، موسكو ،٢٠٠٤

١٠- سالنيكوف أ. الادب الروسي بعد جوجول. سير حياة وسمات مميزة، سان بطرسيبورج ،١٩٠٦

١١- جورافل أ. تاريخ الادب الروسي نهاية القرن التاسع عشر الى مطلع القرن العشرين، ٢٠١٤

١٢- كوليشوف ف. تاريخ الادب الروسي، موسكو، ١٩٨٩

المؤلف في سطور

- أ.د. محمد نصر الدين محمد الجبالي.
- أستاذ ورئيس قسم اللغة الروسية بجامعة عين شمس
- المشرف على قسمي اللغة الروسية بجامعتي الأقصر وجنوب الوادي (الغردقة).
- المستشار الثقافي المصري ومدير البعثة التعليمية المصرية في روسيا الاتحادية سابقًا.
- كاتب مقالات بالصحف والمجلات الأدبية العربية وباحث في الأدب الروسي والترجمة.
- رئيس قسم اللغة الروسية بجامعة الملك سعود بالرياض سابقًا.





المؤلفات والترجمات

المؤلفات:

١ - معجم المصطلحات السياسية والاقتصادية (روسي – عربي) (عشرون ألف مصطلح سياسي واقتصادي) (وزارة الثقافة المصرية - المركز القومي للترجمة).

٢ - مذكرات الرحالة الروس إلى مصر في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين - باللغة الروسية – سان بطرسبورج – ٢٠٠٨م

٣ - كتاب تعريفي عن المملكة العربية السعودية باللغة الروسية - وزارة الثقافة السعودية - ٢٠١٠

٤ - الكتب المرجعية في الترجمات السياسية والنفطية والاجتماعية والعسكرية (من وإلى اللغة الروسية) لطلاب كلية اللغات والترجمة – الرياض – ٢٠٠٥م

٥ - كتاب (مشاهد من المملكة) – وزارة الثقافة السعودية – ٢٠١١م

٦ - كتاب المطالعات في اللغة العربية للطلاب الروس. موسكو.٢٠١٢م – ٣ طبعات

٧ - الاستراتيجيات الدولية في خدمة اللغة الوطنية. تجربة روسيا الاتحادية في حماية ودعم اللغة الروسية. الرياض. مركز اللغة العربية. ٢٠١٥م.

٨ - تاريخ الحج من روسيا الاتحادية، دارة الملك عبد العزيز التاريخية، الرياض، ٢٠١٧م

٩ - تاريخ الحج من دول البلطيق، دارة الملك عبد العزيز التاريخية، تحت الطبع.

١٠ - الأدب الروسي: شخصيات وتاريخ وظواهر، دار دوِّن للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢.

الترجمات:

١ - ترجمة رواية «زمن النساء» – الهيئة العامة للكتاب –سلسلة الجوائز - نوفمبر ٢٠١٦م

٢ - ترجمة كتاب » الأدب الشعبي عند العرب والترك» من اللغة الروسية إلى العربية. مركز الترجمة بجامعة الملك سعود - الرياض - ٢٠١٢

٣ - ترجمة كتاب» تاريخ الحج من أوزبكستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. دارة الملك عبد العزيز. الرياض.٢٠١٣

٤ - ترجمة كتاب»تاريخ الحج من طاجكستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. دارة الملك عبد العزيز. الرياض.٢٠١٤م

٥ - ترجمة كتاب»تاريخ الحج من تركمنستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. دارة الملك عبد العزيز. الرياض.٢٠١٦م

٦ - ترجمة كتاب»تاريخ الحج من كازاخستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. دارة الملك عبد العزيز. الرياض.٢٠١٧م

٧ - ترجمة كتاب (الإستراتيجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين) إلى اللغة العربية – المشروع القومي للترجمة – المجلس الأعلى للثقافة –وزارة الثقافة – مصر – ٢٠٠٣م

٨ - ترجمة كتاب (النور والظل) في الجغرافيا السياسية لمنطقة آسيا الوسطي - مكتبة العبيكان - ٢٠٠٩ – الرياض

٩ - ترجمة دليل تاريخ مصر القديم والحرف والصناعات القديمة في مصر الفرعونية – القاهرة – ٢٠٠٤م

١٠ - ترجمة قصائد الشاعر ألكسندر بوشكين ضمن مشروع موسوعة ترجمة أعماله إلى ٢٠٠ لغة عالمية. ٢٠١٤م

١١ - ترجمة كتاب «حوار الحضارات. روسيا والعالم الإسلامي». مركز الترجمة بجامعة الملك سعود. الرياض.٢٠١٧

١٢ - ترجمة كتاب» روسيا في الشرق الأوسط والأدنى»، دار نشر» أنباء روسيا»، القاهرة، ٢٠١٨مـ

١٣ - ترجمة كتاب» روسيا والغرب. لمن الغلبة؟»، المركز القومي للترجمة،٢٠١٩

١٤ - ترجمة رواية «مذكرات الكاهن الاعظم ايفان سيرجيفيتش»، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٢٠

١٥ - ترجمة رواية «النبطي» للأديب المصري يوسف زيدان إلى اللغة الروسية – دار نشر «أنباء روسيا» –٢٠١٥م

١٦ - ترجمة رواية «عزازيل» للأديب المصري يوسف زيدان إلى اللغة الروسية. دار نشر «أسترال». موسكو.٢٠١٣

١٧ - ترجمة إصدارات مركز زايد للتنسيق والمتابعة والتابع لجامعة الدول العربية إلى اللغة الروسية – دليل الإصدارات + دليل المحاضرات – ٢٠٠٣م

١٨ - ترجمة رواية الآخر للأديب فيودور ميخائيل دوستويفسكي، دار دوِّن للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م.

١٩- ترجمة كتاب : كريم حكيموف. سيرة حياة. موسكو، ٢٠٢١م

٢٠- ترجمة كتاب «الإمبراطورية الروسية وشبه الجزيرة العربية» ، المركز القومي للترجمة، تحت الطبع.